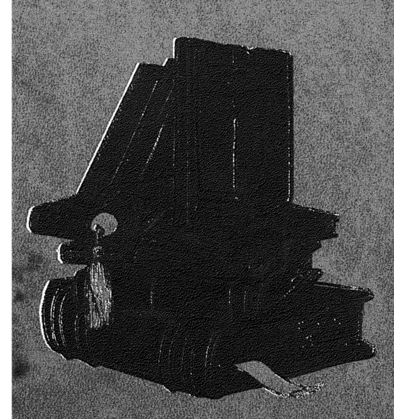
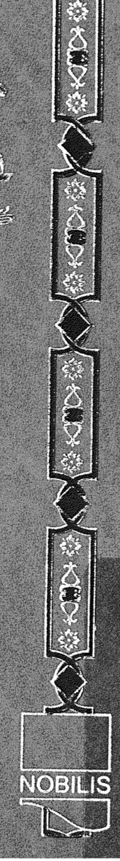
موسوعة

عالم الأديان

كل الأديان، المذاهب، الفرق، البدع في العالم





موسوعة عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

ديانات الشرق الأقصى



مجموعة مِن كبَار البَاحِثين

بإشراف

ط. ب. مفرّج

موسُوعَة

عَالـــم الأديـــان

كُلُّ الأديَان والمَذَاهِب والفرَق والبَدَع في العَالَم

الجزء الرَّابع

ديَانَات الشرق الأقصَى

الهِند - الصِّين - إيرَان - اليَابَان

NOBILIS

طبعة أولى ـ ٢٠٠٤

طبعة ثانية ـ ٢٠٠٥

إسم المَجموعَة	: موسوعَــــة عَالَــــم الأديَــــان كُلُّ الأديَان والمَذاهِب والفرَق والبِدَع في العَالَم
إسم الكِتَاب	: ديَانَات الشرق الأقصَى
الجزء	: الرَّابع
المؤلَّف	: مجموعَة من كبار الباحِثين بإشراف ط. ب. مفرِّج
قياس الكتَاب	: ٢٠ × ٢٨
مَكَان النَّشر	: بيروت
دَار النَّشر والتَّوزيع	: NOBILIS
تلفاكس	: ٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
	: ٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

المحتويات

الفَصلُ الأوَّل

الهندُوسِيَّة

الفَصلُ الثَّاني

الجينِيَّة

الفَصلُ الثَّالث

السِّيخ

الفَصلُ الرَّابع

الزَّرَادَشتِيَّة

الفَصلُ الخَامِس

الكُونفُوشيُوسيَّة والتاويَّة

الفَصلُ السَّادِس

الشِّنتُـــــــو

الفَصلُ الأوّل

الهندُوسِيّة

أصُول المجتمع الهِنْديّ؛ نِظَامُ الطبقات؛ الأديان في الهند؛ الهِندُوسِيَّة؛
تأسيسُ الهندُوسيَّة؛ قصَّة الخَلْق الكُتُبُ الهندُوسيَّة المقدَّسَة؛ الفيدا؛
قوَانين مَانو؛ ال"مَهَابهَا رتَا"؛ غيتا ؛ال"بواغافاسيستها"؛
رامَايَانَا ؛ العَقَائدُ الهندُوسيَّة؛ الدّينُ والحيَاة عندَ الهندُوس؛
آلهَة الهِندُوس؛ عبادة الفِيَلة والقردَة والأفاعي؛ تقديس البَقرة؛
الشّعَائر والطقوس الهِندُوسيَّة؛ رجَال الدّين؛ الهندوسيَّة في القَرن الأخير؛
بَين ظُهورُ البُوذيَّة والجينيّة ودُخولُ المسيحيَّة والإسلام.

أُصُول المجتَمع الهِنْديّ

ردّ أكثر الباحثين أصل اسم بلاد الهند إلى نهر الـ"أندوس"، أو نهر السند، وظهرت كلمة "إند" و"هند"، ومعناها الأرض التي تقع في ما وراء الأندوس، وسُمّي سكّان هذه البلاد: الهند أو الهندوس. بينما رأى آخرون أنّ اسم "الهند" مشتقّ من اسم الإله "إندرا"[1]. وكانت البلاد تحمل قبل ذلك اسم "بهارات". وكانت الهند في ما مضى تشكّل ما يُعرف بشبه القارّة الهنديّة التي تضمّ أيضًا باكستان وبنغلادش.

حضارة الهند موغلة في القدم، وهي في هذا تضارع مصر والصين وآشور وبابل. وقد وُصِفت الهندُ بأنّها بلاد العجائب والمفارقات إذ "في الهند الحديثة يتقابل وجهًا لوجه الشرق في عصور بدائيّته، مع الغرب في عصور حضارته وتطوّره"[2]. لكنّ حضارة الهند التي سبقت العهد الآريّ ظلّت غير معروفة حتّى أظهرت الاكتشافات الحديثة مدى الرقيّ الذي عرفته الهند في الشؤون المعماريّة والزراعيّة والاجتماعيّة قبل الميلاد بحوالى ثلاثة آلاف سنة، أي قبل الغزو الآريّ بحوالي خمسة

---

١ ـ شلبي د. أحمد، أديان الهند الكبرى: الهندوسيّة، الجينيّة، البوذيّة، سلسلة مقارنات الأديان ٤، مكتبة النهضة المصريّة، ط ٩ (القاهرة، ١٩٩٠)، ص ٢٥.

٢ ـ RYLANDS, *THE PEOPLES AND RELIGIONS OF INDIA*, P. 307.

عشر قرنًا. لكنّ التاريخ الواضح للهند ارتبط بالعهد الآريّ الذي اقتحم الهند في القرن الخامس عشر قبل الميلاد[1].

الآريّون قوم تميّزوا عمّن أحاط بهم من أمم، في مكان نزولهم، حتّى تلقّبوا بالآريّين، أي "الشرفاء" أو "المميّزين"، في اللغة السنسكريتيّة[2]. ومن المؤكّد أنّهم ليسوا من سكّان الهند الأصليّين، الذي هم أقرب إلى الزنج بلون بشرتهم، بل اختلفوا بلون بشرتهم الفاتحة حتّى عن الطورانيّين، وهم من العرق الأصفر الذين سبقوا الآريّين في الهجرة إلى السهل الهنديّ، من بابه الشرقيّ[3]. فالآريّون، بحسب بعض الباحثين، هم من الأوروبّيّين الشماليّين، البيض البشرة والطويلي القامة[4]. نشأوا على نهر الدانوب في أوروبّا، ثمّ هاجروا إلى آسيا عندما ضاقت بهم الأرض، متّخذين طريق الشرق حتّى بحر مرمرة، ثمّ عبروا مضيق البوسفور أو الدردنيل إلى آسيا الصغرى، واستمرّوا في سيرهم شرقًا حتّى نزلوا فارس بالقرب من تبريز، ومن هناك انحدروا إلى الهند[5]. بينما يرى باحثون آخرون أنّ الجنس الآريّ آسيويّ الأصل، كان يعيش في وسط آسيا في بلاد التركستان بالقرب من نهر جيحون، ثمّ زحفت أفواج ضخمة من هذا الجنس في أزمنة غير واضحة واتّجهت نحو إيران عبر الهند واتّجهت كذلك إلى أوروبّا[6]. ويردّ بعض المؤرّخين أصل الآريّين إلى العراق، استنادًا إلى تزامن

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، مرجع سابق، ص ٢٨، إستنادًا إلى: RYLANDS, *THE PEOPLES AND RELIGIONS OF INDIA,* P. 311.

٢ ـ إلياد ميرسياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينيّة، ترجمة عبد الهادي عبّاس، دار دمشق (دمشق، ١٩٨٧)، ١: ٢٤٢.

٣ ـ السعدي نبيه محمود، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، موسوعة هكذا نفهم مذهب التوحيد، دار العلم (دمشق، ٢٠٠١) ص١٠.

٤ ـ صعب أديب، الأديان الحيّة، نشوؤها وتطوّرها، دار النهر للنشر (بيروت، ١٩٩٣) ص ٢٩.

٥ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٢٧، عن: SEDILLOT RENÉ, *HISTORY OF THE WORLD,* P. 32.

٦ ـ عن دراسة صادرة عن وزارة التربية والتعليم الهنديّة، بعنوان: الهجرات الآرية، ص٤.

هجرتهم نحو الشرق، مع هجرة إبراهيم الخليل من العراق إلى فلسطين، من جهة، ثمّ إلى أنّ ما وضعوه من تشريع في الهند، لا مثيل له في أوروبّا إطلاقًا، من جهة ثانية[1].

بدأت أمواج الآريّين المتعاقبة تتدفّق إلى الجبال في الشمال الغربيّ من الهند نحو العام ١,٧٠٠ قبل الميلاد، واتّجه بعضهم نحو بلاد فارس، ومنهم جاء اسم "إيران". وفي الهند نظر الآريّون إلى أنفسهم نظرة تفوّق، ونظروا إلى الشعب الدرافيديّ الأصليّ، القصير القامة والقاتم البشرة، نظرة ازدراء، لكنّ دين الشعب الآريّ والدرافيديّ وحضارتهما امتزجا بعد قرون، وإنْ ظلّ التمييز الطبقيّ قويًّا بينهما[2].

حارب الآريّون الممالك التي أقامها الجنس الأصفر بالهند، والتي عُرفت بالممالك الطورانيّة، وانتصروا على الكثير منها، وكوّنوا لهم بها مناطق نفوذ، ولم يتّصل الآريّون بسكّان الهند بالتزاوج، لأنّهم دخلوا الهند كشعب مهاجر وليس كجيش محارب، فالجيش يكون عماده الرجال الذين سرعان ما يتّصلون بنساء الشعب المغلوب، أمّا الآريّون فقد دخلوا بثرائهم ونسائهم وأطفالهم، فلم يحتاجوا لنساء الهند للتزاوج، وكان عدم الحاجة إلى النساء مع الاستعلاء الذي يصحب النصر من دواعي نشأة الطبقات، كما كان هذا من أسباب كثرة الألوان في الهند. لذلك حافظ الآريّون على سلالتهم البيضاء وساقوا الهنود إلى الغابات والجبال أو أخذوهم أسرى، وسمّاهم الأدب الآريّ المبكّر "أمّة العبيد"[3]. وظهرت من الآريّين أيضًا طبقة المحاربين. ومن الطورانيّين تكوّنت طبقة التجّار والصنّاع والعمّال والفلاّحين والحرفيّين. أمّا الهنود الذين اتّصلوا

---

١ ـ السعدي نبيه محمود، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، نقلاً عن: حقّي د. إحسان، مانوسمريتي، دار اليقظة العربيّة، المقدّمة، ص هـ.

٢ ـ صعب أديب، الأديان الحيّة، نشوؤها وتطوّرها، مرجع سابق، ص ٢٩ ـ ٣٠.

٣ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٢٨، إستنادًا إلى: RYLANDS, *THE PEOPLES AND RELIGIONS OF INDIA*, P. 311.

بالطورانيّين فلم يدخلوا التقسيم في أول الأمر، لكنّ الحضارة الآريّة امتدّت إلى بعضهم بمرور الزمن، فأوجد الأريّون منهم الطبقة الرابعة وجعلوها طبقة الخدم والعبيد. وهم من الملوّنين غير الآريّين. وميّزت الطبقات الآريّة نفسها بشدّة عن الملوّنين. هكذا نشأت مشكلة اللون، وصارت كلمة VARNA، أي اللون، تعني الطبقة. أمّا الذين لم تمتدّ لهم الحضارة الآريّة من السكّان الأصليّين لأنّهم انعزلوا عن الفاتحين فقد بقوا بعيدين عن التقسيم، وظلّوا "طريدي المجتمع" أو "المنبوذين"[1].

مع اتّجاه الآريّين جنوبًا نحو سفوح الهمالايا، عرفوا الزراعة بعدما كانوا محض رعاة. وصنعوا شرابًا قويًّا اسمه "سوما" معصورًا من نبتة غير معروفة اليوم، كانوا يشربونه ممزوجًا بالحليب ويقدّمونه إلى الآلهة اعتقادًا منهم بأنّها تحبّه مثلهم. وكان لكلّ قبيلة منهم زعيم يُدعى "راجا" وهي من كلمة "REX" اللاتينيّة، التي تعني "الملك". ولم ينقضِ على وجودهم في الهند وقت طويل حتّى ذاعت قصصهم وملاحمهم الشفويّة، وضمنها صلوات وابتهالات كان الكهنة يرفعونها إلى الآلهة[2]. من تلك العقائد والصلوات نشأت أولى كتاباتهم المقدّسة التي نقع عليها في كتب الفيدا الأربعة.

وكما هو حال كلّ الشعوب في العالم، فقد كان لسكّان الهند قبل الآريّين معتقداتهم وعباداتهم الخاصّة، إذ إنّهم عبدوا قوى الطبيعة والحيوانات وبخاصّة البقرة، وقد استمرّت آثار تلك المعتقدات في ما بعد. لكنّ الآريّين جيّروا جميع تلك المعتقدات لصالحهم، وتزعّموا الدين، ابتداء من لحظة دخولهم مرابع كتب الفيدا المقدّسة الخاصّة بالديانة الفيديّة، التي سبقتهم في وجودها، فقاموا بنسج تفسيراتهم حولها، بما يُدعى

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ٣٢؛ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٢٩.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، نشؤوها وتطوّرها، ص ٢٩ ـ ٣٠.

"البراهمانا"، وذلك في بداية القرن الثامن قبل الميلاد، حيث قسّموا المجتمع إلى طبقات متفاوتة، جعلوا لأنفسهم أسمى وأعلى مراتبها الدينيّة فيها، بوصفهم "براهمة". لذلك كان لهؤلاء الآريّين شرف إرساء أقدم فكر دينيّ، يحاول الإجابة، بشكل أو بآخر، على مسائل محيّرة مثل: الحياة والموت، والخلق والحساب. كما كان لهم قصب السباق في تكريس زعامتهم الاجتماعيّة والدينيّة، على شبه القارّة الهنديّة، لأكثر من ثلاثة آلاف عام، امتدّت حتّى يومنا هذا[1].

وكانت المعابد غير موجودة في القديم، والعبادة تحصل في الهواء الطلق، وعندما أقام الآريّون المعابد لاحقًا، صاروا يرفعون العبادة بفرح. وفي القديم كانوا يقدّمون الهبات إلى الآلهة، كالحليب والحبوب والماعز والغنم والبقر. وأهمّ تقدماتهم الجياد. وكانوا يحفظون مقاعد لكي تستريح عليها أرواح الأسلاف غير المرئيّة، فتشارك معهم في الصلاة وتقديم الذبيحة. وبالتقاء الآريّين والطورانيّين مع السكّان الأصليّين، بدأت الطبقات في الهند، وأصبحت ذات أهميّة كبرى في تاريخ هذه البلاد، إذ تطوّرت الطقوس، وصار هناك كهنة يتعاونون على إقامة الخدمة. وأهمّ هؤلاء البراهميّون الذي يؤدّون الخدمة الأساسيّة، وهي البراهما أو صلاة الطلب. ولم تكن الذبيحة تتمّ دون حضور "آغني"، إله النّار عمومًا وإله المذابح خصوصًا، الذي تُتلى صلوات خاصّة لاستحضاره. وكما النار تطهّر وتنظّف، هكذا يفعل آغني بانتزاعه الخطيئة والشرّ. وهو يطرد الشياطين ويحمي المنزل الذي يحلّ في موقده. كما يبارك الزيجات ويتزوّج العذارى ويؤاخي الرجال[2].

---

١ ـ السعدي، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، ص١٠.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، نشوؤها وتطوّرها، ص ٣١.

مع نهاية القرن السابع قبل الميلاد، كان الآريّون قد تركّزوا في وادي نهر الغانج وأقاموا عددًا من المقاطعات المستقلّة، جعلوا الحكم في بعضها ملكيًّا وراثيًّا، وفي بعضها شعبيًّا تمثيليًّا، حيث يتولّى مجلس مركزيّ من الأعيان حكم القبيلة[1].

ولم تكن الهند، في يوم من الأيّام، منعزلة عن العالم، بل كانت على تماسّ مباشر مع الفرس، بعد احتلالهم قسمًا من أراضيها على يد قورُش (٥٥٠ ـ ٥٢٨ ق.م) ومن ثمّ توسيع نطاق هذا الاحتلال على يد داريوس في ما بعد. وكان فتح الإسكندر المقدونيّ ذا أثر كبير في نقل الفكر الهنديّ إلى الغرب، كما أبدى الفتح الإسلاميّ العربيّ للهند أيضًا، محاولات بارزة في التعريب والنقل، ثمّ ما لبثت الهند أن احتكّت بأوروبّا الحديثة عن طريق الاستعمار البريطانيّ[2].

نِظَــــامُ الطبقات

تُعتَبر الطبقيّة أساسًا في المعتقدات الهندوسيّة التي يتكوّن المجتمع فيها من أربع طبقات: البراهمة؛ الجند؛ التجّار والصنّاع؛ الخدم والعبيد. وبمعتقدهم أنّ لا أحد يستطيع، من منطلق سلالته، أن ينتقل من طبقة إلى طبقة أخرى. ذلك أنّ سلالة البراهما قد وُجدت من رأس الخالق؛ ومن ذراعه جاء مَن يليهم في الأفضليّة وهم الملوك والمحاربون، ويُسمّون "الأكشتريا"؛ ومن فخذَيه جاء أرباب المهن في العالم بين زرّاع وتجّار ممّن يوفّرون مسائل العيش للكهّان والملوك والمحاربين، وهؤلاء هم

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ٣٢.

٢ ـ السعدي، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، ص١٧.

"الفيشيّة"؛ ومن قدمَيه جاء بقيّة الناس الذي ينتمون إلى الطبقة السفلى، وليس لهم مهمّة سوى خدمة الطوائف الثلاث السابقة في أخسّ حاجاتها، وهؤلاء هم الذين يسمّون "الشودرا" وهم "المنبوذون"[1]. وباختصار يقول الكهنة إنّ نظام الطبقات أوجده براهما الخلاّق الذي أراد أن يكون البشر أنواعًا في طبقات بعضهم أفضل من بعض، وبعضهم أسوأ من بعض. وبناء على هذا التفكير الذي يرى أنّ الطبقات خلقها اللّه على هذا الوضع يصبح هذا التقسيم أبديًّا، فهو من صنع اللّه ولا طريق لإزالته، وعلى هذا لا يرتفع أيّ شخص من أيّ قسم إلى قسم أعلى. ذلك أنّ الإبن يأتي على نمط أبيه، فلا يجوز لرجل أن يتزوّج امرأة من طبقة أعلى من طبقته، لعدم الكفاءة، ولأنّ أولاده منها سيهبطون إلى مستواه، وهذه خسارة على التكوين الاجتماعيّ، ولكن يجوز للرجل أن يتزوّج امرأة من طبقة أقلّ من طبقته على ألاّ تكون من الطبقة الرابعة "الشودرا" التي ليست إلاّ للخدمة، ولا تسمو لأن يتزوّج منها أحد أفراد الطبقات العليا الثلاثة[2]. ويتبع نظام الطبقات كذلك اختيارُ أسماء الأفراد لأبناء كلّ طبقة، فيُختار الإسم من الكلمات الدالّة على البهجة والسرور إنْ كان براهميًّا، وعلى الحول والقوّة إنْ كان كشتريًّا، وعلى الغنى والثروة إنْ كان ويشيًّا، وعلى الذلّ والمهانة إنْ كان شودرًا. ولا تقتصر المحرّمات الطبقيّة على كلّ هذا فحسب، بل تعدّته إلى بقيّة العلاقات، كالصداقة.

هذا التقسيم الطبقيّ قد نشأ عن التقاء الآريّين بالطورانيّين والسكّان الأصليّين، معنى هذا أنّ منشأه كان على أساس الجنس، متسترًا أو معلّلاً بالمعتقد الدينيّ الذي وضعه الآريّون من أجل هذه الغاية. فقد كان الآريّون شعبًا يفوق في نشاطه وحيويّته

---

١ ـ مظهر سليمان، قصّة الديانات، دار الرقي (١٩٨٤) ص ٨٢ ـ ٨٣؛ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٦٠.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٦١، نقلاً عن: الفقه الهندوسيّ الأكبر، ص٢٣.

السكّان الأصليّين، وكانوا يعتقدون اعتقادًا جازمًا بسُمُوّ جنسهم على سواهم من الأجناس. وكلمة "آريّ" التي عُرفوا بها معناها "النبلاء"[١]. ذلك أنّ المنبوذين هم سكّان الهند الأصليّين الذين لا يجري في عروقهم الدم الطورانيّ أو الدم الآريّ، ويسمّون "زنوج الهند". وقد حرمهم المجتمع الهندوسيّ حقوق الإنسان، ونزل بهم إلى مستوى أقلّ، أحيانًا، من مستوى الحيوان، ولم يُسمح لهم بأن يعتنقوا الدين الهندوسيّ، أو يتخلّقوا بآدابه، وتُركوا هكذا في حياة بدائيّة مريرة، ومن ثمّ اتّجهوا في تديّنهم إلى الأمور البدائيّة، فأصبح دينهم أشبه بعبادة الأرواح التي اعتصمت بها الأقوام الفطريّة الساذجة، وأعظم الآلهة في مجتمع المنبوذين ربّما كان كومة من الآجُرّ تمثّل أمّ القرية أو شيطانها الذي يمنح الخصب للعواقر، ويحمي المحصول من الآفات، ويرعى القرية بعنايته ورعايته، وقد يكون للمنبوذ فكرة غامضة مبهمة عن كائن سامٍ عظيم، ولكنّه إلى جانب ذلك يؤمن بجملة من الأرواح الشرّيرة[٢]. على أنّ جميع الطبقات تقدّس البقرة. والبراهمة هم ملجأ الجميع في حالات الميلاد والزواج والوفاة[٣]. وإنّ خدمة المنبوذ للبراهمة هي أفضل ما يُحمد عليه. ولا يجوز له أن يجمع ثروة أيًّا كانت ولو كان على ذلك من القادرين. لأنّه إذا جمع المال فسيتيح له ذلك أن يطاول البراهمة بوقاحته. وهو إذا نادى مَن هو أعلى منه باسمه أو اسم طائفته متكلّمًا فعقابه أن يُدخَل في فمه خنجر محمّى مثلّث النصل طوله عشرة قراريط. ويأمر الملك بصبّ زيت حار في فمه وفي أذنَيه إذا بلغ من الوقاحة ما يبدي به رأيًا للبراهمة في أمور وظائفهم. وقد يحدث أن يعتدي رجل من المنبوذين على عفاف زوجة برهميّ، فإذا حدث ذلك

---

١ - WEECH, *THE PEOPLES AND RELIGIONS OF INDIA*, PP. 311- 312.

٢ - شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٥٧؛ سعيد حبيب، أديان العالم الكبرى، ص٢٨ - ٣٩.

٣ - HINDUISM, ED. BY LEWIS RENOU, PP. 34 - 35.

صودر كلّ ما يملكه وأُنزل به عقاب يجعله لا هو بالذكر ولا هو بالأنثى. وإذا قتل زميلاً له كان عليه أن يكفّر عن جريمته بعشر بقرات يهبها للبراهمة، أمّا إذا قتل أحدًا من "الفيشية" فكفّارته للبراهمة مائة بقرة، وإذا قتل أحدًا من "الكاشترا" ارتفعت كفّارته إلى ألف بقرة يعطيها للبراهمة. أمّا إذا قتل براهميًّا فلا بدّ من قتله، لأنّ العقاب بالقتل لا يكون إلاّ لقتل براهميّ[١].

لقد استمرّ هذا التقسيم الطبقيّ أمد التاريخ كلّه، ويقول باحثون غربيّون[٢] "إنّ هذا أمر من شأنه أن يجعل سكّان الهند شيئًا يخالف المجتمعات الأوروبيّة والمغوليّة؛ البسيطة السهلة التزاوج، فهو في الحقيقة مجتمع مجتمعات". ولا يزال المنبوذون يعانون هذا أو أكثره حتّى اليوم، فالحرف الحقيرة وقفٌ، أو ضريبة عليهم، ودُور العلم لا تُفتح لهم إلاّ قليلاً، وقد دفع هذا الوضع برؤسائهم لأن يهدّدوا باعتزال الهندوسيّة والدخول في مجتمعات الأديان الأخرى، ومن أجل هذا فقط، خفّت حدّة المعاملة التي كان يعاملهم بها الهندوس، خوفًا من أن ينضمّوا إلى الأديان الأخرى التي تحارب الهندوسيّة، وساعد على ذلك ما أصدرته الحكومة الهنديّة من قوانين المساواة التي، إنْ لم تحقّق المساواة كلّها، فقد حسّنت أحوال هؤلاء المساكين بعض الشيء[٣]. ويشير باحثون إلى أنّ هذه الطبقات الأربع ليست في الحقيقة إلاّ تبسيطًا للحديث عن نظام الطبقات في الهند، إذ إنّ الهنود مجتمع تنتشر فيه الطبقات "حتّى أنّ عدد طبقاته الآن يبلغ حوالى ثلاثة آلاف طبقة"[٤]. ذلك أنّ طبقة الكهنة قد حافظت طويلاً على نقائها، أمّا

---

١ - مظهر، قصّة الديانات، ص٨٣ - ٨٤.

٢ - Wells, *A Short History Of The World*, P. 121 - 122.

٣ - شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٥٧.

٤ - Weech, *The Peoples And Religions Of India*, P. 31.

الطبقات الثلاث الأخرى فقد تفتّتت ونشأ عنها طبقات كثيرة[1]. كما اتّخذ النظام الطبقيّ في الهند أحيانًا أسسًا جديدة، فمن ذلك مثلاً أتباع مذهب "السيخ" الذي أُنشئ لخلق دين موحَّد من الهندوسيّة والإسلام، ولم يفلح هؤلاء في ما قصدوا إليه، لكنّهم سرعان ما اتّخذوا من مذهبهم أساسًا لنظام طبقيّ، فقد عدّوا أنفسهم طبقة ورفضوا التزاوج مع سواهم، ووضعوا كذلك نظام القرية الذي لا يسمح أحيانًا بالتزاوج بين سكّانها وسكّان قرية أخرى[2].

وهناك محاولات تزعّمها المهاتما غاندي للتخفيف من حدّة هذه الطبقات أو إزالتها، وكذلك لإنصاف طبقة المنبوذين بوجه خاصّ، ولكنّ هذه المحاولات لم يقدَّر لها النجاح بعد، وكان الزعيم غاندي ضحيّة من ضحاياها، وتعتمد هذه المحاولات على اتّجاه فلسفيّ جديد لهذا التقسيم، بأن تذكر بأنّه ليس خِلقيًّا ولا طبيعيًّا، وليس إلاّ توزيعًا للأعمال حسب طبع كلّ إنسان وميله واستعداده[3].

وكان مع الوقت قد نشأ صراع بين رجال الدين والأشراف، إذ ادّعى كلّ من الطبقتَين الحقّ الإلهيّ في التفوّق. وتمّت الغلبة أخيرًا لرجال الدين الذين أغدقوا على أنفسهم أهميّة تفوق تلك التي للآلهة، وادّعوا حكم الكون والسماء والجحيم، وزعموا أنّ في إمكانهم تبديل مجرى الأحداث الكونيّة عن طريق طقوسهم التي كانت تستمرّ أحيانًا أسابيع وأشهرًا، وصار الناس يعاملونهم في بيوتهم كأنّهم آلهة. وأنتجوا أدبًا اسمه "البراهمانيّات" أضافوه إلى الفيدا. و"البراهمانيّات" أساسًا محاضرات أو أجزاء من

---

١ - BERRY, *RELIGIONS OF THE WORLD*, P. 40.

٢ - HINDUISM, OP. CIT., PP. 34 - 35.

٣ - شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٦٥، إستنادًا إلى: كيتا كرشنا، ثقافة الهند، تمّوز (يوليو) ١٩٥٠، ص ٥٢؛ وتمّوز (يوليو) ١٩٥٢، ص٥٧.

محاضرات كانت تُلقى على المرشّحين للكهنوت في المعاهد الخاصّة. ودُوّنت للمرّة الأولى نحو العام ٣٠٠ قبل الميلاد، وجلُّها تفصيل للطقوس التي ترافق التقدمات. لكنّها تنطوي على إشارات إلى العقائد، مثل عقيدة الخَلق، ومبدأ الوحدة في الكون، وتشير بقوّة في اتّجاه التوحيد. هنا يغدو "براغاباتي"، الذي نجده في الفيدا ربًّا للخلائق، "براهما سفايانيبو SVAYANIBHU"، أي الذي يحيا بذاته. وهو خالق الكون. ويبدو أنّ الكهنة وحّدوا بين الإله الذي يرفعون إليه الصلاة لكي يتدخّل في سَير الأشياء والإله الذي خَلق الأشياء. ونجد في "البراهمانيّات" إذًا، تطوّرًا فكريًّا نحو التوحيد، أي فكرة الإله الواحد. أمّا الفلسفة الدينيّة الأولى لدى الهندوس فنجدها في مجموعات الأوبانيشاد، وهي بمثابة هوامش على "البراهمانيّات"[1].

الأديَان

في الهند

يرى علماء مقارنة الأديان أنّ الغريزة الدينيّة مشتركة بين كلّ الأجناس البشريّة، وأنّ الاهتمام بالمعنى الإلهيّ وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالميّة الخالدة للإنسانيّة. كما أنّ هناك عوامل تقوّي هذه الغريزة من أهمّها اختلاف قوى الطبيعة، ومواجهة الإنسان لهذه القوى وجهًا لوجه، وإحساسه بالضعف تجاهها. والهند حقل رائع لتطبيق هذه المبادئ، حيث تنشط القوى الطبيعيّة، وقد واجهها الإنسان الهنديّ وجهًا لوجه، وأحسّ بالضعف تجاهها، فأصبح "متديّنًا بطبيعته يشغف بالروحانيّات،

---

١ - صعب، الأديان الحيّة، ص٣٢.

ويسعى دائبًا إلى معرفة اللّه، ويتّخذ الزهد وسيلة للتخلّص من دنيا المادّة وينتظم في دنيا الروح"[1]. كانت الأمّة الهنديّة متسامحة في كلّ ما يُعرض عليها من الأفكار والمعتقدات، تكثر عندها الآراء والابتكارات، وكان الناس حيارى مشرفين على القبول والمعاضدة، عقائدهم متضاربة، وأفكارهم متباينة، وقد فَشَت فيهم رهبانيّة، وسرت فيهم باطنيّة، وقامت حلقات الفكر في كلّ نواحي البلاد يتزعّمها العلماء والعرفاء، ونشأت دراسات أخلاقيّة قصدها العامّة والخاصّة، فقد عمّت الرياضات الشاقّة المتعبة في سبيل حصول السيطرة على القوى الكونيّة، ونشأ التبتّل في الكهوف للمراقبات النفسيّة، والانقطاع في الغابات لإتعاب الأبدان لترقى القوى الروحانيّة[2]. وعلى هذا اشتهرت الهند بكثرة الأديان والمعتقدات التي تضارع في كثرتها لغات الهند أو تقرب منها.

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، مرجع سابق، ص ٣٢، إستنادًا إلى: سعد، أديان الهند الكبرى، ملخّص عن الإنكليزيّة، ص ٢٤.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، استنادًا إلى: الرامبوري محمّد عبد السلام، فلسفة الهند القديمة، مجلّة ثقافة الهند، ص ٨٥ ـ ٨٦.

الهِندُوسِيَّة

كانت الهندوسيّة ولا تزال أشهر الأديان التي عرفتها الهند وأوسعها انتشارًا، وهي الديانة الرسميّة في الهند. بل إنّها الدين العامّ الذي حوى غالبيّة الهنود أو كلّهم، وإذا تمرّدوا عليه أحيانًا أو تمرّد بعضهم، عاد المتمرّدون بعد وقت قصير أو طويل إلى رحابه، والسبب في ذلك "أنّه من الصعب أن يُطلق على الهندوسيّة دينًا بالمعنى الشائع، فالهندوسيّة أشمل وأعمق من الدين، إنّها صفة لملامح المجتمع الهنديّ، بنظامه الطبقيّ ومكان كلّ طبقة فيه. إنّها الحياة الهنديّة بأسلوبها الخاصّ الذي يُعتبر في ذاته شعيرة من الشعائر، وهي خليط يشمل الأمور المقدّسة والأمور الدنيويّة جميعًا، إذ لا يوجد في الفكر الهندوسيّ حدّ فاصل بين الإثنَين، إنّها الاتّجاهات الروحيّة والخلقيّة والقانونيّة، وهي مبادئ وقيود وعادات توجّه الحياة الهنديّة وتسيطر عليها"[1]. هي طريقة تفكير وحياة واسعة جدًّا، نجد فيها مكانًا للتعدّديّة والأحديّة والازدواجيّة، وكذلك لممارسات طقسيّة متنافرة. علمًا بأنّ الهندوس أنفسهم، لم يتمكّنوا من الوصول إلى التعريف الصحيح لديانتهم، وذلك في المؤتمر الذي عقدوه خصّيصًا لهذه الغاية، في مطلع القرن العشرين، فوق الأراضي الهنديّة، حيث لم يتوصّلوا إلى أكثر من تعريف سلبيّ منقوض[2]. ومن أهمّ ما ميّز الهندوسيّة في مرحلتها الأولى التشديد

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٣٨، استنادًا إلى: HINDUISM, ED. BY LEWIS RENOU, P. 4.

٢ ـ السعدي، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، ص٣٦، عن: حقّي د. إحسان، المقدّمة، ص هـ.

على إطاعة قوانين العشيرة لكي يولد الإنسان في حياة ثانية أكثر سعادة من حياته الحاضرة[1].

وتُسمّى الهندوسيّة أو الهندوكيّة، إذ تمثّلت فيها تقاليد الهند وعاداتهم وأخلاقهم وصور حياتهم. وأُطلق عليها البَرْهميَّة ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد. نسبة إلى "براهما BRAHMA"، وهو القوّة العظيمة السحريّة الكامنة التي تطلب كثيرًا من العبادات كقراءة الأدعية وإنشاد الأناشيد وتقديم القرابين[2]. ومن براهما اشتقّت الكلمة "البراهمة" لتكون علمًا لرجال الدين الذين كان يُعتقد أنّهم يتّصلون في طبائعهم بالعنصر الإلهيّ، وهم لهذا كانوا كهنة الأمّة، لا تجوز الذبائح إلاّ في حضرتهم وعلى أيديهم[3].

تأسيسُ الهندُوسيَّة

ليس هناك مؤسّس للهندوسيّة يمكن الرجوع إليه كمصدر لتعاليمها وأحكامها، فالهندوسيّة دين متطوّر ومجموعة من التقاليد والأوضاع تولّدت من تنظيم الآريّين لحياتهم جيلاً بعد جيل بعدما وفدوا على الهند، وتغلّبوا على سكّانها الأصليّين واستأثروا دونهم بتنظيم المجتمع. وقد تولّد من استعلاء الآريّين الفاتحين على سكّان الهند الأصليّين واحتكاكهم بهم تلك التقاليد الهندوسيّة التي اعتُبرت، على مرّ التاريخ، دينًا يدين به الهنود ويلتزمون بآدابه[4]. ويمكن القول إنّ أساس الهندوسيّة هو عقائد الآريّين

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، مرجع سابق، ص ٢٩.

٢ ـ الرامبوري، فلسفة الهند القديمة، ص ١٩.

٣ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٤٣، نقلاً عن: سعد حبيب، أديان العالم الكبرى، ملخّص عن الإنكليزيّة، ص ٢٧.

٤ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٤٣ ـ عن: BERRY, *RELIGIONS OF THE WORLD*, P. 42

بعد أن تطوّرت بسبب اختلاط الآريّين، وهم في طريقهم البطيء إلى الهند، بشعوب كثيرة وخاصّة بالإيرانيّين، ثمّ تأثّرت هذه العقائد بعد احتلال الآريّين للهند بسبب الاتّصال بأفكار السكّان الأصليّين، وبفلسفات وأفكار نشأت في الهند في مراحل متباعدة من التاريخ، حتّى أصبحت الهندوسيّة بعيدة عن العقائد الآريّة الأصيلة[١]. "ويوضّح تاريخ الهندوسيّة استيعابها لشتّى المعتقدات والفرائض والسنن، وليست لها صيغ محدودة المعالم، ولذا تشمل من العقائد ما يهبط إلى عبادة الأحجار والأشجار، وما يرتفع إلى التجريدات الفلسفيّة الدقيقة"[٢]. وإذا كان ليس للهندوسيّة مؤسّس معيّن، فإنّ الـ"فيدا VEDA"، وهو كتاب الهندوس المقدّس الذي جمع العقائد والعادات والقوانين.. بين دفّتيه، والكلمة سنسكريتية معناها العلم أو المعرفة، ليس له كذلك واضع معيّن، ويعتقد الهندوس أنّ كتاب الفيدا أزليّ لا بداية له، ومُلهَم به قديم قِدَم الملهِم، ويرى الباحثون من الغربيّين، والمحقّقون من الهندوس، أنّه قد نشأ في قرون عديدة متوالية لا تقلّ عن عشرين قرنًا، بدأت قبل الميلاد بزمن طويل، وقد أنشأته أجيال من الشعراء، والزعماء الدينيّين، والحكماء الصوفيّين عقبًا بعد عقب، وفق تطوّرات الظروف وتقلّبات الشؤون[٣]. ويرى الهندوس أنّ تعاليم الفيدا أزليّة، ويعتبرون أنّ مؤلّفها هو الإله كريشنا، كما جاء في نشيد المولى (بهاغافاد غيتا ١٥/١٥)؛ وهي بحسب بعض التقاليد الهندوسيّة الموروثة، تعود إلى ٨,٠٠٠ قبل الميلاد[٤]؛ ويردّ بعض المؤرّخين أقدمها "الريغويدا" إلى حوالى ٣٠٠٠ قبل الميلاد[٥]. وفي مطلق الأحوال، فإنّ الفيدا أقدم عهدًا

---

١ - HINDUISM, OP. CIT., PP. 2 - 3.

٢ - الهند والغرب، منشورات إدارة الاستعلامات ووزارة التربية والتعليم بالهند، ص ١٨.

٣ - الرامبوري محمّد عبد السلام، فلسفة الهند القديمة، مجلّة ثقافة الهند، (آذار - مارس ١٩٥٣) ص ٣.

٤ - بهاغافاد غيتا، نشيد المولى، المقدّمة، ترجمه عن الإنكليزيّة رافاناري داس ورابح يونس، دار كتب بهاكتي فيدانتا (١٩٧٢)

٥ - شلبي، سلسلة مقارنة الأديان، ٤: ٤٢.

من التوراة بعدّة قرون، هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار أقرب تاريخ له، على رأي بعض الباحثين، وهو ١,٥٠٠ قبل الميلاد[١]. إلاّ أنّ تطوّر الديانات الهنديّة، قد تمّ بأسلوب جمعيّ، يبقى القديم فيه على قدمه، مضافاً إليه الجديد، وهذه هي حال الهندوسيّة. فقد وقفت عبادة الإله الضبابيّ الواحد، إلى جانب عبادة قوى الطبيعة المختلفة، دون أن يتأثّر أحدهما بالآخر، ممّا يتنافى مع أسلوب التطوّر العام، الذي يتطلّب بأبسط معانيه الإقلاع عن القديم، المناقض للواقع بكافّة أشكاله، واتّباع الجديد الملائم لهذا الواقع. أمّا ضمّ الجديد إلى القديم، دون تفاعل بينهما، فينجم عنه عنصر مختلف عن أيّ منهما بشكل أو بآخر، فهو لا يمكن وصفه بالتطوّر[٢].

قصّة الخَلْق

تعيدُ الهندوسيّة خلق الحياة إلى "براهما" الذي كان يعيش وحده بعيدًا جدًّا، في اللانهاية، حيث الفضاء رائع، غريب، عملاق، يطلّ أمامه إلى حيث يستلقي كلّ العالم الذي لا يضيق بشيء، ولا يتّسع لشيء، ولا يحدّه شيء على الإطلاق. وقد نشأ في أعماق "براهما" وهو يلقي بنظرته البعيدة هدير صاخب يقول:

> أنا أقوى من السماء وأعظم من الأرض، وأرفع من كلّ هذه الأجرام والكواكب حولي. أنا أعلى من جميع هذه الأشياء. أنا الكلّ في الكلّ. أفعل ما أريد، وأخلق ما يخطر لي. أنا جوهر هذا العالم الواحد الشامل، لست بالذكر ولا بالأنثى، إنّما أنا روح غير مشخّص في صفاته، أحتوي كلّ شيء، وأكمن في كلّ شيء، لا تدركني الحواس، لأنّي أنا حقيقة الحقيقة، أنا... براهما.

---

١ ـ فيليوزات جان، فلسفات الهند، ترجمة علي مقلّد، الكتاب رقم ٣٧ من سلسلة ماذا أعرف؟ المنشورات العربيّة، ص ٧.

٢ ـ السعدي، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، ص٣٦.

غير أنّه مع كلّ ذلك لم يكن يحسّ سرورًا قطّ. فلقد طالما كره تلك الوحدة التي تحتويه في ذلك المحيط اللانهائيّ. ولعلّه لم يبلغ به الضيق ذلك الحدّ قبل هذه اللحظات التي بدا له فيها أنّ الأمر أصبح يتطلّب شيئًا ثانيًا، شيئًا يستطيع أن يملأ بوجهه ذلك الفراغ الهائل اكبير. وكان لا بدّ أن يكون. وبأطراف أنامله صنع براهما شيئًا هائلاً كبير الحجم، يكاد يعدل جسمه عملاقًا وعملاقة تعانقا. ونفخ الخلاّق في الجسد العملاق فإذا به ينشقّ نصفَين... نصفًا لرجل، ونصفًا لامرأة. وعلى سطح الأرض نشأ في العالم أوّل زوج، وأوّل زوجة، واجتمع الزوجان. فكان أوّل نسلهما البشر. وأطلّت امرأة إلى رجلها. كان فيه شيء لم تفهمه وسرّ لم تدركه. وفي أعماقها سألت: "كيف استطاع ذلك العملاق أن يُخرجني من نفسه، ثمّ يُخرج منّي كلّ هذه الكائنات؟ إنّه لشيء رهيب، خارق، شيء يجعلني أبتعد عنه وأختفي عن ناظرَيه!!

وعندما غدا نهار بعد ليل، كانت الزوجة قد اختفت في صورة بقرة. ولكنّ الزوج كان في إمكانه أن يصنع نفس الشيء، فانقلب ثورًا، وزاوجها، وكان بازدواجهما أن تولّدت الماشية.

وامتلأت الزوجة رعشة جديدة. ومن أجل أن تختفي عملت على أن تتّخذ لنفسها هيئة الفرس، لكنّه لم يمهلها بل انقلب هو الآخر في هيئة جواد.

وحوّلت المرأة نفسها لتكون حمارة، فحوّل هو الآخر نفسه ليكون حمارًا من أجل أن يتولّد لهما ذوات الحوافر.

وانقلبت الزوجة عنزة، فانقلب لها تيسًا؛ وتحوّلت إلى نعجة فتحوّل كبشًا، لتكون لهما الماعز والخراف.

وعلى وجه الأرض راحت كائنات جديدة تنطلق من كلّ مكان. تنوّعت بينها الذكور والإناث. حتّى بلغ وجودها في التدرّج إلى حيث النمل.

ومن قمّة اللانهائيّة، أطلّ براهما وقد أدرك تلك الحقيقة: إنّه هو الخلق نفسه، لأنّه أخرجه من نفسه.

من هنا بدأت قصّة الخلق كما يراها الهندوس. قصّة الخلق التي قام بها "براهما" روح العالم، عندما خلق "مانو" أوّل البشر. ومن أوّل البشر، خُلقت البشريّة[1].

وفي رواية ثانية، ورد الحديث عن براهما وعن خلق الكون في كتاب "قوانين مانو"، وجاء فيه:

> في المبدأ كان الكون مغمورًا في غياية الظلام، ولا يمكن إدراكه، وخالٍ من كلّ وصف مميّز، لا يُستطاع تصوّره بالعقل، ولا بالوحي، كأنّه في سبات عميق، وانقضى على هذا أمد طويل، ثمّ تعلّقت إرادة المولى الموجود بذاته التي لا تدركها الأبصار، فجعل هذا العالم مرئيًّا هو وعناصره الخمسة وأصوله الأخرى، متلألئًا بالنور الأقدس، قاشعًا الظلام الحالك، فاقتضت حكمة براهما الذي لا يدركه إلاّ العقل أن يُبرزِ من مادّته المخلوقات المختلفة، فأوجد الماء أوّلاً، ووضع فيه جرثومة، فصارت الجرثومة بيضة لامعة لمعان الذهب، وعاشت داخلها الذات الصلبة على صورة براهما وهو جَدّ جميع الكائنات، فبعد أن لبث براهما في البيضة سنة براهميّة وهي تعادل ملايين السنين البشريّة، قسّم المولى بمحض إرادته هذه البيضة قسمَين، وصنع منها السماء والأرض والكائنات... وعيّن لكلّ كائن اسمه، وخلق عددًا عديدًا من الآلهة وخلق طائفة غير مرئيّة من الجنّ، وخلق الزمان وأقسامه، والكواكب والأنهار والبحار والجبال[2]...

وهناك رواية أخرى عن خلق الكون ترويها الأساطير الهنديّة، وفحوى هذه الرواية أنّ الروح الكونيّ تَشكّل بالشكل الإنسانيّ، ثمّ نظر حوله فلم يجد هناك شيئًا غير نفسه، فصرخ بملء فيه "هأنذا"؛ فوُجدت، من هذه الساعة، كلمة "أنا". ولذلك فأوّل

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ٨٠ ـ ٨٢.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، مرجع سابق، ص ٥٤؛ أنظر أيضًا: وجدي محمّد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، ٢: ١٥٧ ـ ١٥٨؛ الأساطير الهنديّة عن الكون وخلقه، منشورات إدارة الاستعلامات ووزارة التربية والتعليم بالهند، ص٣٧.

ما يقوله الإنسان إلى الآن عند كلامه عن نفسه "أنا"؛ وشعر هذا الروح الكونيّ، أو الإنسان الأوّل، بالخوف من وحدته، ولذلك يخاف الإنسان إلى الآن إذا كان وحيدًا، ولكنّه سأل نفسه: لماذا أخاف ما دام ليس هناك أحد غيري، وإنّما يخاف الإنسان من غيره؟ ووجد نفسه لا يشعر بالسعادة ولذلك لا يشعر الإنسان بالسعادة إذا كان وحيدًا، فرغب في إيجاد قرين له، فقسم نفسه قسمَين، قسمٌ بقي على حاله، وتحوّل القسم الآخر إلى امرأة فكانت هذه المرأة زوجته، ومن تلك الساعة تسلسل خَلقُ الإنسان[1].

---

١ ـ الأساطير الهنديّة عن الكون وخلقه، منشورات إدارة الاستعلامات ووزارة التربية والتعليم بالهند، ص٣٨ ـ ٣٩.

الكُتُبُ الهندوسيَّةُ المقدَّسَة

كثرت الكتب المقدّسة عند الهندوس حتّى وصلت إلى الألوف، ومصدر تقديس الكتب عند الهندوس هو على العموم الاتّجاه الروحانيّ لدى الفكر الهنديّ، والموافقة على تأليه أيّ كائن، أو تقديس أيّ كتاب.

من الناحية العمليّة كان مصدر هذه الكثرة تفسير كتاب "الفيدا" الذي يُعتبر أعظم الكتب المقدّسة لدى الهندوس، فإنّ مرور الزمن على هذا الكتاب جعله عسير الفهم غريب اللغة، فأُلّفت كتب كثيرة لشرحه وتفسيره، وعدّها الهندوس مقدَّسة، ومرّت قرون أخرى فاحتاجت هذه الشروح إلى شروح جديدة وإضافات، فكُتبت كتب أخرى، واستساغ العقل الهندوسيّ أن يجعلها مقدَّسة أيضًا، وتضخّمت "الفيدا" فاحتاجت إلى وضع مختصرات قدَّسها العقل الهندوسيّ كذلك. هذا بالإضافة إلى كتب وُضعت غير متّصلة بالفيدا بل تصف حدثًا دينيًّا أو تاريخيًّا جديدًا[1].

على أنّ الكتب المقدّسة لدى الهنود ليست كلّها في مستوى واحد، فمنها كتب قليلة الانتشار، أو لا تحظى بتقديس جميع الهندوس، ومنها كتب أقرب إلى الغموض منها إلى الوضوح، ومن أعظم كتبهم المقدَّسة على العموم "الفيدا" و"قوانين مانو".

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٧٩ ـ ٨٠.

الفيدا

الفيدا أو الويدا VIDA، الذي يعني بترجمته الحرفيّة: "المعرفة"، هو كتاب الهندوس المقدّس، ولا ريب أنّ هذه التسمية تعبّر عن جوع الإنسان الهنديّ الآريّ القديم، وعن تشوّقه للوصول إلى معرفة الخالق والمخلوق، متحسّسًا المسلك، الذي شقّه نحو هذه الغاية[1].

لم تُشر الفيدا كتابةً إلى مؤلّفيها قبل القرنَين الثامن والتاسع قبل الميلاد. لكنّها تذكر أسماء المؤلّفين في ما بعد، وأبرزهم اثنان: "ياغنافالكيا" الرجل، و"جارجي" المرأة[2].

إنتظمت أسفار الفيدا على شكل أناشيد يحفظها رجال الدين، ثمّ تنامت واستطالت شيئًا فشيئًا. وهي في موضوعها تمثّل ضربًا من ضروب السحر والتجارب البشريّة، والنظرات الدينيّة، والتراتيل، والسرد، والتحليل، والمعارف العامّة، والحكمة الشعبيّة، والآداب الاجتماعيّة[3].

ومن فوائد هذه الأسفار وصفها لمراحل الدين المختلفة، منذ "النزعة الروحانيّة البدائيّة، حتّى تبلغ وحدة الوجود الفلسفيّة، بادئين بالخرافة.. ومنتهين إلى الوحدانيّة بشكلها المذكور في أسفار الأوبانيشاد"[4]. ويُعدّ الفيدا بحقّ دائرة معارف عن الهندوس، بوصفه الكتب المقدّسة المستوحاة عن الإله، أو الآلهة بتعبير أدقّ. وللفيدا قيمة تاريخيّة كبرى، إذ تنعكس في هذا الأدب الدينيّ حياة الآريّين في الهند في عهدهم القديم ومقرّهم الجديد، ففيه أخبار حلّهم وترحالهم، دينهم وسياستهم، حضارتهم وثقافتهم،

---

١ ـ السعدي، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، ص٤٥.

٢ ـ ديورانت ويل، قصّة الحضارة، ترجمة د. زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر،، ط ٣ (القاهرة، ١٩٦٨) ٣: ٣٢.

٣ ـ زيعور د. علي، الفلسفات الهنديّة، دار الأندلس، ط ١، ص١٠٤.

٤ ـ ديورانت ويل، قصّة الحضارة، ٣: ٣٢.

معيشتهم ومعاشرتهم، مساكنهم وملابسهم، مهنهم وحرفهم، وترى فيه مدارج الارتقاء للحياة العقليّة من سذاجة البدو إلى شعور الفلاسفة، فتوجد فيه أدعية ابتدائيّة تنتهي بارتياب، وألوهيّة تترقّى إلى وحدة الوجود[1].

يختلف الوحي في التفكير الهندوسيّ عن غيره عند بقيّة الأديان اختلافًا تامًّا، إذ إنّه لا يسلك في الديانة الهندوسيّة، عبر الفيدا، أيّ منحًى خاصّ في اصطفاء نبيّ، وتكليفه بتبليغ الرسالة الإلهيّة، بل هو يعمّ جميع البشر؛ إذ يستطيع كلّ منهم، أن يصل إلى هذه المرتبة الدينيّة العالية، ويحقّق اتّصاله بالمطلق، فيتبلّغ الرسالة منه مباشرة، ويقوم بتبليغها، إنْ طُلب منه ذلك؛ أي أنّ النبوّة ليست حكرًا على أحد، وبإمكان كلّ مَن ينوي التربّع فوقها، أن يصل إليها بإرادة فرديّة، باعتبارها مرتبة دينيّة مشرّعة أمام الطالبين[2].

والفيدا أو الفيدات، تتألفّ من أربعة كتب:

١ ـ الـ"ريغ فيدا RIG VEDA"، وهو الأقدم، وأوّل كتاب من كتب الآريّين الدينيّة، وكان في ما مضى تشريعًا لملكهم[3]. واسمه "ريغ فيدا" يعني: "معرفة ترانيم الثناء"[4]. باعتباره يحتوي على ترانيم ابتهاليّة، أو مدائحيّة أو دعائيّة. وهو أهمّ وأشمل الكتب المقدّسة الأربعة، ويُقال إنّ وضعه يعود إلى ٣,٠٠٠ قبل الميلاد، "ويذكر البعض أنّه يقع في عشرة أجزاء ويحوي ١٠٢٨ نشيدًا شعريًّا في الآلهة"[5]، بينما يذكرآخرون أنّه

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، مرجع سابق، ص ٤٥ ـ ٤٦.

٢ ـ السعدي، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، مرجع سابق، ص ٤٦.

٣ ـ حقّي، مانوسمريتي، المقدّمة.

٤ ـ ديورانت، قصّة الحضارة، ٣: ٣٨.

٥ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٣٠.

يشمل ١٠١٧ أنشودة دينيّة "سوكتا"، يحمل كلّ منها اسم الحكيم أو العارف: "ريتشي"، الذي ألّفها[١]. وهذه الأناشيد وُضعت ليتضرّع بها أتباعها أمام الآلهة أو يتغنّوا بها عن الآلهة، وأشهر الآلهة الذين ورد ذكرهم فيها هو إله الآلهة، ثمّ يجيء بعده الإله أغْنِي إله النار وراعي الأسرة، فالإله "فارونا VARUNA"، فالإله "سوريا" أي الشمس، وغيرهم. وقد تناقل الناس هذه الأناشيد قرونًا إلى أن تمّ تدوينها في القرن الثامن ميلاديّ. وقد جاءت فيه عبارة DEVA الهنديّة التي تعني الإله، وهي من أصل واحد مع اللاتينيّة DESUS والأوروبيّة[٢] DEITY. ولا يزال الهنود يتغنّون بأناشيد من الريغ فيدا، يرتّلونها في صلواتهم صباحًا ومساء، ويتيمّنون بتلاوتها في حفلات زواجهم كما كانوا يفعلون منذ ثلاثة آلاف عام[٣].

٢ ـ "ياجور فيدا YAJUR VEDA"، وتعني معرفة الصيغ الخاصّة بتقديم القرابين[٤]، ويُقال إنّ أصلها من "الياجور" أي الهواء. وهو أصغر الكتب المقدّسة حجمًا، ويحتوي على مجموعة الأدعية وتلاوات الصلاة[٥]، أو العبادات النثريّة التي يتلوها الرهبان عند تقديم القرابين[٦].

٣ ـ "ساما فيدا SAMA VEDA" وتعني معرفة الأنغام، وهي نصوص معدّة للغناء تحوي ٥٨٥ فقرة من فقرات الصلوات الشعريّة المغنّاة، التي ينشدها المنشدون أثناء إقامة الصلوات وتلاوة الأدعية[٧].

---

١ ـ زيعور، الفلسفات الهنديّة، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٣٠.

٣ ـ THOMAS EDWARD, *THE HISTORY OF BUDDHIST THOUGHT*, PP. ٨٢

٤ ـ ديورانت، قصّة الحضارة، ٣: ٣٨.

٥ ـ زيعور، الفلسفات الهنديّة، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

٦ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٤٦.

٧ ـ زيعور، الفلسفات الهنديّة، ص ١٠٥ ـ ١٠٦؛ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٤٦.

٤ ـ "آثار فيدا"، أو "أتهار فيدا ATHAR VEDA"، وتعني معرفة الرقى السحريّة[١]، وفيها ٨٠٠ ترنيمة سحريّة، تشمل مقالات في السحر والرُّقى والخرافات مصبوغة بالصبغة الهنديّة القديمة، فالحياة الهنديّة كما تصوّرها الفيدا مملوءة بالآثام، والكون حافل بالشياطين والأغوال، يخوّفون الناس، والآلهة كفّت أيديها عن الخير، ولم تعد تدفع الشرّ. ويروي "آثار فيدا" لجوء الناس للخرافات والرُّقَى والسحر ليحموا أنفسهم[٢].

أمّا كتاب الـ"بيورانا"، أي كتاب القصص القديمة، فهو بمثابة الإنجيل الثاني للهندوسيّة، قام بتأليفه الحكيم "فياسا" وآخرون غيره، وذلك ابتداءً من العام ٥٠٠ قبل الميلاد حتّى العام ٥٠٠ ميلاديّ. ويضمّ هذا الكتاب حوالى أربعمائة ألف بيت مزدوج "دوبيت" من الشعر[٣]. وانطلاقًا من صعوبة لغة الفيدات فقد تمّ دفنها في لغاتها المدوّنة، كما يقول ديورانت.

كلّ من هذه الفيدات الأربعة الأولى، يشتمل على أربعة أجزاء هي: "سَمْهِتا" و"برَهْمَن" و"أرَنيَك" و"أوبانيشاد"، وهي بهذا الترتيب من حيث قدمها التاريخيّ.

١ ـ "سَمْهِتا SAMHITA" هو قسم الترانيم والأناشيد والصلوات، أو مجموعة المنظومات لكثرة المنظوم فيها، وأهمّ منظومات الريغ فيدا التي يُتغنّى بها عند تقديم القرابين. ويشمل سَمْهِتا مِن "ياغور فيدا" بعض الأدعية التي تُقرأ عند تقديم القرابين، أمّا منظومات "آثار فيدا" فأدعية كان يقدّمها سكّان الهند الأقدمون قبل زحف الآريّين، فلها قيمة تاريخيّة ودينيّة عظيمة، وتمثّل السَمْهِتا مذهب الفطرة في التفكير الهندوسيّ[٤].

---

١ ـ ديورانت، قصّة الحضارة، ٣: ٣٨.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٤٦.

٣ ـ ديورانت، قصّة الحضارة، ٣: ٤٣.

٤ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٤٧؛ زيعور، الفلسفات الهنديّة، ص١٠٥ ـ ١٠٦.

٢ ـ "البرَاهْمَن BRAHMAN"، وفيه النصوص الطقوسيّة والأدعية[١]، أو الهدايات التي يقدّمها البراهمة للمقيمين في بلادهم وبين أهليهم، وتشمل بيان أنواع القرابين وتفاصيلها ومواسمها، وتبيان أنّ إرضاء البراهمة ضروريّ لقبول القرابين، ويمثّل البرَاهْمَن مرحلة أقرب إلى التحضّر في التفكير الهندوسيّ[٢].

٣ ـ "أرَنيَك ARNAYKA"، أو "نصوص الغابة"، وتخصّ المتنسّكين الذين يهجرون بيوتهم وعائلاتهم بقصد العبادة والزهد[٣]، أو الغابيّات أو الهدايات والإرشادات التي تقدَّم للشيوخ المعمّرين الذين يتركون أهلهم في الربع الرابع من أعمارهم ليقيموا في الكهوف والغابات، والأَرنيْكَ تهدي أمثال هؤلاء إلى أعمال سهلة يقومون بها بدل القرابين التي أصبحوا يعجزون عن تقديمها[٤].

٤ ـ "أوبانيشاد UPANISHAD"، وتشير الكلمة بمعناها الحرفيّ إلى التقرّب، أو "الجلوس قرب" (معلّم). إنّها دورات تعليميّة للمبتدئين، وتأخذ، معظم الأحيان، شكل حوار تتكرّر فيه الأفكار والعبارات، ما يعني أنّها كُتبت للحفظ. إلاّ أنّها شديدة العمق، والتعمّق أحيانًا، وشخوصها رجال ونساء ينتمون إلى طبقتَي الأشراف والعاديّين، ولا يقلّ إدراكهم عن إدراك الكهنة. وهناك ٢٥٠ حوارًا، بينها خمسة عشر حوارًا رئيسيًّا، وترد مقاطع حول خَلق العالم، تتلاقى فيها الهندوسيّة مع الأديان التوحيديّة، وهناك مقاطع تعبّر عن نظريّة السانخيا الازدواجيّة[٥]. بينما يذكر باحث آخر[٦] أنّ عدد

---

١ ـ ديورانت، قصّة الحضارة، ٣: ٣٨.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٤٧، عن: WEECH AND RYLANDS, *THE PEOPLES AND RELIGIONS OF INDIA*, P. 307

٣ ـ ديورانت، قصّة الحضارة، ٣: ٣٨.

٤ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٤٧.

٥ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ٣٣.

٦ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٤٤.

المحاورات يبلغ ١٠٨، قام بتأليفها الكثير من القدّيسين، في مدّة تقع على الخارطة الزمنيّة عام ٨٠٠ وعام ٦٠٠ قبل الميلاد[١]. وفي أوبانيشاد المحاورات السريّة الفلسفيّة الصوفيّة، وتمثّل زبدة الفلسفة الهنديّة وصفوة التفكير الإنسانيّ القديم. وهي أقدم أثر فلسفيّ ونفسيّ لدى البشر، خطف لبّ الكثيرين من الفلاسفة الآريّين، وعلى رأسهم شوبنهور[٢]. وتدوّن هذه المحاورات إرشادًا للرهبان والمتنسّكين الذين مالوا إلى باطن الحياة وتركوا ظاهرها، كما تمثّل مذهب الروح الذي هو المرتبة العليا في سلسلة الارتقاء الدينيّ[٣]. وقد وصفها ويل ديورانت لشدّة روعتها بأنّها "قديمة قدم هوميروس، لكنّها حديثة حداثة كانت KANT"[٤]. وتُعتبر الأوبانيشادات خطوة جريئة في سبيل الحريّة الدينيّة وتخليص الدين من الرسوم البراهميّة، وبها أُبعدت الآلهة أو قلّ الاهتمام بها، وهدأت الأدعية وندرت القرابين، وانحطّت المراقبة اللاهوتيّة، وحلّ العلم والعرفان محلّ ذلك، ولولا بقايا من الشعور الدينيّ لكانت الأوبانيشادات فلسفة محضة[٥].

إنّ الناظر إلى هذه الأقسام الأربعة يلاحظ أنّ "السمهتا" تمثّل دين الفطرة أو الفكر البدائيّ، أمّا "البَرَهْمَن" فيمثّل مذهب القانون ودين الأمّة التي تركت البداوة ولم تتعمّق بعد في الحضارة، أمّا "الأرنيك" فينقل الفكر من القانون إلى الروح فهو معبر تاريخيّ، وتجيء بعده "الأوبانيشادات" حيث مذهب الروح الذي هو المرتبة العليا في سلسلة الارتقاء الدينيّ[٦].

---

١ ـ فيليوزات، فلسفات الهند، ص١٣.

٢ ـ السعدي، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، ص٤٨.

٣ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، مرجع سابق، ص ٤٨.

٤ ـ ديورانت، قصّة الحضارة، ٣: ٤٣.

٥ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٤٨.

٦ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٤٨؛ أنظر أيضًا: BERRY, *RELIGIONS OF THE WORLD*, P. 40

قَوَانين
مَانــو

كتـاب "مـانو دهرمـا ساسـترا" أو "قوانيـن مـانو" وهـو كتـاب جـامع يحتـوي علـى الشرائع التـي تتبعها الطوائـف الهندوسيّة. وهـو مؤلَّـف عتيـق، لا نعـرف مبـدأه، ولا مؤلّفـه، وقـد زعـم البعـض أنّـه مـن تـأليف أوّل إنسـان علـى الأرض، أو أوّل عـارف، وضعه بإلهام من الإله في زمان غارق في القِدَم. ولكـنّ بـاحثين[1] اعتـبروا أنّ الأصـحّ اعتبار أنّه وُضع في حقَبٍ متتالية متباعدة في ما بينهـا، فقد ورد ذكره فـي المؤلّفـات التي يرجع عهدها إلى القرن السابع قبل الميلاد، ما يـدلّ علـى أنّ بعض أجزائـه كُتِـب قبلها، وبه ذكر لِما وقع في العصر البوذيّ، وهو على العمـوم يحـوي الشـرائع التـي لا يحيد عنها الهندوس المتديّنـون حتّـى الآن. وممّـا ورد فـي هـذا الكتـاب حـول "السلطة الحاكمة":

> خلق اللّه الملكَ ليصون البلاد وليدافع عنها، لذلك لا تحتقرنّ ملكًا وإن كـان طفلاً رضيعًا، لأنّه إله في صورة إنسان فوق الأرض. لقد منح اللّه الملك السـلطان الـذي يعاقب به المذنبين، فلا ملك إلاّ بسلطان، ولا طاعة إلاّ بسلطان العقاب. وعلى الملك أن يصطفي لنفسه الوزراء من الأسر الطيّبـة، ممّن اتّصفـوا بـالعلم والشـجاعة والنزاهة، وإنّما جاز له ذلك لأنّ الرجـل الواحد يصعب عليه القيام بأعباء الملك الثقيلـة. وعلـى الملـك أن يختـار سـفراءه مـن أهل العلـم والفراسـة الذيـن تكفيهـم الإرشـادات للنفوذ إلـى الأسرار العميقـة. وليعلـم الملك أنّ الـبراهميّ، وإن سـاءت سيرته، فله أن ينصح الملك إذا شاء.

---

١ ـ راجع: شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٧٦ ـ ٧٩.

وجاء في كتاب قوانين مانو حول المرأة:

تعيش المرأة وليس لها خيار، سواء كانت بنتًا صغيرة أو شابّة أو عجوزًا، البنت في خيار أبيها، والمتزوّجة في خيار بعلها، والأرملة في خيار أبنائها، وليس لها أن تستقلّ أبدًا، وعلى المرأة أن ترضى بمَن ارتضاه لها والدها بعلاً، فتخدمه طوال حياته ولا تفكِّر في رجل آخر بعد وفاته، بل عليها حينئذ أن تهجر ما تشتهيه من الأكل اللذيذ، واللبس الحسن والزينة كلّها، وتعيش أرملة إلى آخر حياتها. وإن وجدت زوجها لا يعتني بها ويحبّ امرأة أخرى فلا تحقد عليه، ولا تقصّر في خدمته ونيل مرضاته، فقد أُنيطت جنّة المرأة برضا بعلها، فلا تفعلنّ شيئًا لا يراه بعلها. وليس لوالد البنت أن ينال شيئًا من المال أو المتاع عند تزويجها، لأنّ مَن يفعل ذلك كأنّه باع بنته. والأسرة التي تحترم المرأة فإنّ الآلهة تخصّها بعطفها، أمّا الأسرة التي تُحتقَر فيها المرأة، فإنّ حسناتها تذهب سدى. والأوفق أن تشهد النساء للنساء، والرجال للرجال، وشهادة النساء وإن كنّ نزيهات لا يُقام لها كبير وزن، لأنّ عقولهنّ لا توازُن فيها ... ليحبّ الرجل زوجته وليعلم أنّها تلده في صورة ابنه فهي خليقة بحبّ زوجها. والمرأة سيّدة بيتها فعلى الرجل أن يسلّمها مقاليد البيت، وواجباتها أن تلد وتربّي أولادها وتدبّر أمور بيتها. ولتعلم المرأة أنّ عظمتها منوطة بعظمة زوجها. والذي قال لرجل إنّي أزوّجك بنتي فلا يحلّ له أن يرجع عن قوله ويخلف وعده، وإن فعل ذلك يبوء بإثم الذي يقتل ألف نفس بريئة. وليعيش الزوجان بالحبّ والوفاء لأنّهما لم يقترنا على اسم اللّه ليفترقا أو يتباغضا.

وممّا سنّته قوانين مانو حول المسائل الاقتصاديّة:

لا يجوز أكل الربا الفاحش، ولصاحب المال أن يأخذ روبيّة وربع روبيّة ربًا عن مائة روبيّة في كلّ شهر... إذا حاول عمّ الصغير أن يستولي على أملاكه، فيمنعه الملك من ذلك، ويحوّل أملاكه إلى إدارته حتّى يبلغ الصبيّ الرشد... والعقار الذي لا يوجد له صاحب يبقيه الملك في يده ثلاث سنوات، فإن لم يُعرف صاحبه خلال هذه المدّة يصبح ملكًا للملك بعدها... كما تمصّ العلقة الدم قليلاً قليلاً كذلك يجب

على الملك أن يكتفي بالقليل من الضرائب على رعيّته، فيأخذ من أرباح الفضّة والذهب النصف، ومن الحبوب الثمن أو السدس، ومن ثمار الأشجار السدس وكذلك قصب السكّر والعطور والعقاقير... أمّا الصنّاع والعمّال والمنبوذون فيسخّرهم الملك يومًا واحدًا في كلّ شهر لأعماله، فهذه هي الضريبة التي عليهم أن يدفعوها... لا يملك الولد والزوجة والرقيق شيئًا، وكلّ ما يُحرزونه ملك لعائلهم... لا يجوز للملك أن يفرض ضريبة على الأعمى والأبله والكسيح وابن السبيل ومَن ساعد المتبتّلين إلى الكتاب المقدّس...

وتعالج قوانين مانو كافّة الأمور على هذا المنوال. منها، على سبيل المثال، قانون زواج الأطفال الذي يقتضي بتزويج الفتاة بعد شهور من ولادتها، على أن تنتقل فعليًّا إلى بيت حميها في سنّ السابعة أو الثامنة ليسهل عليها اكتساب عاداتهم. ومن النتائج المأساويّة لهذه الممارسة ترمّل الفتيات قبل "الزواج" الأمر الذي، وفق "قوانين مانو" يحرمهنّ الزواج الفعليّ، مرّة أخرى. وكنّ يقضين حياتهنّ في البؤس ضمن منزل "الزوج" الراحل، حيث كان الرجال ينظرون إليهنّ كعبء على العائلة ويسخّرونهنّ للخدمة المنزليّة. أمّا الرجال المترمّلون فكان يُسمح لهم بالزواج من جديد. وهذا يعني، معظم الأحيان، زواج كهل أو عجوز من فتاة في مقتبل العمر، إذ من المستحيل أن يتزوّج الرجل أرملة أو أن يجد فتاة غير متزوّجة في مثل سنّه أو أصغر قليلاً. وجاء قانون ١٩٣٠ ليحظّر زواج الفتاة قبل الرابعة عشرة والفتى قبل الثامنة عشرة. إلاّ أنّ ممارسته اقتصرت، بادئ الأمر، على الهند البريطانيّة[1].

---

١ - صعب، الأديان الحيّة، ص٤١.

الـ"مَهَابَهَارَتا"

الـ"مهابهارتا MAHAPHARTA" هو كتاب يتضمّن ملحمة الهند الكبرى، تشبه الإلياذة والأوديسّة عند اليونان، وتُعتبر من أطول الملاحم في الأدب العالميّ، وهي تصف حربًا ضروسًا قامت على الأرض بغية إراحتها من سكّانها الذين لم يتوقّفوا عن التكاثر، وذلك نزولاً عند رغبة براهما، الذي طلب إلى عدد من الآلهة والشياطين التجسّد بقصد تفجير الحرب. وهذه الملحمة بدأت قصيرة في نحو ٥٠٠ قبل الميلاد، ثمّ ما لبثت أن نمت مع الزمن حتّى بلغ عدد أبياتها ١٠,٧٠٠ بيت من الشعر ذي الثّماني مقاطع؛ أي ما يعادل الإلياذة والأدويسّة مجتمعتَين سبع مرّات. وتمحور موضوعها في البداية، ككلّ الشعر الملحميّ، حول الحبّ والحرب، لكنّها تطوّرت على أيدي البراهمة، لتصبح قصيدة ذات موضوع دينيّ. وقد حملت في جسدها الفنّيّ أهمّ قطعة فيها وأسمى قصيدة فلسفيّة عرفها الشعر العالميّ على الإطلاق: قصيدة "نشيد المولى ـ بهاغافاد غيتا". وهذه القصيدة مبجّلة عند الهندوس، إلى درجة أنّهم يحلفون بوضع يدهم عليها في المحاكم[1].

والـ"مهابهارتا" هي من الكتب الهنديّة القليلة التي يُعرف مؤلّفها "الأسطوريّ" واسمه "وياس"، أو "فياسا"، والكلمة تعني: "المنظّم"[2]، وهو ابن العارف الكبير "برسرا". وقد أملى "وياس" هذا النشيد المقدّس على "كنيتي" الذي دوّنه. ووُقّعت هذه الملحمة الكبرى حوالى سنة ٩٥٠ قبل الميلاد. وهي تصف حربًا بين أمراء أسرة ملكيّة واحدة، ولكنّ جميع ملوك الهند قد اشتركوا فيها مع هذا الجانب أو ذاك، بل اتّخذ الآلهة دورًا في المعركة. ومن أعظم المعلّمين الذي عنوا بتدريس المهابهارتا: "سوتا"، الذي ألقاها

---

١ ـ السعدي، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، ص ٥٣.

٢ ـ ويل ديورانت، قصّة الحضارة، ٣: ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

على جماعة من العلماء والنسّاك المرتاضين، وقد افتتحها بقوله: "إنّني أوفر حظًّا وأسعد طالعًا بإبلاغي إليكم رواية مهابهارتا التي وضعها "وياس" ليعلّمكم الدين الإنسانيّ ويرشدكم إلى الحياة وغاياتها، وقد سمعتُ رواية مهابهارتا بجوهرها، والقصص الاستطراديّة المشتملة عليها، ثمّ بعد ذلك حدث أن قمتُ برحلة طويلة زرت فيها الأماكن المقدَّسة، وزرت ساحة القتال التي دارت فيها رحى الملحمة الكبرى التي تتحدَّث عنها وتصفها هذه الأنشودة الحماسيّة". وبدأ "سوتا" يروي هذه الملحمة التي يعتبرها الهندوس أنشودة حماسيّة لاحتوائها على كثير من الروايات التمثيليّة والتعاليم الجليلة، ولأنّها، كما يقولون، كالبحر الذي في قاعه من الدرر البهيّة والأحجار الكريمة ما لا يُعدّ ولا يُحصى، وهي ينبوع يتفجّر، تفيض منه الثقافة وتنهمر منه الأخلاق والآداب[1].

تجري حوادث هذه الملحمة في "هستنابور" حيث كان للملك ولدان، الكبير منهما يُدعى "دهري تاراشترا" وكان مكفوف البصر، ولذلك آل المُلك إلى الصغير المسمّى "باندو"، ولكنّ هذا قد اقترف ذنبًا وهو ملك فحُكم عليه بالنفي للتكفير عن الذنب إلى مجاهل الصحراء، وإلى هنالك انتقل الملك وزوجتاه، وآل المُلك إلى أولاد أخيه ويُطلق عليهم "كورو". ومات "باندو" في المنفى بعد أن أعقب خمسة أولاد كانوا يُعرفون جميعًا باسم "باندو"، وتربّى هؤلاء في كنف النسّاك في الكهوف والفيافي حتّى وصلوا إلى مرحلة عالية في الدراسة الدينيّة وفي إجادة الفيدا وغيرها من الثقافات. ولمّا بلغ أكبرهم سنّ الرشد عاد بإخوته إلى "هستنابور" وطالب بميراثه في المُلك بعد أن تمّت الكفّارة، فناصبهم آل "كورو" العداء وانقلبوا حاسدين لهم، ساعين جهد المستطاع لكلّ

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، مرجع سابق، ص ٨١ ـ ٨٢.

ما يضرّهم ويؤذيهم. وبدأت المناوشات تدبّ بين الفريقَين، لكنّ مساعي الصلح وفّقت بينهما فاشتركا في الحكم، ثمّ هُزم آل "باندو" في لعبة النرد التي كانت تُعدّ، طبق التقاليد السائدة، شرفًا وكرامة لكشتريا، فقضى عليهم بالنفي عن مملكتهم إلى غابات الصحارى ثلاثة عشر عامًا، وسافر هؤلاء إلى المنفى، ولمّا انتهى الأجل المضروب رجعوا إلى المملكة وطالبوا بحقّهم، ولكنّ "دريودهن" المنتمي إلى "كورو" رفض أن يردّ لهم حقوقهم فاحتكم الطرفان إلى الحرب، وشهدت ساحة القتال حربًا ضروسًا بين الفريقَين انتهت بهزيمة "دريودهن"[1].

هذا هو جوهر الملحمة الكبرى، وفي طيّات القصّة تأتي آداب هامّة عن لعبة النرد، والوفاء بالعهد، والتكفير عن الخطايا، وتتدخّل الآلهة والجنّ في الموضوع من حين إلى آخر، كما يظهر ما يمكن أن نسمّيه خرافات وخيالات. أمّا قصيدة "نشيد المولى ـ بهاغافاد غيتا" التي تشكّل النشيد السادس في المهابهارتا، فهي جوهر كلّ المعارف الفيديّة، وقد أنشدها المولى شري كريشنا لصديقه أرجنا. ولعلّ تاريخها يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد أو ربّما إلى القرن الثالث الميلاديّ[2]. ويدور موضوعها حول خمس حقائق رئيسيّة هي: اللّه، ومنزلة الكائنات الحيّة الطبيعيّة، والطبيعة الماديّة، والزمان القديم، وأخيرًا قانون العمل والجزاء أو الكارما[3]. وهي أوّل ما تُرجم من التراث الهنديّ إلى اللغة الإنجليزيّة على يد ولكنز، عام ١٧٨٥[4].

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، مرجع سابق، ص ٨٢ ـ ٨٣.

٢ ـ ويل ديورانت، قصّة الحضارة، ٣: ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

٣ ـ بهاغافاد غيتا، نشيد المولى، المقدّمة، ص ١٨.

٤ ـ السعدي، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، عن: جان فيليوزات، فلسفات الهند، ص ٩٠ ؛ زيعور، الفلسفات الهنديّة، ص١٦٠؛ تجدر الإشارة إلى أنّ الأستاذ عبد الحميد النعماني قد ترجم كتاب مهابهارتا إلى اللغة العربيّة.

غيتا

"غيتا GITA" أي "نشيد الربّ الكريم"؛ ضُمّ إلى ملحمة "مهابراتا" في القرن الميلاديّ الأول، وغدا أهمّ أجزائها. وأبرز ما في هذا النشيد وصف طريق التكريس للمؤمن. أمّا صُلب رسالة "غيتا" فهو الاستسلام التامّ الناجز والإيمان الكامل كطريق إلى الخلاص الأخير والانعتاق الأكبر:

> أعطِني قلبك، اعبدني، اخدمني، تعلّق بي بكلّ إيمانك ومحبّتك وإجلالك. إجعل منّي ملاذك الوحيد، فأُعتقَ نفسك من كلّ آثامها...

هكذا نجد أنّ أقصى حدّ للتكريس والتأمّل هو رؤية الروح الكلّيّ في كلّ شيء ورؤية كلّ شيء في الروح الكليّ. والشخص الذي يحقّق هذا الهدف يحيا، أينما كان، في الروح الكليّ، ويصل إلى القداسة[1].

يُنسب كتاب "غيتا" أو أكثره إلى "كرشنا" أحد أبطال الهندوس المقدّسين، وكان قد اتّخذ جانبًا من هذه الملحمة تحت قيادة البطل "أرجُنا"[2]. ويقول البطل الإله "كرشنا" للمحارب "أرجُنا": إنّ ثمّة طريقَين للحياة هما: طريق العمل وطريق التكريس، وإنّ الطريق الثانية هي الأعظم لأنّها توحّد المرء بالحقيقة القصوى. ولا يستطيع أحد أن يأتي عملاً حسنًا ما لم يتأمّل فيه أوّلاً ويستلهمه خلال الصلاة. ويكشف التأمّل للإنسان أنّ العمل الصحيح هو العمل دون انتظار أيّ ثمرة أو نتيجة أو مكافأة، لكنّه تأدية الواجب لا لشيء سوى كونه واجبًا. ويصف "كرشنا" المنافع الروحيّة لطريقة "اليوغا"، وهي رياضة نفسيّة تمكّن المرء من رؤية كلّ شيء وكلّ عمل في سياقه الصحيح، كما لو كان من فعل الروح المطلق "براهمان" الذي هو مبدأ كلّ شيء[3].

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٣٧.
٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٨٥.
٣ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٣٦.

ومن قراءة "غيتا" يلاحَظ اهتمام هذا الكتاب لا بالجانب القصصيّ أو الخرافيّ الذي لاحظناه في النموذج السابق، بل بالجانب الفلسفيّ والاجتماعيّ، لهذا يُعتبر "غيتا" من الروافد التي قدَّمت إلى "مهابهارتا" أروع التعاليم وأرقى الثقافات، ومنه استمدّت تعاليم كثيرة. والكتاب يقدّم لنا صورة الهيئة الاجتماعيّة الهنديّة في ذلك العصر، فنعلم منه ما كان عليه الشعب من المعتقدات الدينيّة، والعادات الاجتماعيّة، والأفكار الفلسفيّة، ووجهة نظره العامّة في الحياة وما بعد الممات. وهو يخبرنا أنّ الناس ضلّوا عن سواء السبيل ووقعوا فريسة للتقاليد والأوهام، فتركوا لبّ الدين وتمسّكوا بقشوره. كانوا يتشدّقون بألفاظ فيدا، ويعملون بظواهرها، فيقيمون الطقوس والعبادات الرسميّة، وهم، مع اعتقادهم بوجود اللّه، يعبدون آلهة أخرى، وليس هذا فحسب، بل يعبدون أسلافهم، كما يعبدون العفاريت، ويتطيّرون ويعتقدون في الفأل، وبجانب هؤلاء وعلى العكس منهم يوجد أناس ينعون على متّبعي الظواهر اتّجاههم، ولكنّ هؤلاء غالوا كذلك في مذهبهم، فأنكروا العبادات والظواهر على الإطلاق، زاعمين أنّها قشور، وكان أكثر هؤلاء وأولئك مقلّدين جامدين. وكان هناك أناس آخرون يرون النجاة في الرهبانيّة والتجرّد من الدنيا، فهجروا الكسب وعاشوا عالة على الناس[1].

ويبدو أنّ الكتاب المقدَّس "غيتا" يُعدّ من أهمّ الكتب المقدَّسة لدى الهندوس، وهو حافل بأدقّ المعتقدات والأفكار الهندوسيّة. وقد أحدث "غيتا" أثرًا كبيرًا في الهندوس حتّى يومنا هذا. ومن هؤلاء غاندي (١٨٦٩ ــ ١٩٤٨) الزعيم الشعبيّ المنادي باللاعنف. ومن أسباب تعلّق الهندوس بها أنّ "كرشنا" يساوي فيها بين كلّ الناس، من رجال ونساء وفقراء وأغنياء، مزيلاً الحواجز بين الطبقات والعشائر. كما يجدون فيها تعبيرًا قويًّا عن العنصر العاطفيّ في الدين[2].

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٨٥.

٢ ـ صعب، الديان الحيّة، ص٣٧.

الـ"يُواغَافاسيستها"

يقول "قدّيس" هندوسيّ معاصر هو "سوامي رام تيرتها SWAMI RAM TIRTHA": إنّ أعظم وأنفع كتاب أُلِّف تحت السماء هو، بلا ريب، كتاب "يُواغَافاسيستها YOGAVASISTHE" الذي يمكّن مَن يقرؤه من أن يعرف نفسه، ومَن عرف نفسه عرف ربّه. وكما هي الحال بالنسبة لأكثر الكتب الهندوسيّة المقدّسة، لا يُعرف مؤلّف يُواغَافاسيستها، وهو منظوم يحتوي على أربعة وستّين ألفًا من الأبيات، ما يرجّح أن يكون من عمل مجموعة من الناس لا من نظم شخص واحد. كما أنّ زمن تأليفه غير معروف أيضًا، وإنْ مال بعضهم إلى أنّه أُلّف في القرن السادس ميلاديّ بسبب إشارات وردت فيه تشير إلى أحداث وقعت في هذا القرن، ولكنّ بعض الباحثين[1] مال إلى اعتبار أنّه أُلّف في حقبة زمنيّة طويلة، وأنّ هذه الإشارات ليست إلاّ للأجزاء التي أُلّفت في القرن السادس، وليست دليلاً على تحديد وقت لتأليف الكتاب كلّه.

موضوع يُواغَافاسيستها هو الفلسفة واللاهوت، ودراساته عميقة جدًّا، ويفترض الكتاب تلميذاً اسمه "راما" تنتابه الشكوك والأوهام فيسأل أستاذاً له عمّا يساوره، ويطلب بيانًا لإيضاح ما غمض عليه، ويجيبه أستاذه شارحًا موضّحًا. وممّا قاله الأستاذ في إجاباته:

> إنّ علّة سائر الآلام والمصائب هي "ترسنا TRISNA" أي الرغبة في المآرب الدنيويّة، إنّ هذه الرغبة تلدغ صاحبها كالحيّة السامّة الفتّاكة، وتقطع كالسيف البتّار، وتنفذ كالرمح الحادّ، ونحن نفتتن بالحياة لأنّنا نجهل فطرتنا الحقيقيّة وماهيّة الدنيا، فإنّ الجهل هو علّة العلل لسائر الآلام، إنّ منبع جميع الشرور هي قلّة العلم،

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٩٣ ـ ٩٤.

وأحسن دواء هو الوصول إلى الحكمة التي هي الجسر الوحيد الذي يجتاز عليه المرء بسلام بحر هذا العالم، وتُنال الحكمة بالسعي والجهد، لأنّ العلم لا ينزل علينا بنفسه، فالسعي والجِدّ هما الأساس، وليس هناك شيء يسمّى الحظّ أو القضاء أو القدر، فنحن الذين نخلق حظّنا بمجهودنا، وليس من سبيل لتجنّب الشقاء أو التخلّص منه إلاّ بسعينا وجهودنا، فالذين يتّكلون على القضاء والقدر ولا يسعون بأنفسهم هم أعداء أنفسهم، وهم الجهلة والكسالى. فالحظّ اسم لشيء لا وجود له إلاّ في أوهام العجزة البلهاء[1].

رَامَايَانَا

"رامايانا RAMAYANA"، هي ثانية الملاحم الهنديّة، وأقصر من سابقاتها، بحيث لا يزيد طولها على ٤٨,٠٠٠ بيت من الشعر الطويل، ويتحدّث موضوعها الملحميّ عمّا صادفه أحد الأبطال من الأهوال والمصاعب، وما أصابه من مصائب، وهو في سَفر بعيد. كما تصف ما ألمّ بزوجته من ألم فراقه، وصبرها في انتظاره، إلى أن عاد إليها في النهاية. والملحمة تُنسب إلى رجل يُدعى "فالميكي"، وهي كسابقاتها بدأت قصيرة ثمّ استطالت بتوالي الدهور والأزمان، وتعود بدايتها إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وتكتمل في القرن الثاني ميلاديّ[2]. بينما يقدّمها البعض على "مهابهارتا"[3]. ويورد باحث آخر[4] أنّ رامايانا كتاب قديم لا يُعرف مؤلّفه ولا تاريخ تأليفه بالضبط، وكلّ ما نعرفه عن

---

١ ـ للإطلاع على مزيد من مضامين الكتاب، راجع: شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٩٤ وما يليها، عن: ATREYA, *YOGAWASISTHA AND ITS PHILOSOPHY*, PP. 96 - 100.

٢ ـ ويل ديورانت، قصّة الحضارة، ٣: ٣٢.

٣ ـ زيعور، الفلسفات الهنديّة، ص١٥٩.

٤ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٩٧.

تاريخه أنّه، كلّه أو بعضه، أقدم من مهابهارتا. وقد عُرف تاريخ رامايانا التقريبيّ بواسطة إشارات إليه في مهابهارتا، وإنْ كان ذلك لا يحدّد تاريخه بالضبط، لأنّ الكتب المقدَّسة الهنديّة أُلّفت في حقب طويلة، فلا يدلّ حدثٌ بها على تاريخ تأليف الكتاب كلّه. ورامايانا يُعنى بالأفكار السياسيّة أو الدستوريّة للحياة الهندوسيّة، فهو يتحدّث عن تكوين مجالس الشورى، وطرق اختيار الملوك وولاة العهود، ثمّ عن واجبات الملك، وعن واجبات مجالس الشورى وسلوك أعضائها...

العَقَائــدُ الهندوسِيَّة

أهمّ العقائد في الديانة الهندوسيّة أربعة هي: "الكرما"، "السمسارا"، "الموكشا"، والإيمان بوحدة الوجود. وهذه العقيدة الأخيرة تسوغ كلّ ما في الديانات الهنديّة من خلط وفوضى، و يعود إدخالها إلى الديانة الهندوسيّة للحكيم "شانكارا" في حوالى القرن الثامن الميلادي[1].

- **الكارمَا** KARMA: تقول بأنّ الشهوة أقوى عامل في حياة المرء، والمرء في أعماله التي تفرضها الشهوات يحسن إلى الآخرين أو يسيء، فلا بدّ أن ينطبق عليه "قانون الجزاء" المسيطر على حياة سائر الأحياء الحرّة في الكون، و "قانون الجزاء" يُسمّى في اللغة السنسكريتيّة KARMA، وليس لأحد أن يتملّص منه، فـ"ليس في الكون مكان، لا الجبال، ولا السماوات، ولا البحار، ولا الجنّات، يفرّ إليه المرء من جزاء

---

١ ـ السعدي، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، ص٣٧؛ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٦٥.

أعماله، حسنةً كانت أو سيّئة". فنظام الكون إلهيّ قائم على العدل المحض، وإنّ العدل الكونيّ قضى بالجزاء لكلّ عمل، وإنّ في الطبيعة نوعًا من النظام لا يترك صغيرة ولا كبيرة من أعمال الناس بدون إحصاء، وبعد إحصائها ينال كلّ شخص جزاءه على عمله، ويكون الجزاء في هذه الحياة[1].

ولكنّ الهندوس لاحظوا من واقع الحياة أنّ الجزاء قد لا يقع في دورته الحياتيّة، فالظالم قد ينتهي دون أن يُقتصّ منه، والمحسن قد ينتهي دون أن يُحسَن إليه، ولذلك لجأوا إلى القول بتناسخ الأرواح، ليقع الجزاء في الحياة القادمة، إذا لم يتمّ في الحياة الحاضرة.

- **"السمسارا" أو تناسخ الأرواح:** يُطلق بعض الباحثين على هذه العقيدة تعبيرًا اصطلاحيًّا آخر هو: "تجوال الروح"، وقد يُطلق عليها "التناسخ" فقط، ويُطلق عليها كذلك "تكرار المولد". والتناسخ رجوع الروح بعد خروجها من جسم إلى العالم الأرضيّ في جسم آخر. ويرى الهندوس أنّ الروح تتقمّص عديدًا من الأجساد خلال رحلتها في الفضاء الخارجيّ حتّى تصل إلى هدفها النهائيّ. وتنطبق نظريّة التناسخ على كلّ الكائنات الحيّة سواء كانت بشريّة أو حيوانيّة أو حشريّة أو نباتيّة. فكلّها يحكمها قانون واحد، ولا تختلف روح عن روح إلاّ بقدر ما يقوم صاحبها به من أعمال. وسببُ التناسخ أو تكرار المولد هو، أوّلاً، أنّ الروح خرجت من الجسم ولا تزال لها أهواء وشهوات مرتبطة بالعالم المادّيّ لم تتحقّق بعد؛ وثانيًا، أنّها خرجت من الجسم وعليها ديون كثيرة في علاقاتها بالآخرين لا بدّ من أدائها، فلا مناص إذًا من أن

---

١ - أتريا، ثقافة الهند وحياتها الروحيّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة، ص ٤٢ - ٤٣؛ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٦٥ - ٦٦، عن: YOGS VASISTHA III, P. 95؛ THOMAS EDWARD, *THE HISTORY OF BUDDHIST THOUGHT*, P 107.

تستوفى شهواتها في حيوانات أخرى، وأن تتذوّق الروح ثمار أعمالهـا التـي قـامت بهـا في حياتها السابقة. فـ"الميل يستلزم الإرادة، و الإرادة تستلزم الفعل في هذا الجسد، وإن لم يصلح هذا ففي جسد غـيره، فقد خُلقت الميـول لتُسـتوفى، وإذا لـم تسـتوفَ لـم ينـجُ الإنسان من تكرار المولد، وإذا اكتملت الميـول ولـم يبـقَ للإنسـان شـهوة مـا، وأُزيلـت الديون فلم يرتكب الإنسان إثمًا ولم يقم بحسنة تستوجب الثواب، نجت روحه وتخلّصت من تكرار المولد، وامتزجت بالبراهما، سواء كان الاكتمال فـي جسـد واحـد أو أجسـاد متعدّدة". فجسد الإنسان الماديّ هو الذي يولد من جسدَي الوالدَيـن، وأمّـا الـذي يحرّكـه وينشّطه ويسيطر عليه فجسـد لطيـف يـتركّب مـن القـوى الأساسـيّة والحـواسّ والقـوى الآليّة المحرّكة، والعناصر اللطيفة، والعقل. فإذا حدث ما نسـمّيه المـوت، مـات الجسـد الماديّ وتوقّف وبلى، أمّا الجسد اللطيف فلا يموت بل يخرج ويعمل مدّة من الزمن في آفاق الكون اللطيفة التي تشبه حالة أحلامنا، فيجـرّب هنـاك الجنّـة والنـار التـي تكلّمـتْ عنها الكتب الدينيّة، ثمّ يعود، مسوقًا بالميول والأعمال الماضية، مـرّةً أخـرى إلـى هذه الحياة متقمّصًا جسدًا جديدًا، وتبدأ بذلك دورة جديدة لهذه الـروح، وتكـون هـذه الـدورة نتيجة للدورة الماضية، فتوجد الروح في إنسان أو حيوان أو ثعبان... ويسعد أو يشـقى نتيجة لما قدم من عمل في حياته السابقة[١]. ومن الشـروط اللازمـة لتجـوال الـروح، أنّ الروح في عالمها الجديد لا تذكر شيئًا عن عالمهـا السـابق، فكـلّ دورة منقطعـة تمامًـا بالنسبة للروح عن سواها من الدورات[٢].

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٦٧؛ مظهر، قصّة الديانات، ص ٨٦ ـ ٩١؛ أتريا، ثقافة الهند مرجع سابق، ص٤٠ ـ ٤٢؛ الرامبوري، فلسفة الهند القديمة، مرجع سابق، ص ٣٠.

٢ - BERRY, *RELIGIONS OF THE WORLD*, P. 41.

ـ "**الموكشا**" أو **الإنطلاق:** وهي العقيدة الثالثة من العقائد الهندوسيّة. وهي تعني اكتمال الميول والشهوات، أي توقّفها وتغلّب الإنسان على نفسه بحيث لا يُبقي له شهوة ولا ميلاً، بل يقنع بما حصل عليه ولا يطلب مزيدًا، فإذا تمّ ذلك مع انقطاع عن الأعمال وعن علائق الدنيا وما فيها من ملاذ وعصيان تلك التي تستلزم تكرار المولد، نجا المرء من تكرار المولد، وامتزج ببراهما. فالإنطلاق هو الامتزاج ببرهما كما تندمج قطرة من ماء بالمحيط العظيم، وهدف الحياة الأسمى هو الانطلاق من دورات الوجود المتوالية والاندماج في الكائن الأسمى. وهذا الانطلاق لا يُكتسَب بالأعمال لأنّ الأعمال الصالحة يجازى عليها الإنسان عن طريق الميلاد المتكرّر كالأعمال الشرّيرة تمامًا، إنّما هو يُكتسَب بالزهد والاكتفاء. "مَن لم يرغب في شيء ولن يرغب، وتحرّر من رقّ الأهواء، واطمأنّت نفسه، فإنّه لا يُعاد إلى حواسّه، ويتّحد بالبراهما فيصير هو، ويصبح الفاني باقيًا". ويؤخَذ على هذا المبدأ أنّه جعل التصوّف والزهد والسلبيّة أفضل من صالح الأعمال، فهي الطريق للاتّحاد باللّه، أمّا صالح الأعمال فينتج دورة جديدة في الحياة تثاب فيها الروح على ما قدّمت من خير في الدورة السابقة[١].

٧ ـ **وحدة الوجود:** وهو مبدأ وثيق الصلة بالمبادئ السابقة، بل يمكن القول إنّ هذه المبادئ كلّها وثيقة الصلة ببعضها البعض. وفي الفيدا مزيج لإيضاح الصلة بين الكون وبراهما، ما أدّى إلى اعتقادهم بوحدة الوجود. فقد كان الناس يؤمنون بأنّ في العالم قوّة عظيمة يلزم التقرّب منها بالعبادة والقرابين. وكانت هذه القوّة تسمّى "براهما". وفي مرحلة تالية لم تعد القرابين الماديّة ضروريّة بل حلّ محلّها مراقبات على ظواهر كونيّة تخيّلها الناس ضحايا، وذلك كالشمس والنار والهواء، وفي مرحلة ثالثة راقب

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٧٠؛ سعيد، أديان العالم الكبرى، ص٣٣.

الإنسان نفسه وتصوّرها قربانًا يوصل إلى براهما، وفي مرحلة رابعة تجرّدت المراقبات عن تصوّر القرابين، بل صار الناس يراقبون أنفسهم على أنّهم القوّة الكامنة العالميّة المؤثّرة، ثمّ وصلوا من التمثّل إلى العينيّة، وأذعنوا أنّ النفس الشخصيّة هي عين القوّة الحيويّة العالميّة أو البراهما، فصار المفتكر والموضوع الخارجيّ شيئًا واحدًا[1]. فقد "خُلقت الحياة هذه من الروح ATMA، فالإنسان ليس جسمَه أو حواسَه، لأنّ هذه ليست إلاّ مركَبَة، وهي تتغيّر وتموت وتبلى، بل الإنسان هو الروح وهي سرمديّة أزليّة أبديّة مستمرّة غير مخلوقة. وذكرت شروح الفيدا أنّ الإنسان من حيث روحه جاء على فطرة الإله BRAHAMAN، وكما أنّ شرارة النار نار، فإنّ الإنسان هو من نوع الإله، وروحُه لا يختلف عن الروح الأكبر إلاّ كما تختلف البذرة عن الشجرة، وعندما تُجرَّد الروح من الظواهر الماديّة تبدأ رحلتها للعودة إلى الروح الأكبر، ولذلك يسمّى تخلّصُها من الجسم "طريق العودة". وبما أنّ الإله في التفكير الهنديّ له صفات ثلاث: براهما (خالق) ووشنو (حافظ) وسيفا (مهلك). وهذه الصفات الإلهيّة الثلاثة كامنة في الإنسان، فهو يخلق الأفكار والأنظمة والمؤسّسات، ويحافظ عليها، ويستطيع تدميرها ليعيد خلقها في شكل آخر"[2].

وفي فلسفة الهند الأخلاقيّة المسمّاة "فيدانت" جاء أنّ "هذا الكون كلّه ليس إلاّ ظهورًا للوجود الحقيقيّ الأساسيّ، وأنّ الشمس والقمر وجميع جهات العالم وجميع أرواح الموجودات أجزاء ومظاهر لذلك الوجود المحيط المطلق، وأنّ الحياة كلّها أشكال لتلك القوّة الوحيدة الأصيلة، وأنّ الجبال والبحار والأنهار... تفجُّرٌ من ذلك

1 ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٧٠ ـ ٧١؛ الرامبوري، فلسفة الهند القديمة، ص١٩ ـ ٢٠، ٣٠.

2 ـ حافظ محمّد علي، الحياة في رأي الآريّين، مجلّة ثقافة الهند، أيلول ـ سبتمبر ١٩٥٠، ص١٣٣ ـ ١٣٤.

الروح المحيط الذي يستقرّ في سائر الأشياء"[1]. وهذا التفكير هو ما قاله سانكرا SANKARA في القرن الثامن ميلاديّ إذ وضع فلسفة الهندوس في وحدة الوجود، وحاول أن يدلّل على رفض الازدواج، وعلى أنّ الروح الإنسانيّة هي جزء من الروح العالميّة BRAHAMAN[2].

الدِّينُ والحيَاة
عندَ الهندُوس

بما أنّ أغلى ما يطمع الهندوسيّ في تحقيقه هو الانطلاق والاندماج في براهما، فإنّ دستور العقل الهنديّ للوصول إلى هذه الغاية كان دائمًا الزيادةَ المفرطة بالصوم وأرق الليل وتعذيب النفس[3]. فهو يعيش أسير الحرمان، ويحمّل نفسه ألوان البلاء، ويبدو دائمًا كثير الهموم والخوف والتشاؤم، ولا يتمنّى الموت، لأنّ الموت ينقله إلى دورة جديدة من دورات حياته، بل يرجو لنفسه الفناء في برهما[4]. لذلك حفلت حياة كثير من الهندوس بالبؤس ومحاربة الملاذ والسلبيّة والتسوّل وتعذيب النفس. وقد قسّمت الفلسفة الهنديّة الحياةَ أربع مراحل، وجعلت لكلّ مرحلة منهجًا يليق بها، وكلّ دور مدّته خمسة وعشرون عامًا باعتبار متوسّط العمر مائة عام. فالدور الأوّل دور التربية الجسديّة والعقليّة والروحيّة؛ والدور الثاني دور الحياة العائليّة، فيتزوّج المرء في هذا الدور ويكون له أهل وذريّة ويقوم بواجباته الأهليّة؛ وفي الدور الثالث يتنحّى الرجل وزوجته عن الحياة العائليّة ويشغلان نفسَيهما بخدمة المجتمع دون أن يكون لهما

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٧٢، نقلاً عن: ويدانت، ص٤١ و٤٣.

٢ ـ HINDUISM, OP. CIT., P. 24.

٣ ـ WELLS, *A SHORT HISTORY OF THE WORLD*, P.123.

٤ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٧٣.

مطمع شخصيّ أو نفع عائليّ؛ أمّا في الدور الرابع فيتجرّد المرء من كلّ ما هو دنيويّ ويتفرّغ للرياضة الروحيّة[1]. وفي كلّ مرحلة من هذه المراحل نوع من الزهادة، ولكنّ الزهادة في المرحلة الأخيرة أقسى وأصعب. وممّا فرضه الفقه الهندوسيّ على الهندوس من الزهادة، وفق شرائع "مانو":

إنّ الذي تغلّب على نفسه فقد تغلّب على حواسّه التي تقوده إلى الشرّ، إنّ النفس لأمّارة بالسوء، والنفس لا تشبع أبدًا، بل يزداد جشعها بعد أن تنال مشتهاها.

على طالب العلم أن يتجنّب الحلوى واللحوم والروائح الطيّبة والنساء، وكذلك يجب عليه ألاّ يدلّك جسده بما له رائحة طيّبة، ولا يكتحل، ولا يلبس حذاء، ولا يتظلّل بالشمسيّة، وعليه ألاّ يهتمّ برزقه بل يحصّل رزقه بالتسوّل.

عندما تدخل في الشيخوخة، عليك بالتخلّي عن الحياة الأهليّة وبالإقامة في الغابة، وإذا أقمت في الغابة فليس لك أن تقصّ شعرك ولحيتك وشواربك، ولا أن تقلّم أظافرك... وليكن طعامك ممّا تنبته الأرض وتثمره الأشجار، ولا تقطف الثمر بنفسك بل كُل منه ما سقط من الشجرة بنفسه، وعليك بالصوم: تصوم يومًا وتفطر يومًا، وإيّاك واللحم والخمر.

عوّد نفسك على تقلّبات المواسم، فاجلس تحت الشمس المحرقة، وعش أيّام المطر تحت السماء، وارتدِ الرداء المبلّل في الشتاء.

لا تفكّر في الراحة البدنيّة، اجتنب سائر الملذّات، لا تقترب من زوجتك، نم على الأرض، ولا تأنس بالمكان الذي أنت فيه.

إذا مشيت فامشِ حذرًا حتّى لا تتخطّى عظمًا أو شعرًا وحتّى لا تدوس نسمة، وإذا شربت الماء فاحذر أن تبتلع نسمة.

لا تفرح للذيذ ولا تحزن على الرديء.

---

١ ـ أتريا، ثقافة الهند وحياتها الروحيّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة، ص٥٥.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٧٤ ـ ٧٥.

آلهَــــــة

الهِندُوس

هناك في التفكير الهندوسيّ في ما يختصّ بالإله نزعتان مختلفتـان تمـام الاخـلاف، وهما نزعة الوحدانيّة، ونزعة التعدّد، وإن كانت نزعة التعـدّد أقـوى وأكـثر انتشـارًا[1]. وقد بلغ التعدّد عند الهنود مبلغًا كبيرًا، فقام عندهم لكلّ قوّة طبيعيّـة تنفعهـم أو تضرّهـم إله يعبدونه، ويستنصرون به وقت الشدائد، كالماء والنـار والأنهـار والجبـال وغيرهـا، وكانوا يدعـون تلـك الآلهـة لتبـارك لهـم فـي ذريّتهم وأموالهـم مـن المواشـي والغـلاّت والثمار وتنصرهم على أعدائهم[2]. ولم يصل الهندوس إلـى عبـادة هذه الظواهر دفعـة واحدة، وإنّما مـرّوا بمراحـل انتهـت بهـم إلـى عبادتهـا. ويصـوّر بـاحثون مراحـل هـذا الانتقال بقولهم: كانت المظاهر الكونيّة الجميلة والمناظر العظيمة باعثة لإيقاظ الشـعور الدينيّ فيهم، فأُعجبوا بهذه المظاهر واستمتعوا بها، وشكروا لها وامتنّوا، وأثنوا عليهـا، ثمّ ظنّوا أنّ لهذه المظاهر أرواحًا ونفوسًا كما أنّ لهم هم أرواحًا ونفوسًا، واعتبروا هذه الأرواح قوى كامنة بيدها أن تمنحهم هـذه المظـاهر التـي أعجبتهـم أو تحجبهـا عنهـم، فتقرّبوا إليها بالعبادة والقرابين واعتبروها آلهة. ودعوهـا عنـد الحاجـات[3]. وعلـى هـذا كثرت الآلهة عندهم كثرة زائدة، ولكنّهـم فـي وسـط هـذا التعدّد كـانوا يميلـون أحيانًـا للتوحيد أو إلى اتّجاه قريب منه، فقد كانوا إذا دعـوا إلهًـا مـن آلهتهـم أو أثنـوا عليـه أو تقرّبوا إليه بقربان، أقبلوا عليه بكلّ عواطفهم وميولهـم حتّـى يغيـب عـن أعينهـم سـائر

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٥١.

٢ ـ علي خان محمود، التقديم لأناشيد الريج فيدا، ص ٧٧.

٣ ـ الرامبوري محمّد عبد السلام، فلسفة الهند القديمة، مجلّة ثقافة الهند (آذار ـ مارس ١٩٥٣) ص١٠.

الالهة والأرباب[1]، ويصير إلههم هو ذلك الإله لا غير، فيسمّونه بكلّ اسم حسن ويصفونه بكلّ صفة كماليّة، ويخاطبونه بربّ الأرباب وإله الآلهة تعظيمًا وإجلالاً، لا تحقيقًا وإيقانًا، وإذا عطفوا إلى إله غيره أقاموه مقام الأوّل وجعلوه ربّ الأرباب وإله الآلهة؛ وهذا التعبير "ربّ الأرباب وإله الآلهة" كان أوّلاً يدلّ على العظمة والجلال، فلمّا مضت القرون على هذا النحو، أصبح هذا التعبير ثابت المعنى، أي أنّهم اعتقدوا فعلاً أنّ وصف الآلهة رئيسًا ومرؤسين وآمرًا ومأمورين، وأنّ الرئيس والآمر هو ربّ الأرباب وإله الآلهة، وهذا وصف ثابت لا ينتقل إلى سواه، والكائنات كلّها تحت يده، وسائر الآلهة تحت أمره[2].

إنّ أقدم ديانة في الهند كانت عبادة طوطميّة لأرواح كثيرة تسكن الصخور والحيوان والأشجار ومجاري المياه والجبال والنجوم. وكانت الثعابين والأفاعي مقدّسة، أمّا أقوى الآلهة فهي قوى الطبيعة نفسها وعناصرها: السماء والشمس والأرض والنار والضوء والريح والماء والجنس. كلّ هذه الأعداد من الآلهة خلقها الهندوس لأنفسهم معتمدين على العناصر الطبيعيّة. فجعلوا السماء أبًا وسمّوه "فارونا"، وجعلوا الأرض أمًّا وأطلقوا عليها اسم "برينيفي". وكان المطر عندهم هو الإله "باجانيا"، والنار هي "أغني"، والريح هي "فايو"، والعاصفة هي "أندرا"، والفجر هو "أوشاس"، ومجرى الممرّات في الحقل هو الإله "سيتا"، والشمس هي الإله "سوريا" أو "مترا" أو "فشنو". بينما النبات المقدّس يُسكر عصيره كلّ الناس وكلّ الآلهة وهو الإله "سوما". ومع الزمن تمثّل الناس هذه الآلهة في صور أشخاص راحوا يعبدونهم، وأصبحت الشمس التي تهب الحياة إلهًا جديدًا اسمه "سافيتار" وأمّا ضوؤها فإله آخر اسمه "فيفاسفات". ثمّ

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٥١، استنادًا إلى: HINDUISM, OP. CIT., P. 6.

٢ ـ عبد السلام، المرجع السابق بتصرّف.

أصبحت الشمس التي تولد الحيّ من الحيّ إلهًا عظيمًا جديدًا اسمه "براغاباتي" ربّ كلّ الأحياء. وإذ كثر عدد الآلهة نشأت مشكلة جديدة هي: "أيّ هؤلاء الآلهة خلق العالم؟". وقال البعض إنّه "أغني" إله النار. وقال آخرون بل "إندرا" إله العاصفة والحرب، وقالت طائفة إنّه "سوما"، بينما قال الباقون إنّه "براغاباتي" إله الشمس خالق كلّ شيء وربّ كلّ الأحياء... وظلّ هذا الربّ يرتفع ويعلو حتّى صار ذات يوم يُعبد على أنّه الإله الواحد... ثمّ صار هو "براهما" الذي يفني في نفسه كلّ شيء.. والذي ابتلع براغاباتي ذاته داخل جوفه الكبير.

فلقد حاول الهنديّ الوصول إلى سرّ هذا العالم في خلال سنوات التفكير الطويلة التي عزّ عليه خلالها أن يفهم: من أين جئنا؟ وأين نقيم؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟ مَن ذا الذي أمر بنا فإذا نحن على الأرض أحياء؟ أهو الزمان أم الطبيعة أم الضرورة أم المصادفة أم عناصر الجوّ... ذلك الذي كان سببًا في هذا الوجود؟ أيكون السبب حقًّا هو ذلك الشيء الذي يُسمّى "بالروح الأعلى"؟

أجابت على هذه الأسئلة "أسفار الأوبانيشاد" إذ تقول:

> إنّ جوهر النفس ليس هو الجسم ولا العقل ولا الذات الفرديّة. ولكنّه الوجود العميق الصامت الذي لا صورة له، والكامن في دخيلة أنفسنا، واسمه أتمان. أمّا جوهر العالم الواحد الشامل الذي لا هو بالذكر ولا هو بالأنثى، أي روح العالم غير المشخّص في صفاته والمحتوي لكلّ شيء والكامن في كلّ شيء والذي لا تدركه الحواس، فاسمه "براهما". و"أتمان" و"براهما" ما هما إلاّ حقيقة الحقيقة... إن هما إلاّ إله واحد بعينه، لأنّ الروح اللافرديّة وهي القوّة الكائنة في الإنسان هي بعينها روح العالم. من هنا يكون "أتمان" وبراهما حقيقة واحدة، هما أساس العقيدة بالوحدة المثاليّة، وحدة الوجود ووحدة الإله، وهما معًا القوّة الروحانيّة المسيطرة على هذا العالم. ومن خلال تلك القوّة الروحانيّة الهائلة، بدأت قصّة جديدة رائعة، وكانت

القصّة الرائعة الجديدة، هي خلق الأرض. ولولا التضحية ، لما كانت هذه الأرض، ولما كان هذا العالم. فمن جسد رجل عظيم خُلقت الأرض. وكان هو رجلاً هائلاً ضخمًا، ضحّى بجسده على مذبح الآلهة، ورضيت الآلهة عنه فحوّلت جسده إلى ذرّات صغيرة عادت لتلتئم من جديد وتتّحد جزئيّاتها. ومن هذا الاتّحاد تكوّنت الأرض وكلّ ما يحيط بها من يابس وماء. من أجل ذلك لم تكن الأرض سوى جزء واحد من هذا الكون، قسم واحد من بين واحد وعشرين قسمًا ينقسم إليها هذا الكون ذو الشكل البيضاويّ الذي يُسمّى "بيضة براهما". أمّا الأرض التي عاش عليها مانو وأبناؤه من البشر، فقد قامت في الطبقة السابعة من بيضة براهما.. من فوقها ترتفع ستّ سماوات، ومن تحتها سبع أراضٍ تعيش عليها أرواح الثعابين والحيوانات. وهي خالية من البشر الذين لا يستطيعون الحياة فيها لأنّها مليئة بالسحر والغموض، بكلّ ما تحتويه من كنوز مخبّأة وثروات. أمّا أسفل هذه الطبقات السبع، فتقع سبع طبقات أخرى تسمّى "نراكا" كلّ منها تُعتبر جهنّم تصلي نيرانها كلّ المخلوقات التي تعيش في الطبقات السبع الوسطى، حيث تتعذّب لتكفّر عن الذنوب التي ارتكبتها. هذه الطبقات الواحدة والعشرون وحدات كونيّة تدور كلّ منها حول بعضها ثمّ تدور كلّها في فلك معيّن. أمّا الدورة الرئيسيّة فهي دورة "الكلبا" أي يوم البراهما الذي استمرّ ٤,٢٠٠ مليون من السنين[١].

أمّا آلهة الفيدا القديمة، فقد أجلّوا منها "إندرا" إله العواصف والحرب، وتصوّروه ذا جثّة ضخمة وشعر طويل ولحية كثّة يبعث منها صوته الأجشّ. ومن القصائد المرفوعة إليه واحدة نقرأ فيها: "في قبضة يدَيه الجياد والقطعان والقرى وكلّ العربات. إنّه خالق الشمس والضحى ومحرّك المياه... بدونه لا يرتفع إنسان، وفي الحرب يدعونه لنصرتهم. إنّه مثال كلّ شيء ومحرّك كلّ ساكن".

---

١ - مظهر، قصّة الديانات، ص٩١- ٩٤.

ومن آلهتهم "رودرا" الذي كان مستهاب الجانب لأنّه مطلِق العواصف الهوجاء المنحدرة من جبال الهمالايا. ومن الصلوات القليلة المرفوعة إليه واحدة تقول: "لا تقتل كبارنا ولا صغارنا، لا طفلنا الذي ينمو ولا الرجل الذي شبّ ونما. ولا تقتل لنا أبًا أو أمًّا، ولا تقتلنا يا رودرا. لا تقتل قطعاننا ولا جيادننا، ولا تُهلك بسخطك أبطالنا، فنحن نقدّم لك الذبائح على الدوام".

ومن الآلهة القديمة أيضًا الإله "ياما"، وهو أوّل إنسان مات، فصار إله الموتى وحاكمهم، والحَكَم على أفعالهم. وتدعو الفيدا إلى إجلال "الملك ياما الذي يجمع الناس معًا، الذي ارتحل إلى السماوات العُلى فوقنا ليشقّ الطريق للكثيرين. إنّه أوّل مَن وجد لنا مكانًا نستقرّ فيه ولا يمكن أن نخسره. هلّموا أيّها الناس إلى ملاقاة ياما. إلى ملاقاة الآباء، إلى قطف ثمرة الأعمال الحسنة في أعلى سماء. اهجروا الخطيئة والشرّ، وابحثوا من جديد عن مسكن لكم، لابسين جسدًا آخر". هنا نجد إجلال الآريّين لأسلافهم، وهذا من أقدم عقائدهم[1].

أمّا "فارونا" فهو إله متفوّق، إله النظام. يصنع النظام الطبيعيّ والخُلقيّ في كلّ مكان، ويحمي الطبيعة من القوى التي تعمل على تقويضها، والإنسانَ من الخطيئة والشرّ. وهو الحَكَم على أفعال البشر. وعندما يخطئ المرء، عن جهل أو عن معرفة، ضدّ أخ أو صديق أو جار أو غريب، فهو يرفع الصلاة إلى فارونا كي يسامحه.

ونجد في الفيدا آلهة أقلّ قدمًا، وعددها ثلاثة وهي: "دايوس بيتار" أي السماء ـ الأب، وهو شبيه بالإله الإغريقيّ زفس والرومانيّ جوبيتير؛ و"بريثيفي ماتار PRITHIVI

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٣٠ ـ ٣١.

MATAR" أي الأرض ـ الأم؛ و"ميترا"، وهذا الإلـه هـو ذو بُعد خُلقـيّ، يمثّل المحافظـة على الإيمان والعقيدة[١].

وفي حوالى القرن التاسع قبل الميلاد، وصل فكر الكهنة الهنـود إلـى إبراز نتيجـة تقرب من التوحيد أو تصل إليه، فقد جمعوا الآلهة في إله واحـد، وقـالوا إنّـه هـو الـذي أخرج العالم من ذاته، وهو الذي يحفظــه، ثـمّ يهلكـه ويـردّه إليـه، وأطلقـوا عليـه ثلاثـة أسماء، فهو "براهما" من حيث هو موجد، وهو "فشنو" من حيث هو حافظ، وهو "سـيفا" من حيث هو مهلك.

فـ"براهما" إسم اللّه في اللغة السنسكريتيّة، وهو عند البراهمة الإله الموجود بذاتـه، لا تدركه الحواس، ويدركه العقل، وهو مصدر الكائنات كلّها، لا حدّ لـه، وهـو الأصـل الأزلـيّ المستقلّ الذي منه يستمدّ العالم وجوده. وجاء في كتاب "الباغافاتا بورانا"، وهـو من الكتب الهنديّة المقدّسة، أنّ كاهنًا توجّه إلـى الآلهـة براهمـا وفشنو وسـيفا وسـألهم: أيّكم الإله بحقّ؟ فأجابوا جميعًا: "إعلم أيّها الكاهن أنّـه لا يوجـد أدنـى فـارق بيننـا نحـن الثلاثة، فإنّ الإله الواحد يظهر بثلاثة أشكال بأعماله من خَلق وحفظ وإعدام، ولكنّه فـي الحقيقة واحد، فمَن يعبد أحد الثلاثة فكأنّه عبدها جميعًـا، أو عبـد الواحـد الأعلـى". هـذا الثالوث الجديد ظهر متأخّرًا نتيجة التطوّر، لذلك ليس لـه ذكـر فـي الفيـدا، أمّـا الآلهـة الواردة في الفيدات فعديدة، ولكنّهـا اجتمعـت فـي ثلاثـة آلهـة رئيسـيّة هـم: فارونـا فـي السماء، وإندرا في الهواء، وأغني على الأرض[١].

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، مرجع سابق، ص ٣١ ـ ٣٢.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٥٢ ـ ٥٤؛ مذكور د. إبراهيم و كرم د. يوسف، دروس في تاريخ الفلسفة، ص ١٢؛ وجدي محمّد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، ٢: ١٥٤ ـ ١٥٥.

وجاء أيضًا عن ثالوث الآلهة: إنّ العالم ليس مخلّدًا. فسيجيء يوم ينهار فيه كلّه بسبب النار والفيضان. وعندئذ سيتدخّل الإله "فشنو VISHNU" ويحول دون احتراق العالم وغرقه. وبدلاً من أن ينتهي العالم إلى الفناء فإنّه ينتقل إلى عصره الذهبيّ. وهذا هو أحد الأدوار الخطيرة التي يقوم بها الإله فشنو. وهذا الإله هو واحد من ثلاثة آلهة يسمّون "الثلاثة في واحد" يسيطرون على هذا الكون، هم: براهما الخلق، وفشنو الحافظ، وشيفا المدمّر. أمّا براهما فسيّد جميع الآلهة رغم أنّه مهمل في شعائر العبادة الفعليّة. وكان له من الشهامة ما أبعده عن الميل مع الهوى. وهو القوّة الخالقة في الطبيعة[1]. أمّا فشنو "فيقطع الأرض والفضاء في ثلاث خطى خفيفة، معتقًا العالم من ظلمة الليل"[2]. فهو إله الحبّ الذي كثيرًا ما ينقلب إنسانًا ليتقدّم بالعون إلى البشر. وأعظم ما يتجسّد فيه فشنو هو شخصيّة "كرشنا" وهو في صورته الكرشنيّة، مولود في سجن، يأتي بكثير من أعاجيب البطولة ومغامرات الغرام، يشفي الصمَم والعمى ويعاون المصابين بداء البرص، ويذود عن الفقراء ويبعث الموتى من القبور. وكان لكرشنا تلميذ محبّب إلى نفسه هو "أرجُنا"، الذي تبدّلت أمامه خلقة فشنو... وتقول أسطورة حياته إنّه مات مطعونًا بسهم، وتقول أسطورة أخرى إنّه قُتل مصلوبًا على شجرة، ثمّ هبط إلى جهنّم ومنها صعد إلى السماء، على أن يعود في اليوم الآخر ليحاسب الناس أحياءهم وأمواتهم. وهو، مثل الإله شيفا، تتبعه الأكثريّة الكبرى من سواد الشعب الذي يكرّم الآلهة، ويرسم الواحد منهم على جبهته كلّ صباح بالطين الأحمر، علامة الفشنو، وهي شوكة ذات أسنان ثلاث. بينما الشيفيّ المخلص لعقيدته يرسم ثلاثة خطوط أفقيّة على جبهته برماد من روث البقر، أو يلبس "اللنغا" ويربطه

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ٩٤ ـ ٩٥.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٣١.

إلى ذراعه أو يعلّقه حول عنقه، أمّا أتباعه فيقدّسونه على أنّه هو الذي خلق الكون كلّه، وأنّه بعد أن قام من النوم أمر البراهما أن يخلق الأرض، ثمّ اتّخذ مكانًا له في "الفيكونتا" وهي السماء التي كان هو نفسه إلهًا لها. وهناك يجلس فشنو على العرش بجانب زوجته والإلهتَين "لاكشمي" و"سري" إلهتَي الحظّ والبركة الطيّبة. وفشنو ينتابه القلق أحيانًا بسبب هذا العالم، فهو يهبط بين حين وآخر من عليائه يتفقّد شؤون البشر[١].

وأمّا شيفا فعبادته من أقدم وأعمق وأبشع العناصر التي تتألّف منها العقيدة الهندوكيّة. وكلمة شيفا لفظ أُريد به التخفيف من بشاعة هذا الإله، ومعناها الحرفيّ "العطوف"، مع أنّه في حقيقة الأمر إله القسوة والتدمير قبل كلّ شيء آخر. وهو تجسيد لتلك القوّة الكونيّة التي تعمل واحدة بعد أخرى على تخريب جميع الصور التي تتبدّى فيها حقيقة الكون. وشيفا لا يظهر عادة إلاّ في ميادين القتال والمعارك الضخمة والمنازعات الطاحنة، وفي كلّ هذه الميادين تحلّ بركته، وهي دائمًا بركة قاتلة. أمّا تماثيله المنحوتة في الصخر فهي تمثّله وهو يضع فوق رأسه عددًا من الجماجم وتحيط به أرواح الشرّ حيث يمارس رقصة العبوس والضراوة، تلك الرقصة التي تنتهي بتحطيم العالم. وهكذا يمكن القول إنّه يمثّل الدمار ويضع نهاية لكلّ شيء. إلى جانب كلّ ذلك فإنّ شيفا يُعتبر الدفعة الجارفة نحو التناسل الذي يتغلّب على موت الفرد باستمرار الجنس. وهذه الحيويّة الخلاّقة الناسلة تمثّلها زوجة شيفا الإلهة "شاكتي" التي تُسمّى في بعض الأوقات "كالي". وهي تُعتبر أكثر أهميّة من "لاكشمي" زوجة فيشو. ويقول أتباعها إنّ قوّة الآلهة تحوّلت لكي تتجسّد في جسدها، فأصبح لها قوّة منفردة. وبينما الإله الذكر ليس في حاجة إلى أن يُعبد، إذ إنّ عبادته ليست عمليّة محبوبة في

---

١ - مظهر، قصّة الديانات، ص ٩٤ - ٩٥.

هذا العالم، فإنّ كالي تصبح مصدر القدسيّة والعظمة لكلّ المخلوقات. وعندما تكون كالي غاضبة فإنّها ترقص في وحشيّة وترتعش فوق شيطان، وتصبّ نقمتها على المجرمين المذنبين. أمّا عندما تكون كالي راضية فتبدو سيّدة جميلة شابّة تمنح الحبّ والتسامح والكرم، ويستطيع المتعبّدون التقرّب إليها بتقديم التضحيات ونحر الذبائح أمام معابدها. وهذه التضحيات كانت في أوّل الأمر بشريّة، غير أنّها اكتفت بعدئذ بضحايا الماعز. والإلهة كالي عند البعض شبح أسود بفم فاغر ولسان متدلٍّ، تتزدان بالأفاعي، وترقص على جثّة ميتة، وأقراطها رجال موتى، وعقدها سلسلة من جماجم، ووجهها وثدياها تلطّخها الدماء، ومن أيديها الأربعة يدان تحملان سيفًا ورأسًا مبتورًا، وأمّا اليدان الأخريان فممدودتان رحمة وحماية. ذلك أنّها أيضًا إلهة الأمومة إلى جانب أنّها رمز الدمار والموت. وفي وسعها أن تبتسم كما أنّ في مقدورها أن تقتل. ويُقال إنّها هي وزوجها اتّخذا أبشع صورة ممكنة لكي يُلقيا الرعب في نفوس الرعاديد فيحتشموا، أو قد تكون هذه البشاعة كلّها أُريد بها أن تلقي الرعب في نفوس العباد فيجودوا بالعطاء للكهنة![1]

عبادةُ الفيَلَة والقردَة والأفاعي

تلك هي الآلهة الرئيسيّة في الهندوسيّة، وإنْ كان هناك أيضًا بضعة آلاف من الآلهة الصغيرة. هناك مثلاً إله آخر هو ابن شيفا واسمه "غانيش" هذا الإله هو الفيل الذي تتجسّد فيه الطبيعة الحيوانيّة للإنسان، وتتّخذ صورته في الوقت نفسه طلسمًا يقي

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ٩٥ ـ ٩٧.

حامله من الحظّ السيّء. وإلى جانب هؤلاء الآلهة هناك القردة والأفاعي، وهي مصادر الرعب التي ترمز لطبيعة الآلهة. ولعلّ أخطر هذه الأفاعي المقدّسة أفعى تُسمّى "ناجا" لها عند الهندوس منزلة خاصّة، فعضّة واحدة منها تؤدّي إلى موت سريع، ولهذا فهم يقيمون لها حفلاً دينيًا كلّ عام تُقدَّم فيه لها ولزملائها من الأفاعي قرابين من اللبن والموز توضع عند مداخل جحورها. وأكبر مراكز لعبادة الأفاعي يقع في شرق "ميسور"، فهناك، في معابد هذا الإقليم، تسكن جموع زاخرة من الأفاعي حيث يقوم الكهنة على إطعامها والاهتمام بها. وإذا كانت القردة والأفاعي لها هذه القدسيّة عند الهندوس، فهناك من الحيوانات الأخرى ما يتمتّع، هو الآخر، بمثل هذه القدسيّة، مثل التماسيح والنمور والطواويس والببّغاوات بل والفئران أيضًا. فالهندوسيّ لا يرى فارقًا بين الحيوان والإنسان، لأنّ لكلّ منهما روح. والأرواح تمضي متنقّلة دائمًا بين الحيوان والإنسان. لهذا فهي صنوف إلهيّة نسجت خيوطها في شبكة واحدة لا نهاية لها[1].

تَقديس

البَقرة

البقرة هي أكثر الحيوانات قدسيّة عند الهندوس، لم تضعف مع كرّ السنين وتوالي القرون. فلها تماثيل في كلّ معبد ومنزل وميدان. وهي تتمتّع بحريّة مطلقة في ارتياد الطرقات كيفما شاءت. ولا يجوز للهندوسيّ، تحت أيّ ظرف من الظروف أيًّا كان، أن يأكل لحمها أو يستغلّ جلدها في صناعة من الصناعات. وهي إذا ماتت وجب دفنها بجلال مع أعظم طقوس الدين. ومن المؤمنين بقداسة البقرة المهاتما "غاندي" الذي قاد حملة لحماية البقر. وقد اعتبر البقرة "رمزًا لكلّ العالم تحت سلطة الإنسان الذي

---

١ مظهر، قصّة الديانات، ص٩٧ ـ ٩٨.

يستطيع، من خلال البقرة، أن يكتشف وحدته مع كلّ شيء حيّ". وفي نظر غاندي أنّ "حماية البقرة تعني حماية كلّ خليقة اللّه غير الناطقة"[1]. وفي حديث للمهاتما غاندي بعنوان "البقرة أمّي"، اعتبر أنّ "حماية البقرة التي فرضتها الهندوسيّة هي هديّة الهند إلى العالم، وهي إحساس برباط الأخوّة بين الإنسان وبين الحيوان، والفكر الهنديّ يعتقد أنّ البقرة أمّ للإنسان، وهي كذلك في الحقيقة، إنّ البقرة خير رفيق للمواطن الهنديّ، وهي خير حماية للهند... فعندما أرى البقرة لا أعدّني أرى حيوانًا، لأنّي أعبد البقرة، وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع. وأمّي البقرة تفضّل على أمّي الحقيقيّة من عدّة وجوه، فالأمّ الحقيقيّة ترضعنا مدّة عام أو عامَين وتتطلّب منّا خدمات طوال العمر نظير هذا، ولكنّ أمّنا البقرة تمنحنا اللبن دائمًا، ولا تتطلّب منّا شيئًا مقابل ذلك سوى الطعام العاديّ. وعندما تمرض أمّنا الحقيقيّة تكلّفنا نفقات باهظة، ولكنّنا لا نخسر شيئًا ذا بال على أمّنا البقرة، وعندما تموت أمّنا الحقيقيّة تتكلّف جنازتها مبالغ طائلة، وعندما تموت أمّنا البقرة تعود علينا بالنفع كما كانت تفعل وهي حيّة، لأنّنا ننتفع بكلّ جزء من جسمها حتّى العظم والجلد والقرون. أنَا لا أقول هذا لأقلّل من قيمة الأمّ، ولكن لأبيّن السبب الذي دعاني لعبادة البقرة. إنّ ملايين الهنود يتّجهون للبقرة بالعبادة والإجلال وأنا أعدّ نفسي واحدًا من بين هؤلاء"[2].

وللبقرة صلوات يتلوها المتعبّد لها منها:

أيّتها البقرة المقدّسة، لك التمجيد والدعاء، في كلّ مظهر تظهرين به، أُنثى تدرّين اللبن في الفجر وعند الغسق، أو عجلاً صغيرًا، أو ثورًا كبيرًا، فلنُعدّ لك مكانًا واسعًا نظيفًا يليق بك، وماء نقيًّا تشربينه، لعلّك تنعمين بيننا بالسعادة[3]...

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٣٨.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٣٦.

٣ ـ مجلّة "بهافان"، عدد تشرين الثاني ـ نوفمبر (بومباي،١٩٦٣)

وهناك آلهة أخرى لها عبادات خاصة، أو كان لها عبادات خاصة، زوجة براهما "سارسفاتي SARASVATI" التي أشرفت على الموسيقى والكلام، وعبدها الموسيقيون والكتّاب والطلاّب الذين يؤدّون الامتحانات. وكان الإله "سيريا SURYA" أو الشمس يُعبد لبعض الوقت على نطاقٍ واسعٍ في غرب الهند، ويقوم على خدمته "ماجا ـ براهمين MAGA BRAHMINS" أي "المجوس البراهمة" الذين يجب الربط بينهم وبين مجوس فارس. أما ابن "شيفا" واسمه "غانشا GANSHA" وله رأس فيل، فهو ربّ العقبات الذي يصلّي له الناس في بداية أيّ مشروع، أو قبل القيام بطقوس دينيّة، على الرغم من أنّه لم تكن له عبادة خاصّة. وهناك ابن آخر لشيفا هو "سكندا SKANDU" أو "كراتيكايا سوبر اهمانيا"، وكان محبوبًا إلى أقصى حدّ عند "التاميل TAMILNAD"حيث اتّحد مع الإله "موروهان MURUHAN" أحد آلهة الحقبة السابقة لوجود الآريّين. أمّا "لاكشمي LAKSHMI" زوجة "فشنو" فهي ربّة الحظّ وهي شخصية شعبيّة محبوبة، رغم أنّها بغير عبادة خاصّة. وأمّا "هانومان HANUMAN" الإله القرد مساعد "راما"، فهو الروح الحارس الذي يعبده القرويُّون على نطاقٍ واسع، ولهذا كانت للقردة حماية واسعة في الهند بوصفها ممثّلة لهذا الإله[1].

الـ" سير جون مارشال SIR JOHN MARSHALL" أحد المنقّبين عن الآثار في "همنغور ـ دارو" أي "مدينة الموت"، وفي السند، وهي تعدّ مع مدينة "هاربا HARAPPA" في البنجاب من أكبر مدن نهر السند، قد صاغ الدليل على مساهمة السند في الهندوسيّة المتأخّرة. ويعتمد دليله على أختام من أحجار ناعمة وتماثيل صغيرة من موادّ مختلفة، رغم أنّ بعض المباني التي كشف عنها التنقيب يظنّ أنّها كانت أضرحة أو معابد خالية

---

١ ـ بارندر جفري، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة د. عبد الغفار مكاوي، مكتبة مدبولي للنشر والتوزيع (القاهرة،١٩٩٦) ص٢٠٢.

من الصور. وتأتي على رأس اكتشافاته "الإلهة الأمّ الكبرى"، وبعض تماثيلها عبارة عن تماثيل صغيرة لأنثى حامل، أمّا الغالبية العظمى منها فشخصيّات نسائيّة عارية ذات ياقات عالية وأغطية للرأس، وهي من نفس فئة تماثيل الأنثى التي عُثر عليها في الحضارات الريفيّة في تلال وسفوح جبال "بلخستان BALUCHISTAN"، بالإضافة إلى التي سبقت حضارة نهر السند وعاصرتها، وهي تماثيل متشابهة موزّعة في آسيا الغربيّة كلّها حتّى بحر إيجة ترجع للعصر الحجريّ. ثمّ يأتي "الإله الذكر" الذي يمكن التعرّف عليه في الحال كنموذج لشيفا التاريخيّ، جالسًا وباطن القدمَين متلامسان في وضع "اليوغا"، وصورة عضو التناسل الذي يذكّرنا بعبادة الـ"لنغا" تحيط به الحيوانات معبّرة بذلك عن شعار "شيفا" وهو "إله الحيوان". وثمّة عدد كبير من التماثيل الحجريّة لعضوَي التناسل عند الرجل والمرأة، إمّا في صورة رمزيّة أو واقعيّة، وهي تشير إلى عبادة "اللنغا LINGA" و"اليوني YONI" عند شيفا وزوجته، والأحجار التي تمثّل عضو الذكورة قد ترتبط تاريخيًّا بحجر "شلغراما SHALAGRAMA" شعار "فنشو VISHNU"، وتوحي عبادة الأشجار والأفاعي والثيران، مثل "ثور شيفا"، رغم أنّ البقرة ليست من بينها، على اتّصال هندوسيّة العصور التاريخيّة المختلفة. كما أنّ الأفكار الموجودة عن طقوس التدنيس والتطهير بالماء، التي يعبّر عنها في وجود مغطس ضخم، لعلّها تفسّر تصوّرات الهندوس عن الدنس.

هذا الافتراض الجذّاب قد يفسّر وجود عبادات غير فيديّة متمركزة حول شخصيَ الإله شيفا والإلهة الكبرى في الهندوسيّة، سواء في صورتها الريفيّة بوصفها إلهة الأرض، أو صورتها "التنترية TANTARIC" بوصفها "شاكتي SHAKTI" زوجة شيفا. لكن لا بدّ لنا من أنّ نذكر أنّ مدّة ألف وخمسمائة سنة من صمت السجلاّت الأدبيّة والأثريّة تفصل بين انتهاء حضارة نهر السند وبين الشواهد الدالّة على ظهور هذه العبادة، أو

عودة ظهورها، في الهندوسيّة، ولقد أضافت حضارة نهر السند فصلاً جديدًا كاملاً إلى التاريخ الهنديّ منذ التنقيب المنظّم في عشرينات القرن العشرين، ولكن لا يزال الأمر مبكرًا جدًّا للحكم على مدى اتّفاق هذا الفصل مع الفصول التالية في تاريخ الهند، والمسألة متروكة لعلم الآثار، الذي طرح المشكلة منذ البداية، ليقوم بحلّها[1].

الشَّعَائر والطقوس الهندُوسيَّة

الهندوسيّة، كما سبق القول، مجموعة من العادات والتقاليد والمعتقدات الهنديّة سواء منها ما يرجع إلى السكّان الأصليّين أو ما جلبه إلى الهند الزاحفون الطورانيّون أو الفاتحون الآريّون، وكانت العقائد الآريّة الأولى قد طرأ عليها تغيّر كثير بسبب اتّصال الآريّين بالإيرانيّين وهم في طريقهم إلى الهند[2]. وقد ارتقت الهندوسيّة عندما تجمّع البراهمة في القرن الثامن قبل الميلاد فأعادوا التفكير في دينهم، ووضعوا مذهب البرهميّة وقالوا بعبادة براهما. ومن أهمّ ما عُنيت به الهندوسيّة تقديم القرابين على أن يتمّ ذلك بحضور براهميّ وتبريكه. وبدون القرابين تتلاشى أرواح الموتى ويُطفأ مجد الأسرة إلى الأبد، فالقرابين غذاء للأجداد، وكان الإله "أغني" يحملها إليهم وكان عدم تقديم القرابين إلى الأجداد يُعتبر كمَن يترك والدَيه يموت جوعًا[3].

كان يوجد في البيت الآريّ نار مقدّسة تشتعل منذ بداية إنشائه، أي خلال حفل الزواج، وهي ليست نارًا عاديّة: فينبغي ألاّ تُستخدم في إعداد الطعام أو الأغراض

---

١ - بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص١٨٥.

٢ - HINDUISM, OP. CIT., P.2.

٣ - شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٩٩.

المنزليّة الأخرى، وكذلك ينبغي إشعالها بأنواع خاصّة من الخشب، وبطريقة معيّنة هي حكّ العصي ببعضها، وينبغي ألاّ تُترك حتّى تخمد. ولا بدّ أن يتقدّم ربّ الأسرة لهذه النار يوميًّا بقرابين للآلهة. بل إنّه في الواقع ملزم بالقيام ثلاث مرّات في اليوم بما يسمّى "بالتضحيات الخمس الكبرى": عبادة براهمان BRAHMAN، روح العالم، وقوامها تعليم الفيدا أو تلاوتها، وعبادة الآباء بتقديم الطعام والماء لتغذيتهم، وعبادة الآلهة بإحراق القرابين، وعبادة بهوتاس BHUTAS، وهي الموجودات الحيّة أو الأرواح، بنثر الحبوب في الجهات الأربع والمركز، وفي الهواء، وعلى أواني المنزل، ووضع الطعام على عتبة الدار للمنبوذين والحيوانات والطيور والحشرات، وعبادة الرجال عن طريق تقديم الضيافة إلى الآري، ويُفَضّل البراهمي العليم بالفيدا. أمّا أهمّ الواجبات التي يلتزم بها ربّ الأسرة فهي واجبات نحو الآباء أو الأسلاف، فهو ليس ملزمًا فقط بأن يقدّم القرابين من الماء والطعام يوميًّا إليهم، وإلى روح البيت التي تسكن الركن الشماليّ الشرقيّ من المنزل، بل إنّ عليه أيضًا أن يقدّم لهم "البندا PINDA" أي "كرة الأرزّ RICE - BALL" في يوم ظهور القمر الجديد من كلّ شهر. وتسمّى العناصر الرئيسيّة في هذا الاحتفال "شراذا SHRADHA" وهي تتلخّص في أن يجلس فقهاء البراهمة، الذين هم على خلق لا يرقى إليه الشكّ، في مكان مكشوف، على مقاعد منسوجة من العشب المقدّس، ويفتتح ربّ الأسرة الاحتفال وينهيه بحرق قرابين للآلهة في النار المقدّسة. لكنّ الحدث الرئيسيّ هو التقريب للآباء، فهو يصنع ثلاث كرات أرزّ ويضعها فوق سجّادة من العشب المقدّس بعد رشّ المكان بالماء، وتذهب هذه إلى الموتى الثلاثة من أسلافه: الأب، والجد، وأب الجد، ثم يمسح الأرزّ العالق بيده في العشب، وهذا هو تقديم القرابين للأسلاف الثلاثة الأسبق... ثمّ يسكب ماءً مباركًا على الأرض بالقرب من "البندا PINDA" ومن شأن ذلك أن يرضي الأسلاف الأكثر بعدًا. ثمّ يقسم "البندا" أو

كرات الأرزّ على ضيوفه من البراهمة الذين يأكلونها، وما تبقّى من "شراذا SHRADHA" يصبح الوجبة الأساسيّة للضيوف[1].

أمّا "الترسيم INITIATION"، فهو واحد من سلسلة الطقوس التي تُسمّى "سمسكار SAMSKARA" أو ما يمكن أن يطلق عليه عبارة "طقوس المراحل الحاسمة في الحياة". وتتمّ ثلاثة من هذه الطقوس قبل الولادة لتشجيع الحمل، وإنجاب طفل ذكر، وضمان صحّة الجنين، وفي ما بين الاحتفال بمولد الطفل بتسميته تراعي الأمّ والطفل طقوسًا تستمرّ لمدّة عشرة أيّام وتُسمّى طقوس النجاسة. والمراحل الأخرى من تطوّر الطفل التي تتميّز بها "السمسكارا" هي خرم الأذن لأوّل مرة، واللحظة التي يخرج فيها الطفل من البيت ويرى الشمس لأوّل مرة، وكذلك المرّة الأولى التي يتناول فيها طعامًا جافًّا، وإذا كان ذكرًا فهي المرّة الأولى التي يُحلق فيها شعر رأسه، ما عدا خصلة من الشعر في قمّة الرأس يتركها طوال حياته. ويعدّ الترسيم الخطوة التالية في "السمسكارا" وهو يتمّ عادة عندما يكون الطفل بين سن الثامنة والثانية عشرة. ولبّ الاحتفال هو أن يرتدي المرشّح زيّ الناسك ويمسك في يده صولجانًا مع خيط مقدّس يوضع على كتفه اليسرى ويتدلّى من ذراعه الأيمن، ثمّ يتلو الكاهن الرسميّ، من "غايتري ـ منترا GAYATRI - MENTRA" وهي أبيات من "الريغ فيدا" يتلوها الهندوس، وهم الطبقة العليا في المجتمع في جميع طقوسهم:

فلنفكّر في روعة وجلال... الإله سافتري... حتّى يلهم عقولنا...

وعلى العضو المرشّح في هذه الحالة، أن يستجدي الصدقات، وأن يضع نفسه تحت وصاية براهمي متفقّه في الدين ليصبح معلّمه الروحي "GURU"، ليعلّمه ويهذّبه

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص١٨٤ ـ ١٨٥.

بالكتب المقدّسة لا سيّما الفيدا. وعلى التلميذ أن يظهر لمعلّمه أقصى درجات الاحترام والخشوع، بل أعظم ممّا يظهره لوالديه، لأنّه إذا كان الأب والأمّ يمنحانه الحياة، فإنّ المعلّم من خلال معرفته الدينيّة يهبه الخلود. وعلى الطالب أن يظلّ أعزب تمامًا، وأن يحترس باستمرار من السقوط في الدنس، أي في تدنيس الطقوس، وأن يخضع نفسه لكلّ أوامر المعلّم أثناء متابعته المقرّر الدراسيّ الذي قد يستغرق من البراهميّ اثنَي عشرة سنة أو أكثر، بعلامة انتهائيّة الاغتسال طبقًا للشعائر، وعندئذ يتوقّع أن يتزوّج الآرّي في الحال.

لم تكن العزوبيّة طوال الحياة تلعب أيّ دور في التصوّرات الدينيّة الآريّة المبكّرة، بل إنّها في الواقع كانت بغيضة عندهم، فالسماح بالعزوبيّة يعني تدمير عبادة الأسلاف، كما أنّ إنكار طعامهم، قد يجعل الآباء يصبّون انتقامهم على الأحياء. وهكذا نجدهم في زمن متأخّر، عندما انتشر مذهب النسك والزهد ولاقى استحسانًا وقبولاً من الأفكار الدينيّة الآريّة، قد عبَّروا عن تصوّرهم لدورة الحياة كسلسلة مؤلّفة من أربع مراحل: الطالب، وربّ الأسرة، وناسك الغابة، والناسك المتجوّل. والمرحلتان الأولى والثانية فقط إلزاميّتان لكلّ الذين وُلدوا ولادة ثانية، وذلك نوع من التوفيق بين نمطَين متصارعَين من أنماط الحياة. ولقد رأوا في ما بعد أنّ الناس تولد وهي مدينة بثلاثة ديون: دين للآلهة، ودين للآباء، ودين للحكماء. وهي ديون لا بدّ لهم من سدادها قبل أن يهجروا العالم من أجل الزهد والتنسّك، وتُوفى هذه الديون بتلاوة الفيدا، وإنجاب الإبن، وتقديم الأضحية. وهكذا يستطيع المرء نظريًّا على الأقلّ، أن يصبح ناسكًا بعد أن يكون قد تزوّج وأصبح ربّ أسرة[١].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص١٦٥ ـ ١٦٧.

وليس الزواج ضرورة مقتصرة على عبادة الأسلاف، بحيث ينبغي على الرجل أن يتزوّج لينجب ابنًا يواصل العبادة ويقدّم "البندا" لكي تستريح روح أبيه، وإنّما الزواج ضرورة مطلوبة لذاتها أيضًا، فليس ثمّة ما يبرّر الاعتقاد بأنّ الرجل المتزوّج هو وحده القادر على تقديم "شرذا" أي "قرابين الطعام" للأسلاف، وعندما يصبح أرملاً فإنّه يتخلّى لابنه عن رئاسة الأسرة، وعن القيام بدور الكاهن المسؤول عن نارها المقدّسة ويقرّر التقاعد. على أنّ الزواج لم يكن يترك لأهواء الفرد اختيار مَن يشاء، فهو لا يستطيع أن يتزوّج كيفما اتّفق، لأنّ الزوجة الكفء المساوية له في المولد، والمتحدّرة من أسرة آريّة أتمّت عمليّة الترسيم وغيرها من الطقوس، هي وحدها القادرة على ممارسة الطقوس المنزليّة دون أن تدنّسها، وهي وحدها القادرة على إنجاب الابن الطاهر النقيّ المؤهّل لمواصلة عبادة الأسلاف بعد والده، وفضلاً عن ذلك فعلى العريس المنتظر أن يبحث عن عروس ليست قريبة له، لا من ناحية أبيه ولا من ناحية أمّه، أي عروسًا لم تقدّم أسرتها "البندا" أو قرابين الماء لأيٍّ من الأسلاف، ومن ثمّ فلا بدّ أن تكونّ العروس غريبة عنه، ولكن ينبغي كذلك أن تدخل في أسرة العريس عن طريق الترسيم، لكي تشارك الأسرة في دينها، ولتنجب لها ابنًا ومن ثمّ تكفّ عن أن تكون عضوًا من أسرتها الأصليّة.

حفل الزواج يرمز إلى هذا التصوّر للزواج، على أنّه هبة أو أمر مقدّس، أو ترسيم. وينتقل العريس وصحبه في موكب إلى العروس حيث يستقبلهم والدها مرحّبًا، ويجلس العروسان في سرادق على جانبَيه ستارة صغيرة، ثمّ تُفتح هذه الستارة بمصاحبة العبارات المقدّسة التي يتمتم بها الكاهن الذي يتولّى مراسيم الزواج. عندئذ يقدّم والد العروس، رسميًّا، ابنته للعريس، ويقوم العروسان متشابكَي الأيدي بتقديم حبّات من القمح للنار المقدّسة، ثمّ يطوفان حول النار وأطراف ردائيهما معقودة،

ويخطوان معًا سبع خطوات، ثمّ يُرشّ عليهما من الماء المقدّس، ويؤدّى المزيد من الطقوس عندما يعود موكب الزوجَين إلى بيت العريس، وبذلك يكتمل الزواج[1].

إنّ النظريّة الخاصّة بالـ"شراذا SHRADHA" هي أن يقدّم الأحياء الطعام إلى الأسلاف الذين يقطنون "عالم الآباء"، وذلك بأن يقدّموا لهم قرابين من كرات الأرز والماء، بينما يضفي الأسلاف النعم على أحفادهم الأحياء بمنحهم إيّاهم النجاح والازدهار والذريّة وما شابه ذلك. وهكذا تكون "شراذا" هذه هي همزة الوصل بين الأحياء والأموات، وهي التعبير عن التعاون المتبادل بينهم. غير أنّ هذه العلاقة يمكن أن تنقلب رأسًا على عقب إذا لم تؤدّ الطقوس الجنائزيّة المناسبة للميت، فما لم تستقرّ أرواح الموتى في عالم الآباء، تظلّ عرضة لأن تصبّ البلاء على رؤوس نسلها الذين لم يقوموا بإطعامها عن طريق القرابين أو ضمان انتقالها إلى عالمها المناسب. وهكذا تُحمَل الجثّة، بعد الوفاة بقليل، إلى أرض المحرقة في موكب من الأقارب يتقدّمه الإبن الأكبر الذي يسير على رأس المحزونين ويخلف المرحوم كربّ للبيت، وتُحرق الجثّة بينما يطوف أهل الميت حول المحرقة، لا في اتّجاه عقارب الساعة الذي يبشّر بالسعادة وإنّما في عكس اتّجاه سيرها. وبعد ذلك يغتسلون ويعودون إلى البيت في موكب يتقدّمه هذه المرّة أصغر الأبناء سنًّا. وفي اليوم الثالث من حرق الجثّة تُلقى العظام في النهر، ويفضّل أن يكون "نهر الغانج" حيث لا يزال يوجد على ضفّتَيه أدراج الـ"غاط GHAT" التي يهبط عليه إلى النهر منذ آلاف السنين. ولمدّة عشرة أيّام يواصلون سكب الماء وتقديم القرابين من كرات الأرزّ وقوارير اللبن للمرحوم، وفي هذا الوقت أو بعد تمام السنة يتمّ القيام بما يُسمّى بالـ"سبندكرانا SAPINDIKARANA" التي تجعل الميت يتناول

1 - بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص١٦٧ - ١٦٨.

"البندا" أي أقراص الأرزّ مع أسلافه أو أسلافها فيما يُسمّى "الشرذا" كلّ شهر، وهم يعتقدون أنّ الروح تكتسب بذلك بدنًا رقيقًا يمكّنها من القيام بالرحلة إلى "عالم الآباء"، أو يمكّنها، طبقًا لأفكار لاحقة، من الميلاد من جديد. ولا ينضمّ المرء إلى هذه الديانة المحليّة بحكم الميلاد وحده، وإن كان كلّ الموتى الآريّين مرشّحين للعبادة ولدخول عالم الآباء، فعندما يكون الميت طفلاً صغيرًا أو فتاة غير متزوّجة، أو ناسكًا، فإنّ الجثة في هذه الحالة تُدفن، أو تُلقى في النهر، ولكنّها لا تُحرق ولا تُقدّم لها قرابين. فالشرط الأساسيّ هو الدخول في الآريّة الكاملة عن طريق الترسيم، ويتمّ ذلك بالنسبة للصبيّ بأن يُمنح الخيط المقدّس أو "المنترا MENTRA"، أمّا بالنسبة للفتاة فيتمّ عن طريق الزواج، وأمّا الناسك فيُنظر إليه على أنّه أصبح ميتًا بالنسبة لعالم ربّ البيت ولدينه، وهكذا يُنظر إلى الترسيم أو دخول "العضو في الجماعة" على أنّه ميلاد جديد بالنسبة للحياة الدينيّة، حتّى أنّ الطبقات العليا التي ترتدي الخيط المقدّس يُطلق على أفرادها لقب "المولودين مرتّين"[1].

ورث الهندوس ممارسة شعائر دينيّة شعبيّة يحتفظون بها في أقاليمهم، تجمع عناصر متنافرة من فكر منهجيّ. ففي القرية الواحدة تقوم هياكل يخدمها كهنة، جنبًا إلى جنب مع مزارات شعبيّة يصلّي الناس أمامها دونما استعانة برجال الدين. أمّا موقف رجال الدين فهو، على تسامحه، قلق من هذه الممارسات. وربّما كانت عامّة الهندوس تؤمن بالتعدّديّة، فالمؤمن العاديّ، على رغم إجلاله إلهًا واحدًا ووضع صورته في المنزل، له عدد هائل من الآلهة التي يجلّها كلّها ككائنات فائقة للطبيعة. وهو يتنقّل من مزار إلى مزار حيث كلّ إله مختصّ بتلبية حاجة معيّنة[2].

---

١ - بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص١٦٤ - ١٦٥.

٢ - صعب، الأديان الحيّة، ص ٣٨.

وتحصل العبادة الهندوسيّة في المنزل أو في المعبد أو في أيّ مكان آخر، حيث يصلّي الكاهن أو أحد أفراد العائلة أمام صورة مقدَّسة للإله. وفي المعابد يصلّي الكهنة على نيّة الجميع يوميًّا. أمّا الاحتفالات العامّة فتجرى في المعبد أو في الخلاء، ويستغرق بعضها ساعة أو ساعات، ويمتدّ بعضها إلى عدّة أيّام، وبعضها يتّصل بمواسم زراعيّة أو فيضان أنهر أو هطول الأمطار، وبعضها يتّصل بالمعبود نفسه، كذكرى مولده. وبعض المعبودات له شهرة واسعة تجلب له الحجّاجَ في أثناء الاحتفال به من أقاصي شبه الجزيرة، وبعضها يُحتفل به احتفالاً محليًّا أي في القرية أو في مجموعة القرى المتجاورة فقط، وهكذا[1]. وهناك ملايين الهنود الذي يحجّون إلى الأماكن المقدَّسة. وهي كثيرة جدًّا، وقد ازدادت عددًا على مرّ السنين. ويمكن أن يستمدّ المعبد قداسته من المكان الذي يُقام فيه، أو يغدق قداسة على المكان. ولدى الهنود الكثير من الأماكن المقدَّسة المرتبطة عمومًا بمعجزات ولّدت قصصًا لدى الناس من جيل إلى جيل. لكنّ معظم هذه الأماكن قامت على ضفاف الأنهار. وقد نظر الهندوس إلى مجاري المياه عندهم، من منابعها حتّى مصابّها، نظرة تقديس، وأنشأوا عليها قصصًا حول زيارة أحد الآلهة لها وتكريسها. ومن الأعمال التي يُثاب عليها الإنسان قطعه ضفاف الأنهار ووقوفه عند كلّ بقعة مقدَّسة وقراءة القصص المتعلّقة بها. وأقدس الأنهار جميعًا نهر الغانج. ويُقال إنّه ينبع عند قدمَي "فشنو"، الإله الحافظ وناصر الخير على الشرّ، في السماء. ويُعتقد أنّ هذا الإله يأتي إلى الأرض كلّما احتاج الناس إليه، راكبًا طائر "الغارودا"، وأنّه انحدر تسع مرّات وما يزال له انحدار عاشر، يأتي فيه ممتطيًا جوادًا أبيض وحاملاً سيفًا من لهب. وسوف يأتي ليخلّص الأبرار

---

١ - شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٥٥.

ويُهلك الأشرار، وذلك في نهاية الدورة الرابعة عشرة من عمر الأرض[1].

ويصف كتاب HINDUISM بشكل رائع الاحتفال بالمعبودات الهنديّة، ويتّضح من هذا الوصف أنّ من أهمّ الشعائر الدينيّة أن يُعَدَّ التمثال أحسن إعداد، وأن يُقام في المعبد، ويعامله عبّاده كأنّه حيّ يسمع ويعي؛ يدهنونه بالزيوت، ويضمّخونه بالطيب، ويُحتفى بالإله الجديد الذي يدخل المعبد لأوّل مرّة احتفاء واسعًا، يتّجه الكلّ بالترحيب به، وحسن استقباله، كأنّه ضيف عظيم، يُغسل بالعطور، ويُكسى بأحسن اللباس، ويزيَّن بالجوهر واللؤلؤ، ويوضع أمامه أحسن طعام وأشهى شراب، ويُحاط بالزهر والريحان، وتطوف به الجماعة منحنية ضارعة، على أنغام الموسيقى، ودخان البخور، وأصوات الغناء. وجاء في هذا الكتاب أنّ بعض الهنود يرون في التمثال إلههم، ويراه آخرون رمزًا للإله. ويخضع العابد إلى شعائر دقيقة لتُقبَل توسّلاته وعبادته؛ فهو يبدأ بأن ينظّف نفسه، ويقلّل من الطعام أو يصوم، ويتّخذ أمام إلهه جلسة خاصّة، ويشير إليه بإصبعه في خضوع، ويحبس أنفاسه ما أمكن، وهذه الصلاة تتكرّ ثلاث مرّات في اليوم ويصحبها قربان من أيّ نوع، ولا يطول وقتها في العادة إلاّ بالنسبة لهؤلاء الذين لهم مطلب يرجون عون الآلهة لتحقيقه، أو أولئك الذين يميلون للنسك ويريدون مزيدًا من التقرّب بالآلهة، فأمثال هؤلاء يقدّمون قرابين أكبر، وتطول صلاتهم أمام الآلهة[2].

أمّا "اليوغا YOGA"، فقد ورد اسمها لأوّل مرّة في كتاب الأوبانيشاد، ثمّ عرفت تطوّرًا هائلاً على يد "باتانجالي PATANJALI" في القرن الثاني للميلاد. وتقوم طريقته على خطوات، أوّلها قتل شهوات النفس، ثمّ المثابرة على النظافة الجسديّة والهدوء

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، نشؤوها وتطوّرها، ص ٣٨ ـ ٣٩.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٥٤ ـ ٥٥، نقلاً عن: HINDUISM, PP. 15 - 16.

والصلاة والدرس، والجلوس في وضع معيّن مع التنفّس المنتظم، وإشاحة النظر عن المحسوسات والتركيز على فكرة واحدة إلى حدّ الاقتراب من اللاوعي، بعد ذلك يكون العقل قد فرغ من كلّ محتوى، فينجذب إلى المطلق ويتّحد معه. هكذا تكون نتيجة اليوغا تحرير النفس من العالم الخارجيّ والسببيّة الطبيعيّة والقيود الأرضيّة. والعالم الظاهر بنظر اليوغا وهم "MAYA"، ومعرفته جهل. والمعرفة الصحيحة هي معرفة الجوهر أو المطلق، وهذه لا تتمّ إلاّ عندما يكتشف المرء أنّ الأفراد، من نفوس وأشياء، هي تجلّيات للمطلق. وهناك ممارسون لليوغا قالوا إنّ الخطوة الأخيرة تُكسبهم قوّة خارقة، مثل الارتفاع عن الأرض، وتجاوز حدود الزمان والمكان، والوجود في أمكنة عدّة في قت واحد[١].

رِجَال الدِّين

هناك نظرة تقديس إلى رجال الدين في الهندوسيّة. فالبراهميّ يقوم مقام ربّ الخلائق، وهو أرفع الناس على هذه الأرض. ويجب إجلاله مهما كانت تصرّفاته. ولئن لم تجد هذه النظرة ترجمتها العمليّة على الدوام، إلاّ أنّ كلّ هندوسيّ يتمنّى أن يولد براهميًّا في الحياة الثانية. وأرفع البراهميّين مقامًا جماعة ال"غورو GURU"، أي طبقة المعلِّمين. وفي منزل كلّ غنيٍّ غورو يعلِّم أفراد عائلته أصول الإيمان والحياة الصالحة. وربّما خدم الغورو الواحد أكثر من عائلة. وهناك طبقة الـ"قدّيسين BHAKTI" الذين يقتعد بعضهم المعابد، ويسير بعضهم الأخر في الشارع نصف عارٍ، ويركض

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ٤٢.

الناس وراءهم جامعين غبار أقدامهم. وبعضهم ينام على أسرّة من مسامير لإهانة الجسد وتجاوزه والتركيز على الروحانيّات. وقد نشأت هذه الطبقة في القرن الثالث عشر، وتأثّرت بالأديان التوحيديّة. وخلّفت أناشيد صوفيّة كثيرة تعكس حرارة إيمانها. وظلّت هذه الظاهرة بارزة حتّى القرن التاسع عشر الذي شهد نشوء نوع من الليبراليّة في الفكر الهندوسيّ[1].

الهندوسيَّة

في القَرنِ الأخير

ظلّت الهندوسيّة ديانة قوميّة لم تعمّ العالم، إلاّ أنّها تميّزت إجمالاً بالتسامح وحملت في نفسها عنصر الدين الشامل، ولكن ظهر فيها حركات متعصّبة، منها "منظّمة الخدمة القوميّة" التي دعا أعضاؤها إلى جعل الهندوسيّة دين الدولة وجعل الهند دولة هندوسيّة، وقد قُتل غاندي عام ١٩٤٨ على يد مسلّح من هذه المنظّمة. ولكن في الطرف الآخر، نشأت في الهندوسيّة خلال القرن الأخير حركات إصلاحيّة ليبراليّة أحدثت أثرًا كبيرًا في الهند. ولم يقتصر الأثر على الجانب العقائديّ الذي تجلّى في اكتشاف جوهر أو معنى روحيّ واحد في كلّ الأديان، لكنّه ظهر في المجتمع أيضًا، فضعفت حدّة التمييز الطبقيّ، وأُلغي زواج الأطفال بقانون حكوميّ صدر عام ١٩٣٠، لا بل قرّب بعض هذه الحركات الهندوسيّة من أديان التوحيد. أمّا أبرز الحركات الحديثة في الهندوسيّة فهي[2]:

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ٤٠.

٢ ـ اقتبسنا المعلومات عن هذه الحركات عن كتاب: صعب، الأديان الحيّة، ص٤٠ ـ ٤٢.

ـ حركة "آريا ARYA SAMAJ": نادت هذه الحركة بالعودة إلى الكتابات المقدّسة الأولى، أي الفيدا. وارتكزت إلى العنصر القوميّ وقاومت الغزو المسيحيّ والغربيّ، على نقيض حركة براهمو. وقد أسّسها عام ١٨٧٥ دايانَند سارَسفاتي (١٨٢٤ ـ ١٨٨٣) وهو رجل دين ثارَ في حداثته على عبادة شيفا، إله الانحلال والموت، ثمّ تنسّك وأشبع نفسه بقراءة الأوبانيشاد. وما لبث أن اقتنع بأنّ ديانة الفيدا هي الأصفى والأنقى، لأنّها غير ملوّثة بعبادة الأوثان وغير متعلّقة بالقبليّة. وعلّم بين الناس أنّ الفيدا وحي اللّه المباشر، وأنّها لا تقول بالتعدّديّة ولا بوحدة الوجود. ووجد فيها كلّ الفكر الماضي وبذار كلّ فكر آتٍ، ورأى أنّها تستبق نتائج العلوم العصريّة واكتشافاتها جميعًا. وهناك اليوم جناحان من هذه الحركة، واحد ليبراليّ والآخر محافظ. والإثنان يقومان بالأعمال التربويّة والخيريّة في شمال الهند، ويلقّنان العلوم الحديثة انطلاقًا من الفيدا.

ـ حركة "راماكريشنا": تدعو هذه الحركة إلى التسامح واحتواء الأفكار الأخرى. وقد أنشأها "قدّيس" هندوسيّ في القرن التاسع عشر، اسمه راماكريشنا (١٨٣٤ ـ ١٨٨٦)، وُلد في عائلة براهميّة في البنغال وأصبح كاهنًا في كالي بالقرب من كلكوتّا. ولم تُروِ نفسَه الممارساتُ الكهنوتيّة، بل تاق إلى خبرة دينيّة شخصيّة. وراح يمارس اليوغا، مركّزًا أفكاره على تمثال الإلهة كالي، الأمّ المقدّسة. وأوصله ذلك التركيز إلى حال من النشوة الروحيّة تكرّرت مرارًا وازدادت قوّة. وأدرك، منذ البداية، أنّ تلك كانت خبرة دينيّة أصيلة، أي خبرة في اتّجاه معرفة اللّه. واستمرّت خبرته اثنتَي عشرة سنة، أحسّ خلالها أنّه مارس كلّ الأديان، التي وجد فيها طرقًا مختلفة إلى اللّه، كما وجد في الخلائق جميعًا تجليّات للّه. ودعا إلى قبول جوهر التراث الدينيّ الغربيّ واحتوائه في الهندوسيّة. وفي السنوات الأخيرة من حياته تحلّقت حوله جماعة منظّمة

من التلاميذ، يقودها طالب حقوق شاب اسمه "سوامي فيفيكانندا SWAMI VIVEKANANDA" (١٨٦٢ ـ ١٩٠٢) وكان خطيبًا مفوّهًا ومدافعًا عنيدًا عن الفيدا. وخلف راماكريشنا ونشر حركته حول العالم، مؤسّسًا لها فروعًا في الهند وخارجها. وكان الناطق باسم الهندوسيّة في برلمان الأديان الذي عُقد في مدينة شيكاغو الأميركيّة عام ١٨٩٣، حيث أحدث أثرًا عظيمًا لدى المشاركين.

ـ حركة العلمانيّة: هذه الحركة تعني قبول العلم والتكنولوجيا العصريَّين ورفض الدين. وعلى رغم اعتداد معظم الهندوس بالروحانيّة الهنديّة، فقد شهد القرن الأخير نزوعًا قويًّا نحو الماديّة والعلمانيّة. ومن نتائج هذا النزوع إشاحة أعداد كبيرة من الهندوس عن الدين التقليديّ، وباتوا ينظرون إليه كمجموعة خرافات قائمة على نظرة قديمة إلى الحياة والكون والإنسان. وقد رموا الدين بالتشاؤميّة ورفض العالم. لكنّ العديد منهم ظلّ محافظًا على انتمائه الدينيّ الأسمى لدواعٍ عائليّة واجتماعيّة. ووجدت الأفكار الشيوعيّة والماركسيّة صدىً في أوساط الشباب الهندوس الذين رأوا أنّ الهند كان لها مقدار ضخم من الروحانيّة والدين، وأنّها تحتاج إلى الأفكار الماديّة لكي تلحق بالنهضة الحديثة.

ـ حركة "براهمو BRAHMO SAMAJ": نشأت هذه الحركة في كلكوتّا عام ١٨٢٨ على يد رجل هندوسيّ متوقّد الذكاء اسمه رام موهان روي (١٧٧٢ ـ ١٨٣٣) وهو تأثّر بما وجده إيجابيًّا في البوذيّة والزرادشتيّة والإسلام والمسيحيّة، إضافة إلى الهندوسيّة، ورأى فيها جوهرًا روحيًّا واحدًا. وجعل محور حركته الدينيّة ذلك الجوهر، وهو وحدانيّة اللّه وروحانيّته وشخصانيّته. والله خالق الكون وحافظه الذي لا يتبدّل. وقد رفض رام موهان روي كلّ أنواع التعدّديّة وعبادة الأوثان، داعيًا إلى تطهير الهندوسيّة من هذه العناصر. ورأى في تعاليم المسيح "مرشدًا إلى السعادة والسلام". وفي سعيه

إلى إيجاد دين شامل، تخلّى عن الكثير من عقائد ديانته التي لا تتّفق والجوهر الروحيّ الواحد في العقائد الأخرى، مثل عقيدة التناسخ والعقيدة القائلة بذوبان الروح الفرديّة في الروح الكليّ. وأحيا دعاة هذه الحركة طقوسهم من غير تماثيل وصور وذبائح. وللمرّة الأولى في تاريخ الهندوسيّة صار المؤمنون جميعًا يشاركون في الخدمة، فيرتّلون ويقرأون الكتب المقدّسة كما في البروتستانتيّة. وانضمّ إلى تلك الجمعيّة عدد كبير من أرستقراطيّي الهند، منهم جدّ الشاعر البنغاليّ رابندرانات طاغور وأبوه، اللذان أصبحا من قادتها. وفي العام ١٨٦٠ انشقّت الحركة على يد كيشاب تشاندرا سن (١٨٣٨ ـ ١٨٨٤) الذي دعا إلى إزالة العشائريّة والطبقيّة من الهندوسيّة وإلى الزواج المختلط. ثمّ انشقّت عن "سن" جماعة أخرى، فيما اقتربت تعاليمه هو أكثر فأكثر من المسيحيّة، وظُنّ أنّه يتبع رسالة المسيح على الأرض. إلاّ أنّ الجمعيّات الثلاث ما تزال تدعو إلى دين شامل، قائم على أبوّة اللّه والأخوّة بين البشر. وقد أنجبت هذه الحركة مفكّرًا وخطّيبًا بارزًا هو "سارفيبالي راداكريشنان" الذي قُيّض له أن يصير رئيس الهند ، وقد ترك مؤلّفات كثيرة تناولت الهندوسيّة في ذاتها وفي علاقتها بالأديان الأخرى، مع كتابات تقارن بين طرائق التفكير في الشرق والغرب. وقد وجد راداكريشنان في الهندوسيّة أعظم دين، وفي الصوفيّة لبّ الهندوسيّة.

بَينَ ظُهُورُ البُوذِيَّـة والجِينِيّة
ودُخولُ المسيحيَّة والإسلام

ضعفت الهندوسيّة عندما خرج "غوتاما بوذا" و"مهاويرا" بمذهبَيهما أو بدينَيهما: البوذيّة والجينيّة. ولكنّ الهندوسيّة سرعان ما نفضت الغبار وعادت إلى الحياة، وقضت على الانتصار الموقّت الذي تحقّق للبوذيّة[1] والجينيّة[2]، لكنّ الهندوسيّة ظهرت هذه المرّة في ثوب جديد نوعًا ما، بفضل "شرائع" أو "قوانين مانو" التي ظهرت في القرن الثالث والثاني قبل الميلاد، فنسّقت هذه الديانة وأكسبتها قوّة كانت من عوامل انتصارها على البوذيّة والجينيّة، وقد لانت فيها الآلهة بعد قسوة وعنف، وذلك بتأثير البوذيّة في هذا المجال. لكنّ شرائع "مانو" وجّهت عنايتها إلى الطقوس وتقديم القرابين أكثر من اهتمامها بالآلهة، ويُعتبر هذا تطوّرًا كبيرًا في الهندوسيّة التي كانت توجّه عناية كبيرة إلى الآلهة، فاتّجهت الآن إلى الطقوس والمظاهر، وكان من مظاهر هذا الإهمال أن اعتُبر الإله براهما ليس مستقلاً بل موزَّعًا في جميع المخلوقات أطيبها وأخبثها يشاطرها مصايرها وينال نصيبًا من آثامها وآلامها وبعثها وتحوّلها، وفي ذلك يقول "مانو": "تستقرّ الروح العليا في أرقى المخلوقات وأسفلها"[3].

وجاءت المسيحيّة، واضطرّ بعض المسيحيّين أن يهاجروا من الدولة الرومانيّة فاتّخذ بعضهم طريقه إلى الهند، ومنهم بعض النسطوريّين الذين نشروا دينهم عند قلّة من الهنود كانت الأساس الذي بنى عليه المبشّرون الغربيّون في ما بعد جهودهم لنشر المسيحيّة بوسائل التبشير الحديثة، ولكنّ نتائج التبشير المسيحيّ في الحالتَين كانت

---

١ ـ راجع: الجزء الخامس من هذه الموسوعة.

٢ ـ أنظر الفصل التالي من هذا الكتاب.

٣ ـ لوبون غوستاف، حضارة الهند، ص ٣٣٣؛ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١٠٠.

ضئيلة[1]. ثمّ جاء الإسلام، وكانت للعرب صلات وثيقة بالهند بدأت قبل الإسلام بعدّة قرون بسبب التجارة[2]. وعن هذا الطريق كانت هجرة بعض العرب والفرس المسلمين إلى الشمال الغربيّ للهند، ثمّ عن طريق الفتوح العربيّة والأفغانيّة والتركيّة والمغوليّة، ولسهولة الإسلام ويُسر تعاليمه، إنتشر الإسلام انتشارًا واسعًا وسريعًا في الهند، فأصبح يعتنقه ما يزيد عن مائة مليون نسمة. وبالإضافة إلى هذا الانتشار وكسب الأتباع أثّر الإسلام في الهندوسيّة، فتكوّن من اتّصال الحضارة الإسلاميّة والفكر الإسلاميّ بالحضارة الهندوسيّة والفكر الهندوسيّ، حضارة جديدة يسمّيها غوستاف لوبون[3] "الحضارة الهنديّة الإسلاميّة". فكما أثّر الإسلام في الهندوسيّة، نرى المسلمين الهنود تأثّروا بالهندوسيّة، ويمكن القول إنّ عامّتهم انحرفوا بالإسلام فجعلوه إسلامًا فيه اتّجاهات هندوسيّة، ويُعدّ من الانحراف بعض اتّجاهات الإسماعيليّة وبعض اتّجاهات الأحمديّة واتّجاهات أتباع معين الدين شيستي[4]. غير أنّ انحراف مسلمي الهند الذي أورده غوستاف لوبون ينطبق فقط على بعض العامّة، أمّا مثقّفو الهند فيتبعون الدين الإسلاميّ القويم[5].

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٠٠ ـ ١٠١.

٢ ـ شلبي د. أحمد، تجارة العرب مع الهند والصين، موسوعة التاريخ الإسلاميّ، والحضارة الإسلاميّة، ط ١٠، ١: ١٢٨ وما بعدها.

٣ ـ لوبون غوستاف، حضارة الهند، ص ٤١٧.

٤ ـ شلبي، المجتمع الإسلاميّ، ط٦، ص ٣١٩.

٥ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٠٤.

الفَصلُ الثَّاني

الجينيَّة

تَعريفٌ بالجينيَّة؛

ولادةَ مهَاويرا ونَشأتــه؛ تنسُّك مهَاويرا ثـمَّ ترهُّبه؛

المؤسَّسة الجينيَّة؛ العقَائد الجينيَّة؛ الجينيَّة ومعتقدُها حَول الآلهة والشيَاطين؛

الكَارما والتناسُخ؛ العُري في الجينيَّة؛ الإنتحار في الجينيَّة؛

قوَانين جينيَّة للخَاصَّة والعامَّة؛ درجَات العَلم؛ التُراثُ المدوَّن

تعريف بالجينيّة

إستمدّت الجينيّة جذورها من الـ"شرامان SHARMANAS" أي "المعلّمين الدينيّين القدامى" الذين يتميّزون عن البراهمة لعقيدتهم في الخلاص عن طريق الزهد والإلحاد. وهي أساسًا ديانة هنديّة تتميّز باعتناق الفكرتَين التوأم: فكرة تناسخ الأرواح، وتحرير الروح، لكنّها رغم ذلك تبقى غريبة عن الهندوسيّة برفضها لتنظيمات البراهمة الخاصّة بنظام الطبقات المغلقة، ونظام القرابين، وهي بذلك ترتبط مع البوذيّة بوشائج قربى، ولا سيّما مع مدرسة "ترافادا THERAVDA" التي شاركتها أيضًا أيّامها الأولى في منطقة وادي نهر الغانج، وفي لغة منطقة "ماغاذا MAGADHEN" التي وضعت بها كتبها الأصليّة المقدّسة في معارضة اللغة السنسكريتيّة، لكن على حين أنّ البوذيّة طُمِسَت معالمها من الأرض الأمّ، رغم انتشارها المدهش خارج الهند، فإنّ الجينية التي لم يبقَ فيها سوى أقليّة ضئيلة مبعثرة لا تزيد على ثلاثة أو أربعة ملايين من الأتباع[1]، ما زالت تحافظ على بقائها، وتواصل التأثير في الحياة الإجتماعيّة والثقافيّة للهند الحديثة.

لقد عُرف الجينيّون في العصور القديمة باسم "تغانتا NIGANTHAS"، أي: المستقلّون عن كلّ ارتباط، أمّا اسم "الجينية" فقد استمدّوه من اللغة السنسكريتيّة من "كلمة JIINA"، وهي صفة معناها: القاهر أو المتغلّب أو المنتصر، وهو وصف أطلقوه

---

١ ـ إختلف الباحثون بصدد عدد أتباع الجينيّة؛ راجع نهاية هذا الفصل تحت عنوان: الجينيّة اليوم.

على معلّميهم العظام الذين عُرفوا بقهر شهواتهم والتغلّب أو الانتصار على رغباتهم، وهم يسمّون أيضًا باسم "تيرتانكارا TIRTHANKARA" أي "صانعي المخاوض"، وهي درجة من درجات العلم تسمّى بالدرجة الخاصّة، وهي درجة العلم المطلق، ويوصف صاحبها بأنّه "مرشد" الأرواح إلى طريق الخلاص، وهو الذي يَعْبُر بها نهر التناسخ. ويعتقد الجينيّون أنّ الكون الذي لا بداية له ولا نهاية، يمرّ بعدد لا متناه من الدورات الكونيّة، تنقسم كلّ منها إلى مرحلتَين متعاقبتَين من الصعود والهبوط، يتمَّ خلالهما صعود تدريجيّ للحضارة البشريّة، وفي كلّ مرحلة من هاتَين المرحلتَين يظهر أربعة وعشرون من صانعي المخاوض الذين لا يصلون إلى مرحلة تحرير أنفسهم فحسب، بل يدلّون غيرهم من الناس كذلك على طريق الخلاص، وكان "ريشابها RISHABHA" أوّل الأربعة والعشرين من صانعي المخاوض في "عصرنا الحاضر"، عصر الإنهيار والسقوط. ولمّا كان "ريشابها" أوّل مشرّع للقانون، فإنّه يُسمّى كذلك "ADI-NATA" أي السيّد الأول. ولم يحفظ لنا التراث عنه وعن خلفائه سوى قصص أسطوريّة، لكنّ آخر ثلاثة منهم عُرفوا معرفة جيّدة في تاريخ الهند القديمة، فالـ"جينا JINA" الثاني والعشرون الذي يُسمّى NEMI هو ابن عم كرشنا في حرب "المهاربهاراتا". وكان خليفة نيمي هو المنتصر "بارشفا PARSHVA" من "بنارس BENARES" الذي ازدهر حوالي عام (٨٥٠ ق.م). وآخر "صانعي المخاوض" وأعظم معلّمي الجينيّة في الدورة الزمنيّة التي نعيش فيها هو "فارذامانا مهافيرا VARDHAMANA MAHAVIRA" (٥٩٩ ـ ٥٢٧ ق.م. أو ٥٤٠ ـ ٤٦٨ ق.م)، وكان معاصرًا لبوذا[1].

إعتبر باحثون أنّ القرن السادس قبل الميلاد، هو من أجدر عصور التاريخ بالملاحظة، من حيث التطوّر الفكري والدينيّ عمومًا. ففي كلّ مكان كانت عقول الناس

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص٢٢١ ـ ٢٢٢.

تُظهر جرأة جديدة، وفي كلّ مكان كان الناس يستيقظون ممّا توارثوه من تقاليد الأباطرة والكهّان والقرابين، ويسألون أشدّ الأسئلة تعمّقًا ونفاذًا، وكأنّما الجنس البشريّ قد بلغ مرحلة من الرشد بعد طفولة دامت عشرين ألف سنة. ففي هذا القرن ظهر في الهند مهاويرا معلّم الجينيّة، وظهر غوتاما مؤسّس البوذيّة، وظهر بالصين كونفوشيوس المربّي العظيم، وفي إيران ظهر زرادشت، وبين بني إسرائيل قام إشعيا وغيره من المعلّمين، وفي بلاد الإغريق ارتفع صوت بيتاغوراس، وفي مدينة إفيسس تجلّى هيراقليتوس يواصل تأمّلاته وأبحاثه الفكريّة في طبيعة الأشياء. وهكذا هبّت موجة فكريّة تجاوبت أصداؤها في كلّ مكان[1]. من دون أن يدري أحد شيئًا عن السرّ الكامن في هذا القرن وسبب استئثاره بكلّ هؤلاء العمالقة[2].

ومن بين ألوان النشاط الفكريّ الذي انبثق في القرن السادس قبل الميلاد، كان ظهور مهاويرا وبوذا بالهند. ويلاحظ أنّ أفكار هذَين المعلّمَين، بل أفكار جميع المصلحين والفلاسفة الهنود، قد دارت في الفلك الهنديّ ولم تتجاوزه، فالجميع يرون أنّ الحياة الدنيا تعاسة، والعيش فيها ويل، والتغيّر والزوال أساس الحسرات وأصل الآلام، والجميع يقولون بتكرار المولد، وبالزهد وسيلة للنجاة. وإذا شذّ أيّ مفكّر هنديّ عن هذا الإطار، "ضاع صوته دون غناء". وبسبب هذا التشابه اختلط أمر الجينيّة على البعض فعدّها نوعًا من البوذيّة[3]، وبسبب ذلك أيضًا، لم تستطع البوذيّة الصمود في معركتها ضدّ الهندوسيّة حول موضوع الطبقات، وغادرت البوذيّة وطنها ثمنًا لهذا الخلاف،

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١١١؛ مجلّة ثقافة الهند، عدد آذار ـ مارس) ١٩٥٠، ص ١٧؛ WELLS, *A SHORT HISTORY OF THE WORLD*, P. 121.

٢ ـ السعدي، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، موسوعة هكذا نفهم مذهب التوحيد، ص٤٠.

٣ ـ راجع: لوبون غوستاف، حضارة الهند، ص٦٢٢.

ودخل نظـام الطبقـات إلـى البوذيّـة بشـكل عملـيّ وإن أنكرتـه نظريًّـا، أمّـا الجينيّـة فقد اضطـرّت، بعـد فشـل مقاومتهـا إلـى العـودة لقبـول نظـام الطبقـات بشـكل مـا، فقـرّرت الاعتراف بالبراهمة ورسمت إجلالهم، وبذلك استطاعت البقاء في الهند[1].

فقد وضع البراهمة نظام الطبقات، وخصّوا أنفسهم بكثير من الامتيازات. وفي ظلّ هذا النظـام اسـتبدّ البراهمـة وظهـر عسـفهم وطغيـانهم أحيانًـا، وضـجّ النـاس مـن هـذا الاستبداد والجور وتمنّوا ظهور قائد روحيّ جديد يخلّصهم من ظلم البراهمة وطغيانهم؛ وإذا كان هناك سخط من قبـل كـلّ الطبقـات ضـدّ اسـتبداد البراهمـة، فقـد كـانت طـائفـة الـ"كشتريا" أكثر الطوائف إحساسًا بهذا الظلم لشدّة ما بين الطائفتَين مـن تنـافس كنتيجـة لقـرب المسـافة بينهمـا، ثـمّ كـانوا، لقوّتهـم، المسـؤولين عـن مقاومـة طغيـان البراهمـة وجبروتهم، وهكذا دبّ في نفوس أبناء الكشتريا إحساس بضرورة الثـورة، وقـوي هـذا الإحساس على مرّ الزمن، حتّـى جـاء القـرن السـادس، فـإذا بالإحسـاس يصبـح واقعًـا. فهبّت ثورتان كبيرتان في وجه الهندوسيّة، قاد مهـاويرا إحديَهمـا فكـانت الجينيّـة، وقـاد غوتاما ثانيتهما فكانت البوذيّة[2].

ولادَة مَهَاويرَا ونَشأتُـــــــه

يتحدّر "مهاويرا" من أسـرة مـن طبقـة الــ "كشـتريا" التـي تختـصّ بـأمور السياسـة والحرب، وكانت أسرته تقيم في "بيساره" بالقرب من المدينة المسمّاة الآن "بتنا" بولايـة

---

١ ـ لوبون، حضارة الهند، ص٦٢٢ ـ ٦٢٣.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١١٣؛ حول البوذيّة راجع الجزء الخامس من هذه الموسوعة.

"بيهار"[1]، وقد وُلد في منطقة "فيسالي" التي كانت عاصمة مملكة "موجادة" بشمالي الهند، وهي مقاطعة "بيهار" اليوم[2]، وكان أبوه "سدهارتها" عضوًا في المجلس الذي يحكم المدينة أو قطاع المحاربين فيها، وتزوّج سدهارتها بنت رئيس هذا المجلس واسمها "تريسالا"، وارتقت مكانة "سدهارتها" حتّى وصفته بعض الروايات بأنّه كان أمير المدينة أو ملكها، وكان مهاويرا الإبن الثاني لوالدَيه، ولذلك آلت الإمارة إلى أخيه عقب وفاة الأب. وقد كانت ولادة مهاويرا سنة ٥٩٩ قبل الميلاد. ووفاته سنة ٥٢٧؛ وفي اليوم الثاني عشر لولادته اجتمع أعضاء الأسرة في حفل كبير، ودُعيت عمّة الطفل لتختار له اسمًا كالعادة، غير أنّ والدَيه ذكرا أنّ الأسرة نعمت بالرخاء والخير منذ حملت به أمّه، واقترحا لذلك أن يُسمّى "فيردهاماتا"[3]، والإسم يعني "الزيادة" و"المزيد"، فقد زادت، منذ يوم مولده، ثروة عائلته سواء في الذهب أو الفضّة أو القمح أو الجواهر أو الياقوت[4]... ولكنّ أتباعه يدعونه "مهاويرا"، مدّعين أنّه الإسم الذي اختارته له الآلهة ومعناه "البطل العظيم" أو "الرجل العظيم"، ويُدعى كذلك "جينا" أي "القاهر" و"المتغلّب"، وبهذا الوصف سُمّيت الفرقة التي اتّبعت تعاليمه وسُمّيت الديانة الجينيّة لأنّ مؤسّسيها عُرفوا بقهر شهواتهم والتغلّب على رغباتهم الماديّة[5].

وهناك رواية حول نبوّة ولادة "فيردهاماتا" أو "مهاويرا" أو "جينا" تقول إنّ الملكة "تريسالا" كانت ترقد في القصر، وإذ بها ترى عدّة أحلام متتابعة، حتّى بلغت في تلك

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١١٣.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٤٢.

٣ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١١٣ ـ ١١٤.

٤ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٤٣.

٥ ـ BERRY, *RELIGIONS OF THE WORLD*, P. 41.

الليلة خمسة عشر حلمًا، وكان ما رأته في خلال أحلامها أشياء غريبة لم تفكّر فيها من قبل قطّ. فقد رأت في حلمها الأوّل فيلاً أبيض، وفي الثاني ثورًا أبيض، وفي الثالث أسدًا أبيض يستلقي على الأرض، وفي الرابع رأت الإلهة "سري" ربّة الثراء. وتتابعت بعد ذلك الرؤى، فقد استنشقت عبير زهور "ماندرا" المقدّسة، ثمّ رأت البدر كاملاً يُرسل أشعّته الفضيّة لتغمر كلّ وجه في العالم، ثمّ شهدت الشمس ساطعة مضيئة ولكن في لون قرمزيّ. وبعدها رأت سمكتَين هما رمزا السعادة. ثمّ جرّتَين مليئتَين بالماء المقدَّس، ثمّ بحيرة مليئة بزهور اللوتس، يليها محيط مليء باللبن. ووجدت "تريسالا" نفسها في الحلم الثاني عشر تعيش في قصر سماويّ ومن حولها ملكات الموسيقى. وعندما جاء الحلم الثالث عشر رأت زهريّة ضخمة مليئة بالأحجار الكريمة، حجمها بحجم الجبل، وملأت عينيها بعدها شعلة مضيئة رائعة تبهر البصر. ثمّ كان الحلم الأخير، حيث وجدت "تريسالا" نفسها وأمامها عرش رائع مرصَّع بالماس والياقوت، ومن فوقه جلس ملك لم تستطع أن تبصره جيّدًا، ولكنّه كان يحكم من فوق العرش كلّ مكان في العالم الأرضيّ. وفزعت الملكة من كلّ ما رأته في أحلامها، فأخبرت الملك الذي دعا الحكماء الذين أعلنوا جميعًا أنّ كلّ هذه العلامات تنبئ بمولد واحد من اثنَين: إمّا حاكم وإمّا قدّيس. وفرح الملك لكنّه لم يفعل شيئًا عندما جاء المولود كما فعل أبو بوذا من قبل، عندما حرَم ولده من مغادرة القصر حتّى لا يرى مآسي الحياة. بل إنّ ملك موغادة قرّر أن يدع ولده وشأنه وألاّ يتدخّل في المصير الذي كُتب له[1].

نشأ "فيرادامانا" في بيته المجيد، وسط الرخاء وطيب العيش، في رعاية خمس مربّيات[2]، وراح يكبر ويتدرّب على أيدي معلّمين مهرة، يعلّمه أحدهم استخدام القوس

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٤٤ ـ ١٤٥.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١١٣.

والسهم، ويعلّمه آخر كيف يسيطر على الجياد الجامحة، بينما يعلّمه ثالث الطريقة التي يستطيع بها أن يسوس الفيلة[1]. وكانت أسرته تستقبل من حين لآخر وفود الرهبان وجماعات النسّاك حيث يجدون في دار الأمير إقامة طيّبة وحسن ترحيب، وكان "فيرادامانا" منذ نعومة أظفاره يحبّ مجالستهم ويستمع إلى حكَمهم وإرشاداتهم، وتأثّر مهاويرا بهم وبفلسفاتهم، فعزف عن المتع والملاذّ الدنيويّة، ومال إلى الرهبانيّة والتبتّل والزهد، ولكنّ الظروف لم تكن تسمح له بالتعمّق في الرهبانيّة والخوض في الزهد نظرًا لمكانة أسرته التي كانت ترعى شؤون السياسة والنضال، وتعيش في الترف والبذخ[2]. وذات يوم، كان الأمير "فيرادامانا" يلعب في حدائق القصر مع أبناء وزراء أبيه، وكان مستغرقًا في اللعب مع رفاقه إلى حدّ أنّهم لم يسمعوا ذلك الصوت الهائل الذي راح يندفع نحوهم آتيًا عبر الحديقة. وعندما اقترب الصوت تطلّعوا جميعًا إليه، فرأوا فيلاً ضخمًا يتقدّم نحوهم وهو يهزّ خرطومه في جنون. وأسرع الأولاد يتفرّقون فزعين في كلّ اتّجاه، عدا الأمير الصغير. فقد ثبت في مكانه ساكن الحركة، حتّى إذا ما اندفع الفيل نحوه وكاد يدوسه بأقدامه، انقضّ الأمير فجأة وأمسك بخرطوم الفيل بطريقة غريبة كان قد تعلّمها من مدرّب حيوانات القصر، ثمّ ارتقى رأس الفيل، وراح يهدّئه في بساطة حتّى هدأ، ثمّ راح يقوده عائدًا به إلى حظيرته حيث أسرع السائسون بالسلاسل ليقيّدوا الفيل. ولم يذكر الأمير شيئًا لوالدَيه عمّا حدث، ولكنّ مدرّبي الحيوانات أسرعوا إلى القصر ليقصّوا قصّة شجاعة الأمير. ومن داخل القصر انطلق النبأ ليتحدّث الناس بعد ذلك عن قدرة الأمير وشجاعته الفائقة. وفي ذلك اليوم أطلق الناس على الأمير اسم "ماهافيرا" أو "مهاويرا"، أي البطل العظيم. وعندما بلغ الأمير

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١١٤.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٤٦.

الثانية عشرة، ووضع الخيط المقدّس، وأقسم على الاستمساك بعقيدة آبائـه، أُرسل إلى الكهنة لعدّة أعوام كي يدرس علـى أيديهم أسرار العقيدة الهندوكيّة. وبقدر ما أحبّ الأمير دراسته بقدر ما كره معلّميه. فقد وجد أنّ هؤلاء المعلّمين من الكهنـة والبراهمة يظنّون أنفسهم خير الناس في العالم، حتّى أنّهم يفضّلون على الملوك. وأحسّ أنّ أغلبهم تافهون، ولكنّهم مع هذا فهم لا يعترفون بأفضليّـة أحد عليهم على الإطلاق. على أنّ الأمير عندما شبّ وبلغ التاسعة عشرة، نسي كراهيّته للكهنة والبراهمة. فقد امتلأ قلبه بحبّ كبير، وراح يهتمّ بالأميرة الحسناء "يوسادا"، فدفعته حياة أسرته إلى الزواج بها، واستقرّا في القصر الملكيّ مع بقيّة أفراد أسرة أبيه. وعاش الأمير وأسرته ما يقرب من عشرة أعوام ينعمون في السعادة في داخل القصر الملكيّ[1]. وكانت الأميرة يوسادا قد ولدت له بنتًا سُمّيت "أبوجا". وظلّ مهاويرا طيلة حياة والدَيه يكبت إحساسه وشوقه للرهبانيّة ويعيش في الظاهر كما يعيش أبناء طائفته، وينطوي باطنه على رغبة في الزهد والصفاء[2]. وكان مهاويرا يرتاد بستانًا خارج البلدة، حيث عاشت مجموعة من الرهبان الذين اتّبعوا طريقة ناسك اسمه "بارشفا PARSHVA"، كان قد ظهر قبل قرن أو اثنَين من الزمن وأنشأ رهبنة أُعطيت اسمه. وأحبّ مهاويرا الطريقة الرهبانيّة، لكنّه قرّر ألاّ يعتزل العالم خلال حياة والدَيه[3].

ثمّ بلغ الأمير الثامنة والعشرين. وفي ذلك العام مات والداه موتهما المقدّس إذ كانا يدينان بدين يعتبر التجسّد عقابًا كبيرًا، لذلك فقد أزهقا روحَيهما بجوع متعمّد[4]. لينعما

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٥٠ ـ ١٥١.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١١٥.

٣ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٤٢ ـ ٤٣.

٤ ـ السعدي، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، ص٤٢.

بالموت المقدّس. وإذ ماتا، لم يحزن الناس كما كان من المفروض أن يحدث، بل إنّ الفرحة كانت تغمر الجميع وهم يتمنّون على الآلهة أن تتيح لهم الفرصة ليموتوا ذلك الموت المقدّس كما مات الملكان الحبيبان. غير أنّ موت الوالدَين قد ترك مهاويرا نهبًا للحزن الذي جعله يقسم ذلك القسم العظيم بإهمال جسده اثنَي عشر عامًا، والصمت المطلق ما بقي حيًّا خلالها[1].

تنسُّك مَهَاويرَا
ثــمَّ ترهُّبــه

إعتبر مهاويرا أنّ وفاة والدَيه أتاحت له الفرصة ليعلن ما أخفى، وكان أخوه الأمير قد تولّى الإمارة، فطلب منه مهاويرا أن يأذن له في الرهبنة، ولكنّ الأمير خشي أن يظنّ الناس أنّ تصرّف مهاويرا كان نتيجة لقسوة أخيه عليه أو تقصيره في مطالبه، فطلب الأمير من مهاويرا أن يؤجّل ذلك عامًا[2]، وقال بعضهم عامَين[3]، فاستجاب له مهاويرا. وفي الموعد المحدّد عُقد اجتماع كبير تحت شجرة "أشوكا" اشترك فيه أفراد الأسرة وأهالي البلدة، وأعلن مهاويرا فيه رغبته في التخلّي عن الملك والألقاب ومتاع الدنيا ليخلو للزهد والتبتّل. فكان هذا مطلع حياته الروحيّة الصريحة، إذ خلع ملابسه الفاخرة، ونزع حليه، وحلق رأسه، ونتف شعر جسمه، وبدأ حياة جديدة وكانت سنّه آنذاك ثلاثين عامًا[4].

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ١٤٣، ١٥١.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١١٥.

٣ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٤٤.

٤ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١١٥.

وفي خلال المدّة التي أمضاها مهاويرا منتظرًا موعد الرحيل، راح يوزّع مقتنياته من ذهب وفضّة وماشية وعربات. وفي بداية الشتاء التالي انضمّ إلى جماعة "بارشفا". واحتفظ برداء واحد، وقطع على نفسه عهدًا بأن يُهمل جسده ويقبل كلّ مصيبة تحلّ عليه، سواء جاءت من الآلهة أو من البشر أو حتّى من الحيوانات[1]. فقد بدأ مهاويرا يجوب البلاد حافيًا، في زيّ الزهّاد والنسّاك، ولجأ إلى الجوع والتقشّف، وغرق في التفكير، وأقسم وهو في ثياب الرهبان قائلاً: "من اليوم، ولمدة اثنَي عشر عامًا، أقسم أن أصوم عن الكلام، وألاّ أنطق كلمة واحدة خلالها ما حييت". ومارس الرياضة الروحيّة الصعبة القاسية والتأمّلات النفسيّة العميقة. وعندما انتهت أعوام صوم مهاويرا لم يعد إلى منزله وأسرته، بل قرّر أن يظلّ راهبًا يمضي في طول البلاد وعرضها ينشر آراءه التي طلع بها خلال أعوام التفكير الطويلة الصامتة. وبدأ يعظ كلّ مَن يقبل الإنصات إليه. وكان الكثير من آرائه غير غريب عن الناس، إذ كان جزءًا من عقيدتهم بالفعل. وكان البراهمة أو المصلحون الآخرون، قبل مهاويرا، قد بشّروا به من قبل. ولكنّ بعض آراء مهاويرا كان جديدًا جدًّا. وأصبح كثيرون من الناس من أتباعه، وراحوا يمضون خلفه وينظّمون إخوة وأخوات في الرهبانيّة[2]. وبعد ثلاثة عشر شهرًا من ترهّبه خلع ملابسه دون حياء، إذ كان قد قتل في نفسه عواطف الجوع والإحساس والحياء، وكان أحيانًا يعتكف في المقابر، ولكنّ أكثر وقته كان يمضيه متجوّلاً في طول البلاد وعرضها، وكان يغرق في المراقبة إلى حدّ لا يشعر فيه بالحزن أو السرور، ولا بالألم أو الراحة، وكان يعيش على الصدقات الطفيفة التي تقدَّم إليه[3]، فقد كان في

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٤٣.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٤٤ ـ ١٥٥.

٣ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١١٦.

خلال تجواله يحمل وعاء يمدّه للرحماء من الناس ليضعوا فيه بعض الطعام، فإذا صادفته غابة وضع الوعاء جانبًا وراح يأكل من الفاكهة البريّة والتوت[1]. وهو يرجو لنفسه الانعتاق من دورة الحياة والموت والولادة المتكرّرة، وكان على قناعة تامّة بأنّ خلاص النفس من الشرّ، أي من المادّة العالقة بها، غير ممكن إلاّ بممارسة أقصى أنواع النسك، وأنّ حفظ النفس في حال النقاء يقتضي عدم إيذاء أيّ كائن حيّ. والعقيدتان كلتاهما من قناعات الأسلاف، لكنّ مهاويرا مارسهما على نحو صارم جدًّا. وجاء أنّ مهاويرا لم يكن، في تجواله، يمكث أكثر من ليلة واحدة في قرية، وأكثر من خمس ليال في مدينة، لأنّه لم يشأ أن ينشئ أيّ علاقة مع الأمكنة أو البشر من شأنها أن تعلّقه بهم أو تعيده إلى العالم وملذّاته. وفي النهاية حصل على ضالّته، إذ بلغ حال النرفانا القصوى التي تُسمّى "كيفالا KEVALA". وكلّ المذاهب الجينيّة تعتقد أنّ مهاويرا يحيا اليوم حال نعمة قصوى، غير خاضعة للولادة المتكرّرة[2].

ويرى الجينيّون أنّ مهاويرا وُلد مزوّدًا بثلاث من درجات العلم، ولمّا واصل تأمّلاته وتقشّفه حصل على الدرجة الرابعة، واستمرّ مهاويرا يصارع المادّة في تبتّله، فراح يجوب البلاد دون راحة، وحرص كلّ الحرص على ألاّ يقتل حيًّا. وكان يراقب نفسه مراقبة دقيقة في صمت تامّ، وبعد اثنَي عشر عامًا، أصبح، كما يقول عنه أتباعه، سيرُه مستقيمًا كسَير الحياة، لا يبالي بالعراقيل كالعاصفة، وكان قلبه نقيًّا كماء البركة في الشتاء، حرًّا كالطير، جسورًا كالفيل، قويًّا كالثور، مهيبًا كالأسد، ثابتًا كالجبل، عميقًا كالبحر، وديعًا كالقمر، بهيًّا كالشمس، طاهرًا

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ١٥٥.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٤٣.

كالإبريز. ووصل مهاويرا إلى حالة الذهول وعدم الإحساس بما حوله، وأفنى كلّ اتّجاه مادّيّ، فحصل من درجات العلم على الدرجة الخامسة وهي درجة العلم المطلق، ونيل البصيرة أو النجاة. وبعد سنة أخرى من الصراع والتأمّلات فاز بدرجة "المرشد" أو "تيرثانكارا TIRTHANKARA". وبهذا بدأ مهاويرا مرحلة جديدة هي الدعوة لعقيدته، وقد اتّجه أوّل الأمر إلى أسرته وعشيرته فاستجابوا له، ثمّ استجاب له أهل مدينته، وأخذت دعوته تنتشر بين الملوك والقوّاد الذين رأوا في هذه الدعوة ما يعبّر عن خواطرهم في الثورة على البراهمة، وسار في دعوته بنجاح حتّى بلغ الثانية والسبعين، فنزل مدينة "بنايوري" في ولاية "بَتْنا"، فألقى على الناس خمسًا وخمسين خطبة وأجاب عن ستّة وثلاثين سؤالاً غير مسؤولة، ولمّا تمّت خطبه حان أجله فقضى نحبه سنة ٥٢٧ قبل الميلاد، في خلوة وحيدًا، فتحرّر من قيود الحياة وتسلسُل الولادة والشيخوخة والموت، وترك تراثًا ضخمًا من الوصايا والحكم والفلسفات جديرة بالتقدير[١]. بينما وصف مؤرّخون وقائع موت مهاويرا بقولهم إنّه عندما رقد على فراش الموت، اجتمع حوله كلّ ملوك هذا العالم وحكّامه، وراح مهاويرا، طوال أيّام ستّة، يتحدّث إليهم ويلقي فيهم عظاته، واستمرّ على تلك الحال حتّى كانت الليلة السابعة لاحتضاره. وفي تلك الليلة، تحرّك مهاويرا في بطء شديد، ونهض ليصعد على عرش من ماسٍ كان يتوسّط قاعة رائعة بالغة الفخامة، تشعّ جوانبها كلّها بأضواء متألّقة غريبة لا يبدو لها مصدر قطّ. وجلس مهاويرا على العرش، ثمّ عاد يتكلّم من جديد، واستمرّ يلقي عظاته في الملوك والحكّام، حتّى بدأ الفجر يقترب. وفي تلك اللحظة غشى النور أبصار كلّ مَن في القاعة، بينما ودّع مهاويرا الحياة واختفى دون أن يراه أحد قطّ. ومضت لحظات، وفتح الجميع عيونهم من جديد وكأنّهم يستيقظون من سبات عميق، وعندما أطلّوا حولهم لم

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١١٦.

يروا شيئًا على الإطلاق، فقد كانت القاعة كلّها غارقة في ظلام رهيب، تمامًا كما أحاطت الظلمة بكلّ أنحاء العالم الفسيح. ومن أجل أن يرى الحكّام بعضهم بعضًا، أمروا بإشعال المشاعل في كلّ مكان، وظلّت المشاعل منذ ذلك اليوم الذي اختفى فيه مهاويرا الوسيلة الوحيدة للناس عندما يجيء الليل ويسيطر الظلام على كلّ أنحاء الكون. ومضى مهاويرا. وحُرق جثمانه في "بافا" بإقليم بيهار الهنديّ، حيث لا تزال حتّى اليوم الكعبة المقدّسة لأتباعه الجينيّين. غير أنّه عندما مضى مهاويرا كان عدد رهبانه يتجاوز أربعة عشر ألفًا من أبناء الهند[1].

المؤسَّسة الجينيَّة

تابع الرهبان أداء المهمّة التي بدأها معلّمهم. وراحوا يتنقّلون من مكان إلى آخر يعلّمون الناس حكمة الجينيّة، بعد أن جمعوها في كتب سُمّيت "أجاماس" ومعناها "الوصايا" أصبحت هي الكتب المقدَّسة عند جميع الأتباع. وقد أشار الكهنة الجينيّون في خلال تبشيرهم بعقيدتهم، إلى أنّ عقيدتهم قديمة جدًّا ترجع في تاريخها إلى بلايين بلايين من السنين. وقالوا للناس إنّ دينهم أزليّ لا بداية له ولا نهاية لوجوده. ولم يكن لمؤسّسيه، الجيناوات الأربعة والعشرين[2]، فضل إلاّ أنّهم رفعوا عنه الحجب، وأطلعوا أتباعهم على أسراره. قال الرهبان: "عندما علّم مهاويرا، لم يفهمه البشر وحدهم، بل فهمته المخلوقات التي تزحف، والطيور التي تطير، وأرواح الخضار والأشجار.

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٥٨ ـ ١٥٩.

٢ ـ يقول الجينيّون إنّ مهاويرا لم يكن وحده هو مؤسّس عقيدتهم، بل آمنوا بأنّ هذه العقيدة أسّسها في الحقيقة أربعة وعشرون "جينا"، أي "فاتحًا"، ظهروا على فترات دوريّة ليبشّروا الناس ويهدوا شعب الهند إلى الطريق المستقيم.

فهمته كلّها لأنّه كان يعلّم عقيدة تقول أنّ لكلّ شيء روحًا، وهي نعمة لجميع المخلوقات على وجه الأرض"[١].

يعتقد الجينيّون بأنّ الجينيّة مذهب قديم جدًّا. وكان جينا الأوّل اسمه "رسابها" وقد ظهر منذ أمد بعيد، ولا يحفظ التاريخ عنه شيئًا، ولا ترتبط به إلاّ بعض الأساطير[٢]. بينما يرد في مراجع أخرى أنّ أوّل فاتح هو الإله "أديناث" الذي ظهر قبل ذلك بأكثر من بليون سنة[٣]. وتتابعَ الجيناوات الواحد بعد الآخر حتّى ظهر الجيناوان الأخيران في العصور التاريخيّة. أمّا أوّلهما، وهو جينا الثالث والعشرون، فاسمه "بارسواناث" وقد وُلد في القرن التاسع قبل الميلاد ومات في القرن الثامن، وأسّس نظامًا رهبانيًّا شدّد فيه على ضرورة الرياضيّات الشاقّة المتعبة، وجعل أتباعه قسمَين: خاصّة وعامّة. فالخاصّة هم الرهبان والمتبتّلون الذين التزموا الرياضة الشاقّة والحرمان، وتركوا الأهل والمسكن، وأخذوا يجوبون الأقطار ويطوفون في القرى والأمصار، وهذا القسم هو عمود النظام؛ والعامّة هم الذين يؤيّدون النظام بأموالهم ويمدّون الرهبان بحاجاتهم، مع بُعد عن الفواحش وانشغال بالمكاسب من غير عنف ولا إضرار بأحد، مقتدين بالرهبان ما وسعهم ذلك[٤].

وهكذا أصبح مهاويرا جينا الرابع والعشرين، فاعتنق مبادئ "بارسواناث" وزاد عليها من فكره وتجاربه وإلهامه، وعلا شأنه، واشتهرت الطريقة باسمه، وعُرف النظام بلقبه، فلا تُعرف الجينيّة إلاّ منسوبة إليه[٥].

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٥٨ ـ ١٥٩.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٢٧.

٣ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٥٩.

٤ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٢٧.

٥ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١١٧، حيث يورد في الهامش أنّ هذه المعلومات هي خلاصة دراسات وأبحاث كثيرة نشرها فلاسفة الهند عن الجينيّة، راجع أيضًا: THOMAS EDWARD, *THE HISTORY OF BUDDHIST THOUGHT*.

العقائد الجينيّة

وصف باحثون الجينيّة بأنّها "حركة عقليّة متحرّرة من سلطان الفيدات، مطبوعة بطابع الذهن الهندوسيّ العام، أُسّس بنيانها على الخوف من تكرار المولد والهروب من الحياة اتّقاء لشائماتها، منشؤها الزهد في خير الحياة فزعًا من أضرارها، عمادها الرياضة الشاقّة والمراقبات المتعبة، ومعوّلها الجمود للملذّات والمؤلمات، وسبيلها التقشّف والتشدّد في العيش، وطريقها الرهبانيّة ولكن غير الرهبانيّة البرهميّة، وقد داوى الجينيّون الميول والعواطف بإفنائها ووصلوا في ذلك إلى إخماد شعلة الحياة بأيديهم، وافتقدوا النجاة في وجود من غير فعليّة، وسرور من غير انبعاث"[1].

والعقيدة الجينيّة كالفيتاغوريّة يحكمها العدد، وهي بشكل عام تقوم على عدّة بحوث رئيسيّة، عددها سبعة، هي: ١ ـ الحياة (آجيفا)؛ ٢ ـ الجماد (آجيعا)؛ ٣ ـ التيّار أو الإعصار (اسرافا) أو النشاط (كارما) الذي يعطي الحياة لونًا معيّنًا، والحياة ليست نباتيّة فقط بل روحانيّة؛ ٤ ـ الرابط (بندها) وهو الذي يحتفظ بالحياة الروحيّة سائرة في التيّار؛ ٥ ـ حاجز التيّار (سمفارا)؛ ٦ ـ إستبعاد النشاط الساحب (نيرجارا)؛ ٧ ـ النجاة أو الخلاص (موكشا)[2].

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١١٨، نقلاً عن: الرامبوري عبد السلام، "الجينيّة" ضمن مقالاته وأبحاثه القيّمة عن "فلسفة الهند القديمة".

٢ ـ السعدي، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، ص ٤٢، نقلاً عن: ميرسياد إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينيّة، ٢: ٩٢، و فيليوزات جان، فلسفات الهند، ترجمة علي مقلّد، ص٣١.

الجينيَّة ومعتقدُها حَول

الآلهَـــة والشيَاطيـن

ذكر باحثون أنّ مهاويرا لم يعترف بالآلهة، إذ إنّ الجينيّة كانت نوعًا من المقاومة للهندوسيّة وثورة على سلطان البراهمة. فالاعتراف بالآلهة قد يخلق من جديد طبقة براهمة أو كهنة يكونون صلة بين الناس والآلهة، وقد قرّر أنّه لا يوجد روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون، ومن هنا سُمّي هذا الدين دين إلحاد. واتّجهت الجينيّة إلى الاعتقاد بأنّ كلّ موجود، إنسانًا كان أو حيوانًا أو نباتًا أو جمادًا، يتركّب من جسم وروح، وأنّ كلّ روح من هذه الأرواح خالدة مستقلّة يجري عليها التناسخ الذي اتّفقت فيه الجينيّة مع الهندوسيّة[١]. فيما أورد باحث آخر[٢] أنّ الجينيّين لا يعترفون بإله واحد للكون، بل هناك عدّة آلهة تحتلّ أمكنة مختلفة في السماوات. إلاّ أنّ علاقة الإنسان مع الآلهة ليست شخصيّة، والصلاة لها لا تنفع شيئًا. فالخلاص يناله الإنسان بجهده هو للانعتاق التامّ من المادّة. وإذا لم يحقّق هذا الانعتاق فسيكون مكتوبًا عليه لعنة العودة. فالخلاص إذًا، لا يأتي من آلهة ولا من كهنة ولا من أيّ كلام يتفوّه به الآخرون. والكتب المقدّسة، مثل الفيدا، ليست مقدّسة حقًّا في نظر الجينيّين، ولا هي تمنح الخلاص والانعتاق. وهناك عامل واحد يقوم عليه الخلاص، هو العامل الفرديّ الداخليّ. ومن أقوال مهاويرا المأثورة: "إعلم أيّها الإنسان أنّك صديق نفسك، فلماذا تسعى إلى صديق خارج نفسك؟"

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١١٨، استنادًا إلى: WEECH AND RYLANDS, *THE PEOPLES AND RELIGIONS OF INDIA*, P. 317.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٤٤.

هذا هو أساس الفكرر الجيني تجاه الآلهة، غير أنّ الجينيّة دين مسالم، يبالغ كلّ المبالغة في البعد عن العنف حتّى أنّه يكره قتل الهوام والحشرات الصغيرة. وعدم العنف من العهود الأربعة التي وضعها "بارسواناث" وهو جينا الثالث والعشرون، وبسبب هذه المسألة اعترف الجينيّون بآلهة الهندوس في ما عدا الثالوث: براهما ـ وشنو ـ سيفا، وكانوا في بادئ الأمر، كما يظهر من كتبهم، يعترفون بآلهة الهندوس للهندوس، ويحترمونها للمجاملة والمسالمة، ولكنّهم عادوا فأجلّوها لذاتها، وإنْ لم يصلوا في إجلالها درجة الهندوس بطبيعة الحال[1]. غير أنّ العقل البشريّ يحتاج إلى الاعتراف بإله، من هنا وُجد فراغ كبير في الجينيّة بسبب عدم اعتراف مهاويرا بإله يُكمل به صورة الدين الذي دعا إليه، وكان من نتيجة ذلك أن اعتبره أتباعه إلهًا، بل عدّوا الجيناوات الأربعة والعشرين آلهة لهم، ولعلّهم بذلك كانوا متأثّرين بالفكر الهنديّ الذي يميل في الأكثر، إلى تعدّد الآلهة. وعدم الاعتراف بالإله استتبع عند الجينيّين اتّجاهات مهمّة سلبيّة تتعلّق بالعقائد، فهم لا يقولون بالصلاة، ولا بتقديم القرابين، ولا يعترفون بالطبقات، ولا بما تدّعيه الطبقة العليا في النظام الهندوسيّ، وهي طبقة البراهمة، من امتيازات ومزايا. ولكنّ خُلُق المسالمة الذي دفع الجينيّين إلى الاعتراف بآلهة الهندوس، دعاهم هنا إلى الاعتراف بالبراهمة، وإلى القول بأنّه من الواجب احترامهم المطلق. وليس معنى هذا وجود طبقة براهمة في الجينيّة، بل المقصود احترام براهمة الهندوس كطائفة لها مكانتها في الدين الهندوسيّ، أمّا الطبقات في الجينيّة فلم تتعدَّ ما وضعه "بارسواناث" من تقسيم الجينيّين إلى خاصّة وهم الرهبان، وعامّة وهم مَن يؤيّدون النظام من غير الرهبان، ولم تجعل الجينيّة للرهبان امتيازات

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١١٨، نقلاً عن: "مهاويرا، مؤسّس الجينيّة"، مجلّة ثقافة الهند، كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٥١، ص١٠.

كما فعلت الهندوسيّة، بل إنّ الجينيّة جعلت الرهبانيّة مشقّة وتضحية وتكليفًا[1]. هذه المفارقة، أو المسايرة إذا جاز التعبير، جعلت بعض الباحثين يعتبرون أنّ الجينيّين، رغم أنّهم لا يؤمنون بكائن أسمى في السماء، ولا حتّى بحقيقة خلود العالم، إلاّ أنّهم يؤمنون بكلّ الآلهة، والحكماء، وأنصاف الآلهة والشياطين والجنّ المعروفة في البرهميّة، أمّا الآلهة فمختلفون عن البشر، ولكنّهم ليسوا قادرين على كلّ شيء، ولا بالغو التفضيل، فللآلهة سقطاتهم الدنيويّة، وبرغم أنّهم يتمتّعون بقوى معيّنة، تزيد عمّا يتمتّع به البشر عادة، إلاّ أنّهم ليسوا أكثر قيمة بشكل قاطع عنهم. فالإله مثلاً لا يستطيع أن ينال الخلاص أو النجاة إذا لم يمرّ بمرحلة الولادة البشريّة، إذ إنّ الخلاص لا يتمتّع به إلاّ البشر. وإن كان بعض الآلهة يستحقّ، في بعض الأوقات، التقديس، كما يستحقّ قليل منهم أن يُعبدوا، بغير شكّ، حسب العقيدة الهندوسيّة. وإذا كانت الجينيّة لا تهتمّ بضرورة الوصول إلى الخلاص، إلاّ أنّها لا تجد حاجة إلى اليأس التامّ، فالشيطان لا يستحقّ اللعنة دائمًا، لأنّ الشياطين تعمل أيضًا من أجل الوصول إلى النجاة، كما ينتظرها ما ينتظر البشر من الجنّة إلى الجحيم. فالعالم في نظر الجينيّين ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الطبقة العليا، والطبقة المتوسّطة والطبقة السفلى. ويتمثّل الجينيّون العالم كما يتمثّل جسم الإنسان. فوسط الإنسان يمثّل الطبقة الوسطى، والأقدام تمثّل الطبقة السفلى، أمّا الجذع فيمثّل الطبقة العليا[2].

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١١٨ ـ ١٢٠.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٦٣ ـ ١٦٤.

الكَارمــــا

والتناسُخ

طالما أنّ الجينيّة هي بنتُ الهندوسيّة، وبما أنّ جميع أديان الهند تسير غالبًا في فلك الهندوسيّة التي تؤمن بالكارما والتناسخ، من هنا قالت الجينيّة بهاتَين المسألتَين، لكنّها لم تعتقد ما اعتقده الهندوس من أنّ الكارما أمر اعتباريّ يحقّق قانون الجزاء الذي يحمّل الإنسان تبعة أعماله، ويجزيه عليها من طريقة تناسخ الأرواح، بل قالت الجينيّة بأنّ الكارما كائن ماديّ ويخالط الروح كأنّه يمسك بتلابيبها أو يحيط بها كما تحيط الشرنقة بالفراشة، ولا سبيل لتحرير الروح من ربقة هذا الكائن إلاّ شدّة التقشّف والحرمان من الملذّات في كلّ مرحلة من مراحل الحياة، فهذه وحدها هي وسيلة تحرير الروح وحياتها حياة أبديّة حرّة، وفي ذلك تقول النصوص الجينيّة المقدَّسة "كما تتّحد الحرارة بالحديد، وكما يمتزج الماء باللبن، كذلك يتّحد الكارما بالروح، وبذلك تصير الروح أسيرة في يد الكارما". وللوصول إلى تخليص الروح من الكارما يظلّ الإنسان يولد ويموت حتّى تطهر نفسه وتنتهي رغباته، وإذ ذاك تقف دائرة عمله ومعها حياته الماديّة فيبقى روحًا خالدًا في نعيم خالد، وخلود الروح في النعيم بعد تخلّصها من المادّة يُسمّى عند الجينيّين "النجاة" وهو ما يعادل الانطلاق في الهندوسيّة والنرفانا في البوذيّة[1].

وفي اعتقاد الجينيّين أنّ هناك تناقضًا تامًّا بين النفس والجسد، أي بين الروح والمادّة. وهم يرتّبون كلّ الموجودات في صنفَين: "الكائنات الحيّة "JIVA" وهي مكوّنة من نفوس أو أرواح؛ و"الكائنات غير الحيّة "AJIVA" وهي مكوّنة من المادّة. والمادّة،

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٢٠؛ راجع: عبد القادر حامد، بوذا الأكبر، ص٢٨.

كما الروح، أزليّة، ولكن، في حين أنّ المادّة شرّ، فالروح خير. والنفس لا تصير كاملة إلاّ عندما تتحرّر كليًّا من المادّة. وكمالها يعني الوجود في حال من المعرفة التامّة والقوّة التامّة والنعمة التامّة. وعندما تتحرّر النفوس من المادّة التي تكبّلها، ترتفع إلى قمّة الكون حيث تنضمّ إلى النفوس التي سبقتها[1].

أمّا في اعتبار الجينيّين للأعمال الحسنة والأعمال السيّئة في الحياة، فيقولون بأنّ الحسنة هي فعل الخيرات كإطعام المساكين ومساعدة المحتاجين، وبخاصّة في ما يتّصل بالرهبان الجينيّين. وقسّم الجينيّون الحسنات تسعة أقسام، وذكروا أنّ الحسنات تُجزى باثنَين وأربعين طريقًا، منها ما هو في حياة الإنسان الحاليّة كالبركة والغنى والصحّة، ومنها ما هو في حياة قادمة. وأمّا السيّئة فهي ارتكاب الأعمال الخبيثة والفواحش، وقسّموها ثمانية عشر نوعًا، منها الكذب والسرقة والفسق والفجور والخيانة والجشع وما إلى ذلك، وأشدّ أنواع السيّئات وأفظعها لدى الجينيّين هو الاعتداء على الحياة والعنف والتشدّد، ووضعوا كفّارات خاصّة لكلّ نوع من السيّئات، منها الفقر والتناسخ في أشخاص تعساء أو في قوالب الحيوانات والجمادات[2]. وتختلف الحسنات والسيّئات باختلاف طبقتَي الجينيّة اللتَين سبق أن تحدّثنا عنهما وهما طبقتا الخاصّة والعامّة، فما يجوز للعامّة لا يجوز صدوره من الخاصّة، ويُطلب من العامّة الخلق الحسن وعمل الحسنات، ويكافَؤون عليها بما يضمن لهم حياة أو حيوات طيّبة. أمّا "النجاة" فالسبيل إليها شاقّ عسير، وهي من خصائص الخاصّة. أمّا العامّة فلا يلزمهم أن يقوموا بكلّ هذه المناسك والسبل، لكن عليهم أن يقوموا ببعضها في حدود طاقتهم، فعليهم ألاّ يوقعوا الأذى بإنسان أو حيوان، وعليهم ألاّ يقتلوا النفس وألاّ

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٤٣.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٢١، عن: الألواني محيي الدين، الفلسفة الهنديّة، ص٢٠ بتصرّف.

يأكلوا اللحم وأن يقهروا رغباتهم، ولكن ليس إلى درجة الجمود والخمود والذهول التي يتّبعها الرهبان[1].

العُـــــري

في الجينيَّة

يتَّضح من خلال المراجعات أنّ الحياء يُثقل كاهل النسّاك الهنود، الذين يعتبرونه نقيصة، تحجب الفكر الإنسانيّ عن رؤية الحقيقة. وهم يحرصون على خلع حيائهم كالحذاء. فلقد تجرّد بوذا من ثيابه، إلاّ من عدّة وريقات نباتيّة تستر عورته، وأشدّ منه سطوة في أمر التعرّي، كان مهاويرا، الذي استغنى حتّى عن وريقات التوت التي تحجب عورته. وتبعه النسّاك الجينيّون في اعتماد التعرّي، سيرًا على خطى معلّمهم، وأصبحوا يتجولون دون ساترة[2]. ويقول أحد علماء الجينيّة في محاضرة له عن العري[3]: يعيش الرهبان الجينيّون عراة، لأنّ الجينيّة تقول: ما دام المرء يرى في العري ما نراه نحن، فإنّه لا ينال النجاة، فليس لأحد أن ينال نجاة ما دام يتذكّر العار، فعلى المرء أن ينسى ذلك تمامًا ليتمكّن من اجتياز بحر الحياة الزاخر، فطالما تذكّر الإنسان أنّه يوجد خيرٌ أو شرٌّ، حُسنٌ أو قبح، فمعناه أنّه لا يزال متعلّقًا بالدنيا وما فيها، فلا يفوز بـ" موشكا" أي بالنجاة. ويبيِّن هذا خيرَ بيان الحكايةُ المعروفة عن طرد آدم وحوّاء من الجنّة، فقد كانا يعيشان فيها عاريَين بطُهر كامل، لا يعرفان همًّا ولا غمًّا،

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٢٥.

٢ ـ السعدي، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، ص٤٠ ـ ٤١.

٣ ـ مجلّة ثقافة الهند، كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥١، ص١٣ ـ ١٤.

خيرًا ولا شرًّا، حتّى أراد عدوّهما الشيطان أن يحرمهما ممّا كانا فيه من البهجة والسرور والسعادة، فحملهما على أن يأكلا من شجرة العلم بالخير والشرّ، فأُخرجا من الجنّة، فالذي حرمهما من الجنّة، بحسب رأي الجينيّين، هو علمهما بالخير والشرّ وبأنّهما عاريان. ويرى الجينيّون أنّ الشعور بالحياء يتضمّن تصوّر الإثم. وعلى العكس من ذلك، فعدم الشعور بالحياء معناه عدم تصوّر الإثم، وذلك يعني زيادة في النقاء، فعلى كلّ ناسك يريد أن يحيا حياة بريئة من الإثم أن يعيش عاريًا، ويتّخذ من السماء والهواء لباسًا له[1]. ولشدّة تمسّك الجينيّين بمبدأ التعرّي الدينيّ المقدّس انقسموا، في ما بعد، إلى قسمَين: أحدهما يتمسّك بنظام التعرّي كمنهج لا غنى عنه على درب الحقيقة، والثاني، لا يجد في العري ما يضمن الاقتراب من الحقيقة المنشودة[2].

ويرى باحثون أنّ نشوء واستمرار هذا النظام الدينيّ، يعتمدان كلّ الاعتماد على جوّ الهند الحارّ، أكثر ممّا يعتمدان على احترام قدسيّة النصوص الدينيّة وتطبيقها. فلو أنّ أتباع الجينيّة المتشدّدين تمّ نقلهم بضع مئات من الأميال نحو الشمال، أي نحو سبيريا، فلسوف يستجدي مَن بقي منهم على قيد الحياة، الدثار والغطاء، قبل الشراب والغذاء. وإنّهم لو استقرّ بهم المقام هناك في سبيريا، لم يعدموا السبيل إلى طريقة ما، تضمن لهم تأويل النصوص المقدّسة، بحيث يصبح العريّ، بموجب التأويل الجديد، إثمًا يعاقب عليه الدين، في الدنيا والآخرة[3].

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٢٣ ـ ١٢٤.

٢ ـ السعدي، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، ص٤٠ ـ ٤١.

٣ ـ السعدي، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، ص٤١.

بيد أنّ انقسامًا خطيرًا شطر الجينيّة إلى فرقتَين تفصلهما هوّة سحيقة من اختلاف الرأي على موضوع العري. ومنذ ذلك الحين أصبح الجينيّ إمّا منتسبًا إلى الفرقة التي تُسمّى "ديغامبرا DIGAMBRA " وهم مؤيّدو العري الكامل أو أصحاب الزيّ السماويّ أي الذين اتّخذوا السماء كساء لهم، أو إلى الفرقة الثانية وتُسمّى "سويتامبرا SVETAMBARA" أي أصحاب الزيّ الأبيض، وهم محاربو العري. على أنّ الطائفتَين أو الفرقتَين أصبحتا تلبسان اليوم الثياب العاديّة كما يقضي المكان والزمان، وإن كان قدّيسوهم وحدهم الذين لا يزالون يجوبون الطرقات عراة الأجسام[١]. ومن هاتَين الفرقتَين تشعّبت فرق كثيرة أخرى غير مهمّة، ويُلاحظ أنّ تعدّد الفرق لم يمسّ الفلسفة الأصيلة للجينيّة أو عقائدها الرئيسيّة، وإنّما اتّصل بأمور ونقاط غير مهمّة، وتحدّث عن تفاصيل الأساطير وممارسة التقشّف.

الإنتحَار في الجينيَّة

جاء الانتحار في الجينيّة نتيجة للتخلّي عن أيّ عمل، وترك كلّ ما يغذّي الجسم لعدم الإحساس بالجوع، ولقطع الروابط بالحياة، وللتدليل على أنّ الراهب أو الراهبة لم يبقَ له اهتمام بهذا الجسد الفاني، فهو يجيعه، وينتف شعره، ويعرّضه لظواهر الطبيعة القاسية حتّى الموت. وقد انتشر الانتحار بالجوع بين رهبان الجينيّين قديمًا[٢].

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٣٠؛ مظهر، قصّة الديانات، ص١٦٦.

٢ ـ هذه المعلومات نُظّمت على هذا النسق بعد جهد، وجُمعت من المراجع الآتية: خطب جينا؛ أعداد كثيرة من "ثقافة الهند"؛ عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند؛ WEECH, *THE PEOPLES AND RELIGIONS OF INDIA*; BERRY, *RELIGIONS OF THE WORLD*.

فالجينيّة تجيز الانتحار ولا تقيم في سبيله العقبات، وخاصّة إذا تمّ عن طريق الجوع. فإنّ ذلك أبلغ انتصار تظفر به الروح على إرادة الحياة العمياء. ولأنّ في موت الإنسان انقطاعًا لأعماله التي في كلّ منها مظنّة إلحاق الغدر بكائن من الكائنات المزوّدة بالأرواح، واحتمال سوء التأثير في طريق تناسخ روحه، فالموت جوعًا منزلة سامية تدلّ على أنّ الجينيّ قد وصل إلى أسمى درجات الزهد والتقشّف، وتؤدّي إلى تحرير روحه تحريرًا تامًّا، وإنقاذه من هذه الحياة، وعدم اضطراره إلى أن يحيا فيها في المستقبل مرّة أخرى[١].

ويُعتبر الانتحار غاية أو جائزة لا تتاح إلاّ لخاصّة الرهبان الذين اتّبعوا النظام الجينيّ. وبما أنّ إتاحة الفرصة للانتحار معناها منع الذات عن إمكانيّة إلحاق الضرر بأيّ كائن ذي روح، فهو عمل حسن. ولا يكون ذلك إلاّ بعد قضاء اثنَي عشر عامًا أو ثلاثة عشر عامًا داخل الناموس الصارم للرهبان الجينيّين[٢]. وفي هذا يقول مهاويرا: "إذا التزم الجينيّ بالرياضات النفسيّة في دقّة وصرامة اثنَي عشر عامًا، يُسمح له بنعمة الانتحار، والاستمتاع بسعادة الموت جوعًا"... وهذا هو في الواقع ما يؤكّد عليه جميع الأتباع حتّى اليوم[٣].

ويتساءل باحثون، ونتساءل نحن معهم: أليس تناقضًا عجيبًا أن يحرص الجينيّون بالغ الحرص على الحياة لكلّ حشرة وكلّ دابة، ثمّ يجعلون انتحار الرهبان جوعًا قربى من القربات؟ مهما قيل من الأسباب فإنّني أراه إيذاء للإنسان وقضاء على حياته، مع أنّ الجينيّة لا تُلحق الأذى بأحد ولا تقرّ القضاء على الحياة، ويظلّ تساؤلنا هذا

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ١٦٣.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٢٤.

٣ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ١٦٢.

قائمًا مع تذكّرنا أنّهم يعملون ذلك رغبة في الخلود أو في النجاة، أو نتيجة للخمود والجمود[1].

قَوَانِيــن جينيــّة للخَاصَّة والعَامَّة

هنالك قصّة حكميّة معروفة جاءت في الكتابات الجينيّة، تتحدّث عن عميان ستّة وضع كلّ منهم على جزء من فيل ضخم، فوجده كلّ منهم شبيهًا بالمكان الذي سقطت يده عليه: فهو هنا مثل مروحة، وهناك مثل جدار، وهنالك مثل حبل... ولم يدرك أيّ منهم الحقيقة، لأنّ الحقيقة كليّة وليست جزئيّة. ووهم توحيد الجزء بالكلّ هذا ملازم للفكر الإنسانيّ في مختلف جوانبه. وفي اعتقاد الجينيّين أنّ النفس النقيّة والحرّة، أي تلك التي ارتقت إلى السماء الجينيّة المنعتقة من المادّة، تملك وحدها المعرفة التامّة[2].

الطريقة الوحيدة لتحقيق الانعتاق حسب مهاويرا، هي ممارسة القوانين النسكيّة الصارمة. وهناك قوانين للنسّاك وأخرى للعامّة. أمّا النذور النسكيّة فهي خمسة:

١ ـ التعهّد بعدم قتل أيّ كائن حيّ، متحرّك أو غير متحرّك، والتخلّص من شهوة التسلّط على هذه الكائنات.

٢ ـ عدم الكذب وعدم حضّ الآخرين على الكذب أو الموافقة على قوله، وعدم قول الكلام النابع من غضب أو طمع أو خوف أو خداع. وهذا يعني أنّ الصدق يقتضي التحرّر من الغضب والجشع والخوف والخداع والهَزل، وأنّ الكلام الصحيح يجب أن ينبع من التفكير العميق.

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٢٤.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٤٤ ـ ٤٥.

٣ ـ عدم السرقة، أي عدم أخذ ما لا يُعطى في قرية أو مدينة أو غابة، مهما كبر أو صغر، وعدم حمل الآخرين على أخذ غير المعطى أو الموافقة عليه.

٤ ـ التخلّي عن كلّ رغبة جنسيّة.

٥ ـ التخلّي عن كلّ ارتباط أو علاقة، بكلّ شيء حيّ أو غير حيّ.

وقد وضع نسّاك الجينيّة مبادئ للعامّة أقلّ صرامة، هي الآتية:

١ ـ عدم قتل أيّ حياة؛ ٢ ـ عدم الكذب؛ ٣ ـ عدم السرقة؛ ٤ ـ عدم الزنى؛ ٥ ـ عدم الجشع، بل الاكتفاء بالقليل من المقتنيات؛ ٦ ـ إجتناب الخطيئة، عبر اجتناب السفر مثلاً؛ ٧ ـ إجتناب الشرور الممكنة والتنبّه لها؛ ٨ ـ تكريس أوقات خاصّة للتأمّل؛ ٩ ـ تخصيص أوقات لنكران الذات، ومن هذا القبيل الترهّب لمدّة معيّنة؛ ١٠ ـ الزكاة، خصوصًا التبرّع للنسّاك[١].

هكذا نرى أنّ الجينيّة دين يطغى عليه الجانب النسكيّ. والحقّ أنّ مبادئ الجينيّة الخلقيّة أكسبت أتباعها قيمة اجتماعيّة واحترامًا من الآخرين. ومن هذه المبادئ الامتناع عن المقامرة وأكل اللحوم وشرب الخمر والصيد والسرقة والغشّ والزنى. وكانت هذه المبادئ الشريفة خير معين للجينيّين على الاستمرار والنموّ.

وقد وضع الجينيّون سبعة أصول رئيسيّة لتطهير الروح، وتُعتبر هذه الأصول أمّهات المبادئ الجينيّة، وهي:

١ ـ أخذ العهود والمواثيق مع القادة والرهبان بأن يتمسّك المريد بالخلق الحميد ويُقلع عن الخلق السيّء.

٢ ـ التقوى، وهي المحافظة على الورع، والاحتياط في الأقوال والأعمال، وفي جميع الحركات والسكنات، وتجنّب الأذى والضرر لأيّ كائن حيّ مهما كان حقيرًا.

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٤٤.

٣ ـ التقليل من الحركات البدنيّة، ومن الكلام، ومن التفكير في الأمور الدنيويّة الجسمانيّة، حتّى لا تضيع الأوقات والأنفاس الثمينة في صغار الأمور.

٤ ـ التحلّي بعشر خصال هي أمّهات الفضائل وسائل الكمال وهي: العفو والصدق والاستقامة، والتواضع والنظافة، وضبط النفس والتقشّف الظاهريّ والباطنيّ، والزهد واعتزال النساء والإيثار.

٥ ـ التفكير في الحقائق الأساسيّة عن الكون وعن النفس؛ وبعض أمور الكون وأمور النفس يُتوصّل لها بالحواس الخمسة الماديّة، وبعضها لا يُتوصَّل إليها إلاّ بمنظار الذهن، ومن هنا لزم استعمال الحواس الماديّة واستعمال الفكر كذلك.

٦ ـ السيطرة على متاعب الحياة وهمومها التي تنشأ من الأغراض الجسمانيّة أو الماديّة، كمشاعر الجوع والعطش والبرودة والحرارة، وسائر أنواع الشهوات الماديّة، وعليه أن يضرب حصنًا متينًا حوله للتخلّص من هذه الأعراض والحواس والتأثّر بها.

٧ ـ القناعة الكاملة والطمأنينة والخُلق الحسن، والطهارة الظاهريّة والباطنيّة.

وتدّعي الجينيّة أنّ هذه المبادئ تُطلق الإنسان من الوثاق الذي يشدّه للحياة، ويسلب عنه الراحة الذهنيّة والطمأنينة القلبيّة، وإذا اتّصف أحد بهذه الصفات السبع فإنّها تخرجه من الظلمات التي تحيط به بسبب هموم الدنيا ومشاكلها العديدة حتّى تصير روحه حرّة طليقة تنساب في سماء المعرفة والنور العلويّ، وتحيط بالعلوم الربّانيّة والكشف الباطنيّ، فتكون في سرور دائم ولذّة معنويّة مطلقة، وهذه هي الطريقة الجينيّة للنجاة[١].

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٢٧ ـ ١٢٨.

درَجَات

العَلـــم

تقسّم الفلسفة الجينيّة العلم خمسة أقسام حسب مصادره، وتُكثر الفلسفة الجينيّـة من التفريعات لكلّ قسم، أمّا الأقسام الخمسة الرئيسيّة فهي:

١ ـ الإدراك بطريق الحواس أو بطريق الذهن، ويشتمل هـذا الإدراك عن طريق القياس والاستقراء المبنيّين على المشاهدة، كما يشتمل على الفهم والحفظ والإحساس، ويستلزم ها العلم حضورَ الأشياء المعلومة للحواس أوّلاً حتّى يتمّ إدراكها.

٢ ـ العلم عن طريق الوثـائق المقدّسـة، ويُعرف هذا القسم بـالعلم غير المباشر لتوسّط المستندات والوثائق بين مَن يَعلَم وما يُعلَم، وتدّعي الجينيّة أنّ كتبها المقدَّسـة لم تغادر صغيرة ولا كبيرة.

٣ ـ العلم بـالوجدان المحدود، وهو إدراك ذي الصورة من الأشياء الموجـودة بطريق الروح، فالمدرَك هنا موجود يمكن أن يُرى، ولكن لبُعده مثلاً لا تـراه العين، وتراه الروح في هذه المرحلة من مراحل العلم. وللوصول إلى هذه المرحلة لا بـدّ من تطهير الروح من الأدران والأوساخ والسموّ بها عن الوساوس والأوهام.

٤ ـ العلم بالوجدان المحيط، وهو إدراك بطريق الروح لِما ليست له صورة الآن، فهو إدراك يتخطّى مسافات الأزمنة والأمكنة، يعلم ما في السماء وما في الأرض من ظاهر ومـا كـان فيهما، وهي مرحلة أعلى من سابقتها وتستلزم مزيدًا من الطهر والصفاء.

٥ ـ العلم بمخبآت الضمائر والتصوّرات في السرائر، فهو علم بما لم يوجد إلاّ من حيث أنّه خاطر في الذهن، وهو أرقى درجات العلم، ولا يتمّ إلاّ للذين هجروا الأهل والوطن وطهّروا أنفسهم بالرياضة الشاقّة[١].

التُراث

المدوَّن

تقتصر المصادر المقدّسة لدى الجينييّن على خطب مهاويرا ووصاياه، ثمّ على الخطب والوصايا المنسوبة للمريدين والعرفاء والرهبان والنسّاك الجينيّين. وقد انتقل هذا التراث المقدّس من جيل إلى جيل عن طريق المشافهة، ثمّ خافوا على هذا التراث من الضياع، أو من اختلاطه بغيره، فاتّجهت النيّة إلى جمعه وكتابته، وبدأت الاجتماعات الدينيّة الخاصّة والعامّة والمتتالية من أجل دراسة الموضوع، فكانت النتيجة، بحسب بعض الباحثين، أنّهم أسقطوا ما لا يتناسب مع وجهات نظرهم ولا يكرّس سلطانهم، وأخفوا كلّ ما رفضوه، كما أبقوا على كلّ ما قبلوه، ولم يقف تدخّلهم عند هذا الحدود، بل تخطّاها كثيرًا، إذ إنّهم تركوا بدورهم جميع ما جمعوه، وحصل على تأييدهم، مدّة من الزمن، كي ينضج على نار هادئة، قبل أن يتمّ سكبه في القوالب الكتابيّة الشكليّة النهائيّة، التي لا تقبل بسهولة التبديل والتعديل، باعتبارها، على حدّ زعمهم، يقينيّة الثبوت عن الأصل[٢]. وكانت اجتماعات زعماء الجينيّة قد بدأت في

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٢٨ ـ ١٢٩، حيث يورد في الحاشية أنّ هذه المعلومات مستقاة من مراجع متعدّدة بعد جهد واسع في المقابلة والتنقيح والتنظيم وأهمّها دراسات مولانا عبد السلام الرامبوري، فلسفة الهند القديمة؛ والأستاذ محيي الدين الألوائي، الفلسفة الجينيّة؛ و G. F. ALLEN, *BUDDHA'S*; WEECH AND RYLANDS, *THE PEOPLES AND RELIGIONS OF INDIA*. PHILOSOPHY.

٢ ـ السعدي، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، ص٥٥.

القرن الرابع قبل الميلاد في مدينة "باطلي بترا"، وبعد أن تدارسوا هذا الأمر جمعوا بعض هذا التراث في عدّة أسفار، ولكنّهم بنتيجة اختلافهم حول بعض المصادر، وفشلهم في جمع الناس حول ما اتّفقوا عليه، تأجّلت كتابة القانون الجينيّ حتّى سنة ٥٧ للميلاد. فدوّنوا آنذاك ما استطاعوا الحصول عليه بعد أن فُقد الكثير من هذا التراث بوفاة الحفّاظ والعارفين، وفي القرن الخامس ميلاديّ عقدوا مجلسًا آخر بمدينة "ولابهى" حيث تقرّر الرأي الأخير حول التراث الجينيّ المقدّس. أمّا لغة هذا التراث فكانت اللغة المسمّاة "أردها مجدى". فلمّا اتّجهت النيّة إلى حفظه وتدوينه اختيرت اللغة السنسكريتيّة لهذا الغرض، وكانت لغة "أردها مجدى" هي لغة التراث قبل الميلاد، أمّا اللغة السنسكريتيّة فقد حلّت محلّها في القرون الميلاديّة الأولى[١].

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٢٥.

الفَصلُ الثَّالث

السِّيخ

نشُوء السِّيخ؛

المُصلِح "نَانَاك" مؤسِّس السِّيخ؛ خلفَاء نَانَاك؛

عَقيدة السيخ؛ الكُتب المقدَّسة عندَ السِّيخ؛

مَعابد السِّيخ ونظَام العبادَات؛

السيخ اليوم.



نشوء السّيخ

قدّم باحثون محدثون لموضوع السيخ، على نحو ما نعرفهم اليوم، بأنّهم هم حصيلة ثلاثة عناصر أولية:

أوّلاً: النظام الدينيّ الذي علّمه للناس المعلّم الروحي "ناناك NANAK" في البنجاب خلال العقود المبكّرة من القرن السادس عشر؛ ثانيًا: بنية المجتمع في البنجاب ولا سيّما المجتمع الريفيّ البنجابيّ؛ ثالثًا: حقبة التاريخ البنجابيّ التي تمتدّ من زمن المعلّم الروحيّ "ناناك" حتّى يومنا الراهن. ولا يمكننا أن نفهم السيخ بغير الإشارة إلى هذه العناصر الثلاثة مجتمعة. لقد أضافت الأنماط الاجتماعيّة وضغط الظروف التاريخيّة إلى القاعدة الأساسيّة التي أقامتها تعاليم المعلّم "ناناك" معتقدات وأعرافًا وسلوكًا اجتماعيًّا، شكّلت جميعها طريقًا متميّزًا في الحياة. كما وجد هذا المجتمع تعبيرًا دينيًّا متماسكًا في المذهب الذي عُرف عند السيخ أنفسهم باسم الـ"غورمات GURMAT" والذي عُرف عند الغرب باسم "مذهب السيخ". ويستدرك هؤلاء الباحثون بالقول إنّه لا بدّ لنا أن نسوق هنا كلمة تحذير قبل أن نقوم بأيّة محاولة لوصف هذا المذهب: فمن الأهميّة بمكان ألاّ نحدّد الخطوط بدقّة مبالغ فيها، لأنّ التقسيمات الواضحة الحادّة سوف تكون مضلِّلة في فهم الطبيعة الحقّة لديانة السيخ ومجتمعهم. ولا شكّ في أنّ هناك منطقة للعقيدة وللطقوس يتميّز بها السيخ، غير أنّ الحدود الأبعد من ذلك لمذهبهم تلقى ظلالاً لا تدركها العين في المدى الفسيح للتراث الدينيّ في شمال الهند، ويتّضح ذلك لأوّل

وهلة من الناحية الاجتماعيّة حيث نجد خيوطًا طبقيّة مشتركة تجري أفقيًّا خلال مجتمعَي الهندوس والسيخ، ويصدق الأمر نفسه من الناحية العقائديّة. بيد أنّ مناطق المعتقدات والممارسات المشتركة، لا ينبغي أن تعمل على الخلط بين التميّزات وتشويشها، فمذهب السيخ لا يتوحّد تمامًا مع التراث الهندوسيّ، ولا يتميّز تمامًا عنه. وثمّة مقياس للتوحيد يُعْتَدّ به ويمكن أن نجده في مقدّمات فكر المعلّم "تاناك" في القبول العامّ لتصوّرات مثل عقيدة التناسخ، وفي مراعاة أعراف مرتبطة بها ارتباطًا وثيقًا. أمّا التميّزات فنجدها في رفض بعض المواصفات الهندوسيّة العامّة، مثل الدلالة الدينيّة لتقسيمات الطبقات المغلقة، وفي عقيدة الأخوّة بين السيخ أو "الخلسا KHALSA" التي تعني حرفيًا "الطاهر النقيّ"، وإصرار السيخ أنفسهم على التميّز[1].

أمّا المسرح الأصليّ لنشأة السيخيّة فهو شماليّ الهند في البنجاب، والنشأة لم تكن منفصلة ولا مغايرة لمفاهيم كثيرة تنتشر في بلد النشأة. والدارس للسيخيّة من كلّ الجوانب يعثر على مؤثّرات هندوسيّة كثيرة، وكذلك على مؤثّرات إسلاميّة ومؤثّرات صوفيّة بشكل خاصّ.

المُصلِح "نَانَاك"

مؤسِّس السِّيخ

إعتُبر المصلح "نَاناك NANAK" الهنديّ المولد، الهندوسيّ الإنتماء الدينيّ، الذي عاش في مناخ إسلاميّ، أنّه حاول خلق ديانة واحدة من الإسلام والهندوسيّة، عُرفت بمذهب "السك"، أو "السيخ" كما يُعرف باللغة العربيّة[2]. ومع أنّه تتوافر مادّة غزيرة

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص٣٢٧.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٠٤.

حول حياة المعلّم الروحي "ناناك"، ولا تزال أعظم أشكال النثر البنجانيّ شعبيّة حتّى الآن، هي تلك التي تُسمّى "جنام ساخي JANAM SAKHI" أي "شواهد الميلاد" للمعلّم، غير أنّ شواهد الميلاد هذه إنّما هي أقرب إلى سير حياة القدّيسين، وهي روايات تفيض بالورع، وتضفي المثاليّة على "ناناك"، ولكنّها لا تنقل لنا إلاّ النزر اليسير عن حياته الفعليّة. ويُستنتج من تلك المدوّنات أنّ "ناناك" قد ولد عام ١٤٦٩م، والمكان الحقيقيّ الذي وُلد فيه موضع خلاف، ولكن لا يمكن أن يكون هناك شكّ في أنّ والدَيه ينتميان إلى قرية "تلفاندي TALVANDI" التي تبعد أربعين ميلاً جنوب غرب "لاهور"، وتُعرف الآن باسم "ننكانا ـ صاحب NANKANA SAHIB" ولقد قضى ناناك طفولته وشبابه في هذه القرية ولم يتركها إلاّ بعد أن تزوّج وأنجب غلامَين. ثمّ انتقل، وهو لا يزال شابًّا، إلى مدينة "سلطانبور SULTANPUR"، وهناك دخل في خدمة "النائب" المحلّيّ. وفي أواخر سنة ١٥٠٠ غادر هذه المدينة وتبنّى حياة الزهّاد المتجوّلين. ويصف كتاب "شواهد الميلاد" تنقّلاته وصفًا مسهبًا، ولكنّه لا يقدّم إلاّ أقلّ القليل ممّا يمكن الاعتماد عليه. ومن الواضح على كلّ حال أنّ المعلّم لا بدّ أن يكون قد أنفق عدّة سنوات وهو يتجوّل داخل الهند بهذه الطريقة، ومن الممكن أن تكون تنقّلاته وأسفاره قد ذهبت به إلى مسافات نائية خارج حدود الهند. ويتّضح من الإشارات التي ذكرها في كتبه أنّه شهد جانبًا من غزوات أمبراطور المغول "بابير BABUR"، وأنّ شخصًا ما تبرّع له بقطعة أرض تقع على ضفاف نهر "رافي RAVI"، فأقام عليها قريته المسمّاة "كارتر بور KARTUR PUR"، ومن الواضح أنّه قضى معظم سنوات حياته المتبقّية في هذه القرية إلى أن مات هناك قرب نهاية العقد الرابع من القرن السادس عشر حوالى شهر أيلول (سبتمبر) ١٥٣٩[١].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص٣٢٧.

وفي رواية أكثر تفصيلاً، جاء أنّ والد ناناك، وهو نبيل من أتباع "كبير"[1]، عندما كان لا يزال في الثلاثين من عمره، ولدت زوجته الصالحة، في مدينة "تالوندي" قرب إقليم "لاهور" بالهند، ولدًا أسمياه ناناك[2]، وكان ذلك عام ١٤٦٩. وكان الوالدان من عشيرة "خاتي" المتحدّرة من الأشراف، لكنّ العائلة لم تكن في عداد الأغنياء. وقد حكم البلدة آنذاك هندوسيّ تحوّل لاحقًا إلى الإسلام، لكنّه ظلّ متسامحًا مع أتباع الدين القديم، ودعا إلى التوفيق بين الديانتَين[3].

وكما حدث مع "كبير" من قبل، اهتمّ ناناك بدراسة الدين، ولكنّه كان يكره أن يقوم بأيّ عمل، حتّى أنّ أباه عجز عن أن يجعله يعمل من أجل أن يكسب القوت، وقالت أمّه لأبيه: "لعلّه إذا تزوّج وأصبحت له أسرة يعيلها، يجد نفسه مرغمًا على العمل". واقتنع أبوه بالفعل، فزوّجه وأنجب ولدَين. لكنّ الفتى ظلّ كارهًا للعمل بالرغم من أنّ أباه وجد له عملاً كموظّف حكوميّ. فإنّ الفتى، بدلاً من أن يذهب إلى عمله كلّ صباح، كان ينطلق إلى الغابات يحلم أحلام يقظته، ويفكّر في عقيدة شعبه، ويقرأ أشعار "راماناندا" و"كبير"[4]. بينما تذكر مراجع أخرى[5] أنّ زوجة ناناك وابنَيه بقوا مع والدَيه وذهب هو إلى بلدة "سلطانبور SULTANPUR" لتسلّم وظيفة حكوميّة. وهناك راح يؤدّي واجباته بجدّ، ويقضي الليل في الصلاة والترتيل الدينيّ. وانضمّ إليه صديق مسلم من

---

١ ـ كَبير KABIR (١٤٤٠ ـ ١٥١٨م): داعية هندوسيّ توحيدي تأثّر بالتراث الهندوسيّ وبالقرآن الكريم وببعض الطرق الصوفيّة، جمَعَ مريدوه حكمه وأشعاره في كتاب سمّوه "بيجاك" وسمّوا أنفسهم، أتباع طريقة "كبير" وعددهم اليوم حوالى مليونَي نسمة من الهنود؛ راجع: مظهر، قصّة الديانات، ص١٧٠ـ ١٧٤.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٧٤.

٣ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٤٦.

٤ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٧٤ ـ ١٧٨.

٥ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٤٦؛ بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص٣٢٧.

بلدته، هو "ماردانا MARDANA" الذي كان ذا أثر مهمّ في عمل ناناك التبشيريّ، وأصبح الإثنان نواة حلقة دينيّة. وماردانا هذا كان عازف ربابة، وبرفقته بدأ ناناك ينظم بعض الأناشيد التي كان ينشدها على ألحان ربابة ماردانا، ومعًا أسّسا فرقة للإنشاد الدينيّ، والإنشاد أمر معتمد عند معظم المتديّنين، وكذلك تعاونا معًا في إقامة مطعم شعبيّ كان يقصده مسلمون وهندوس من مختلف الفئات، وكلّ ذلك أمّن للمعلّم ناناك أوسع اتّصال مع الناس.

وذات يوم وهو في الثلاثين من عمره، بينما كان ناناك يستحمّ في نهر وسط غابة، حصلت له خبرة روحيّة بدأت بعدها رسالته. وتقول الرواية إنّه اختفى بين الأشجار وانتقل إلى الحضرة الإلهيّة، وأعطاه الله كوبًا من شراب مقدّس وخاطبه قائلاً:

> أنا معك، لقد جعلتك سعيدًا، وسأمنح السعادة كلّ مَن يتبعك. إذهب وبشّر باسمي، ودع الآخرين يقلّدونك. إيّاك أن تلوّث نفسك بالعالم، بل مارس الصلاة وفعل الخير والتأمّل. لقد قدّمت إليك هذه الكأس علامة لعطفي عليك...

ويُقال إنّ ناناك تفوّه بصلاة أمام اللّه أصبحت، منذ ذلك الحين، صلاة السيخ الصباحيّة:

> هناك إله واحد، اسمه الحقّ والخالق، وهو أزليّ وغير مولود وموجود بذاته وعظيم ورحيم، وسوف يبقى إلى الأبد.

وبناءً للنداء الإلهيّ العلويّ، بات ناناك الرسول المبعوث للمسلمين والهندوس ولكلّ الطبقات الإجتماعيّة وكذلك للفضلاء من الناس والصالحين. وبعد ثلاثة أيّام خرج من الغابة لينطق عبارته الشهيرة:

> ليس هناك هندوسيّ ولا مسلم.

وكانت تلك بداية حملة تبشيريّة للدين الذي أراد له مؤسّسه أن يعمّ بلاده والعالم[1].

ثمّ عاد ناناك من الغابة ليدخل بيته ويعلن أنّه قد أصبح "الغورو". وسألته زوجته: "ولكن، ما هو الغورو"؟ ـ فقال لها ناناك: "الغورو هو معلّم العقيدة الجديدة". وسأله أبوه: "وما هي هذه العقيدة الجديدة التي تعلّمها"؟ ـ فأجاب ناناك: "ليس هناك هندوسيّة ولا إسلام". وقالت أمّ ناناك: "كيف يمكنك أن تقول مثل هذا القول؟ ألا ترى أنّ في بلادنا ملايين من الهندوسيّين وملايين من المسلمين" ـ أجاب ناناك في ضيق: "إنّ ما قصدته هو أنّ تعاليم البرهميّة خطأ، وأنّ تعاليم الإسلام خطأ أيضًا". وسأله أبوه: "فمَن هو صاحب التعاليم التي هي على صواب"؟ ـ وبدأ ناناك يشرح تعاليمه الخاصّة بالإله الواحد، وبأنّه لا توجد طوائف، وبأنّه من الإثم أن يعبد الناس الأصنام. وقال أبوه: "لست أرى فارقًا بين تعاليمك وتعاليم كبير". أجاب ناناك: إنّ "كبير" يعلّم الناس ألاّ يأكلوا اللحم... ولكنّي أعلّم أنّه من الممكن أن يأكله الناس شرط أن يُذبح الحيوان الذي يؤكل لحمه بضربة واحدة من سيف. ثمّ إنّي أعلّم أيضًا أنّه لكي يعبد الناس الإله الواحد الحقّ، لا بدّ من إمام هو الغورو. وأنا أوّل غورو في عقيدتي الجديدة، وسأخرج في البلاد وأبشّر بها بين الناس".

وانطلق ناناك ومعه تابعه ماردانا، يتجوّلان في جميع الأنحاء. وكلّما دخلا سوقًا أو التقيا بجماعة كبيرة من الناس، وقف ناناك وانطلق ماردانا يغنّي ويرتّل، حتّى إذا أحاط الناس بهما نهض ناناك يتحدّث إليهم ويبشّر بعقيدته التي تقوم على التوحيد والمساواة كالمسلمين كما تقول بالتناسخ كالهندوس. وراح ناناك يجوب بلاد الهند من سيلان في أقصى الجنوب إلى كشمير في أقصى الشمال، وبلاد العرب في الغرب[2].

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٣٦ ـ ٤٧.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٧٥ ـ ١٧٦.

أراد ناناك أن تعمّ عقيدته بلاده وتجتاز حدودها، لكنّها اقتصرت على بعض أجزاء الهند. ولم تعرف الجماعة نجاحًا ملحوظًا حتّى وصلت إلى البنجاب. وكان ناناك في التاسعة والستّين عندما مات رفيقه ماردانا، فعيّن أحد التلاميذ، واسمه "آنغاد ANGAD"، خليفةً له[1]. وبعد قرنَين على وفاة نَانَك ظهر المرشد "غووند" وهو الذي نظّم المذهب ونشره ودافع عنه حتّى استقرّ في الهند كدينٍ يُضاف للأديان السابقة دون أن يستطيع الجمع بينها[2].

خلفَــاء

نَانَــاك

خلف ناناك في إمامة العقيدة "آنغاد ANGAD" (١٥٠٤ ـ ١٥٥٢) الذي أصبح الغورو الثاني، وقد اختاره ناناك بنفسه لهذه المهمّة قبل وفاته كما ذكرنا، غير أنّ آنغاد لم يكن ذا أثر كبير في مجرى تطوّر السيخيّة. ولمّا مات آنغاد خلفه الغورو الثالث "عمار داس AMAR DAS" (١٤٧٩ ـ ١٥٧٤) الذي بدأ بعمليّة بلورة للشخصيّة السيخيّة، فحدّد لأتباعها بعض الطقوس الخاصّة بالزواج والموت وسائر وجوه الحياة، واعتمد الاغتسال في طقوسهم في الأعياد، وركّز على زيارة الأنهار على طريقة الهندوس، وأحدث تطوّرًا آخر حيث انتقل بالسيخ إلى الريف لينشر دعوته بين الريفيّين بعد أن كانت محصورة في عهد المؤسّس وخليفته آنغاد بين سكّان المدينة. وجاء دور الخليفة الرابع الغورو "رام داس RAM DAS" (١٥٣٤ ـ ١٥٨١) وهو زوج ابنة "عمار داس"،

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٤٦.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٠٤ ـ ١٠٥.

وهو أيضًا من طبقة الـ"خاتري KHATRI"، وهي، كما ذكرنا في التعريف بالهندوسيّة، في طبقات الهندوس أدنى من الـ"كشاتير". وقد ألّف أناشيد أُضيفت إلى التراث السيخيّ، أُدخلت خمسة منها في نصوص كتاب السيخ المقدَّس "آدي غرانث ADI GRANTH"، وما صاغه هو تأمّلات في اللّه تعالى الذي لا تدركه الأبصار، ولا شكل له. والغورو عمار داس هو الذي أسّس مدينة "أمريتسار AMRISTAR"، وقد اشتهر "رام داس" بتواضعه وتحرّره من الطبقيّة، وتجلّت روح السيخ الأصيلة المسالمة في كلّ ما فعل. وانتهج الجماعة في أيّامه النصيحة التالية: "إذا عاملك أحد بالسوء فتحمّل ذلك. وإذا تحمّلت السوء ثلاث مرّات، فاللّه نفسه سيحارب عنك في المرّة الرابعة"[1].

أمّا الغورو الخامس "آرجون ARJUN" (١٥٦٣ ـ ١٦٠٦) فقد اختاره للمنصب والده "رام داس"، وكان استلم المسؤوليّة وهو لا يزال شابًّا حيث خلف والده عام ١٥٨١، ويُعدّ بحقٍّ من مؤسّسي السيخيّة الأساسيّين، فلقد اختار مركزًا له هو "أمريتسار"، وفي عهده وبإشرافه بنى السيخ معبدهم الرئيسيّ المسمّى المعبد الذهبيّ، والذي لا يزال حتّى يومنا هذا الموقع الأكثر قداسة عند السيخ. وحقّق إنجازات، من أهمّها إكمال بحيرة أمريتسار الاصطناعيّة، كما جمع أقوال ناناك وعظاته وأشعار "رامانادا" و"كبير" في كتاب واحد سمّاه "صاحب المواهب" أصبح هو "الكتاب المقدَّس" أو "آدي غرانث ADI GRANTH" أو "غرانث صاحب GRANTH SAHIB" لأتباع ناناك الذين سمّوا أنفسهم بـ "السيخ" أي المريدين. وكان نصف تراتيل الغرانث من نَظْم آرجون نفسه، ومعظم النصف الآخر من ناناك. وهناك تراتيل من نظم الخلفاء الثاني والثالث والرابع، مع أشعار من "جايديف" و"كبير" وسواهما. وحاول الغورو آرجون أن ينشر العقيدة التي

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٤٧ ـ ٤٨.

بشّر بها ناناك، ولكنّ زعماء العقائد الأخرى لم يحبّذوا تعـاليم السيخ واعترضوا على عمل آرجون التبشيريّ[1]. بيد أنّ المجموعة لقيت إعجاب كبار القوم من صفوف السيخ وخارجها. وعرف الأمبراطور المسلم "أكبر" عن تلك المجموعة مـن مستشـاريه الذيـن عدّوها من أعمال الكفر. إلاّ أنّ "أكبر" كان متسامحًا. وبعد قراءته كتاب السيخ المقـدَّس لم يجد فيه خطرًا، بل زار الغورو آرجون وطمأنه إلى حمايته. ولكن حين توفّي "أكبر" خلفه ابنه "جاهانغير" الذي عُرف بتعصّبه وعنفه، وألقـى القبـض علـى آرجـون بتهمـة التآمر، وظلّ يلاحقه ويضطهده حتّى وفاته سنة ١٦٠٦[2].

تولّـى بعده الغـورو السـادس آرجـون ابنـه "هـارغوبند HARGOBIND" (١٥٩٥ ـ ١٦٤٥). وكان آرجون قد ترك لابنه وخليفته النصيحة الآتية: "إجلس بسـلاحك الكـامل فوق هذا العرش، واتّخذ لنفسك أفضل جيش ممكن". وقـد أطـاع الإبـن نصيحـة والـده. ولدى مبايعته رفض أن يلبس العمامة والقلادة اللتَين تسلّمهما من أسلافه لأنّهما علامـة المساومة. وعوض ذلك امتشق سيفه وأحـاط نفسـه برجـال أشـدّاء، وبنـى أوّل حصـن للسيخ. وفـي عهده مـال السيخ إلـى ممارسـة السلطة فـي منـاطق انتشـارهم بوجهَيها السياسيّ والعسكريّ، وقد كان ذلك جديدًا في مذهبهم، ولم يمنعهم ذلـك مـن المحافظـة على الأسس التي وضعها المعلّم الأوّل ناناك. ونما جيشه هـارغوبند حتّـى صـار يضـمّ آلاف الرجال الذين موّلهم من خزينة المعبد الذهبيّ فـي أمريتسـار. ومنـذ ذلـك الحيـن أدرك الحكّام المسلمون قوّة الجماعة، وعرفوا أنّ في إمكانهـا تهديـد النظـام فـي شـمال غـرب الهنـد. وبـالفعل، فقد شـنّ هـارغوبند حربًـا علـى الحكـم، ولكنّـه أُسـر علـى يـد

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٧٤ ـ ١٧٨؛ صعب، الأديان الحيّة، ص٤٧ ـ ٤٨.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٤٧ ـ ٤٨.

جاهانغير الذي كان قد اضطهد والده، لكنّه أُطلق بعد دفع غرامة ماليّة[1].

خلف هارغوبند حفيده الغورو السابع "هار راي HAR RAI" (١٦٣٠ ـ ١٦٦١)، وقد تولّى رئاسة السيخ وسُمّي معلّمهم عام ١٦٤٤. وقد آثر هار راي المسالمة والعودة عمّا سنّه سلفه، وكان عهده مرحلة سلام بالنسبة للسيخ. أمّا الغورو الثامن "هار كريشان HAR KRISHAN" (١٦٥٦ ـ ١٦٦٤) فقد سمّاه والده "هار راي" لمنصب الغورو، وكان له ذلك وهو طفل سنة ١٦٦١، ولكنّه لم يعش طويلاً وأُصيب بالجدري وكانت وفاته سنة ١٦٦٤ عن عمر ثماني سنوات. وأصبح الغورو التاسع "تاج بهادور - TEGH BAHADUR" (١٦٢٢ ـ ١٦٧٦) وهو ابن هارغوبند، وكان يميل إلى المسالمة وعدم اعتماد المواجهة والحرب، ومن بعده آلت القيادة إلى ابنه الغورو العاشر "غوبند سنغ GOBIND SINGH " (١٦٦٦ ـ ١٧٠٨) الذي تسلّم القيادة سنة ١٦٧٦ وهو ابن عشر سنوات، فكان الغورو الأخير، حسب مذهب السيخ. وقد وضع غوبند إضافات نوعيّة في نظام السيخ حيث حوّلهم إلى مؤسّسة عسكريّة بكلّ ما للكلمة من معنى.

كانت رغبة جماعة غوبند سينغ الانفصال عن المسلمين وتأسيس دولة خاصّة بهم. وكان غوبند شديد البأس وحكيمًا، وأدرك أنّ السيخ كانوا أضعف من خصومهم. لذا مكث برجاله عشرين عامًا في جبال الهملايا ليتعوّدوا حياة الخشونة والحروب، ثمّ نزل بهم إلى البنجاب لتدور بينهم وبين حاكمها حروب طويلة امتدّت اثنَي عشر عامًا وهلك فيها آلاف من زهرة أتباع السيخ. وإذ كان غوبند يتحيّن الفرصة للحرب، راح يكتب الشعر على هيئة تراتيل قتاليّة. وجُمعت تلك التراتيل في كتاب سُمّي "غرانث الغورو العاشر" وأُلحق بالغرانث الأوّل. ويُقال إنّ غوبند سينغ وضعه ليُلهب جماعته على

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٤٧ ـ ٤٨.

القتال، بعدما أدرك أنّ قراءة الغرانث الأصليّ تجعل منهم أناسًا مسالمين. وعندما اشتدّ التسلّط المغوليّ على السيخ عام ١٦٩٩، أعلن "غوبند سينغ" ابتكاره الأكبر وهو طقس سمّاه "معموديّة السيف" قائلاً إنّه وحي من اللّه، ثمّ كان ابتكاره الثاني الذي لا يقلّ أهميّة عن الأوّل: "الخالصة KHALSA " التي تعني "المخلصون للسيخيّة" و"الأطهار الأنقياء" واكتسبوا اسم "سينغ" ومعناه الأسد، وتعاهدوا على الدفاع عن أنفسهم وعن دينهم الجديد. وكان "الخاصة" عند "معموديّة السيف"، يتناولون شرابًا محلّيًّا يغطّس فيه السيف، فيصرخ الجماعة على الأثر: "الأطهار هم من اللّه، والنصر للّه". وأصبح إسم "سينغ" يُطلق على الرجل من السيخ. أمّا المرأة فباتت تُدعى عندهم "كير KAUR" أي اللبوة. وفي الخامس من نيسان (إبريل) ١٦٩٩ عمّد غوبند سينغ خمسة من السيخ ونظّمهم في "الخالصة". وكان على أفراد جماعة "الخالصة" إطلاق شَعر رؤوسهم ووجوههم وحمل خنجر وارتداء ملابس خاصّة. وتعهّدوا بعبادة اللّه الواحد غير المنظور وإجلال الغورو وكتابهم المقدّس. واتّبعوا نظامًا صحّيًّا في المأكل والمشرب والراحة. وهذه الأخويّة الجديدة للأنقياء أو "الخالصة"، ألزمت أتباعها بنظام زهد وتقشّف مع الامتناع عن شرب الخمر والتدخين وأكل لحم الخنزير. على أنّه لم يصبح كلّ واحد من السيخ "أسدًا"، بل بقي بعضهم مسالمين على غرار ناناك[١].

خسر الغورو "غوبند سينغ" ابنَيه في الحرب، بعدما وضع عليهما الأمل في خلافته، وطُرد من البنجاب. وكان قد أعلن انتهاء عهد المرشدين "الغورو" في السيخ من بعده، وقُتل هو نفسه على يد أحد المسلمين. وكان قد أوصى جماعته أن يعتبروا كتاب الغرانث بمثابة الغورو من بعده. وأضاف إلى كتاب السيخ المقدّس "آدي غرانث

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ١٧٤ ـ ١٧٨؛ صعب، الأديان الحيّة، مرجع سابق، ص ٤٩.

صاحب" أدبيّاته التي جمعها في كتاب أسماه "داسام غرانث DASAM GRANTH"، ومنذ ذلك الحين يُعامَل الغرانث في معبد أمريتسار الذهبيّ كما لو كان يحمل الصفات الإلهيّة، فيوضَع صباحًا على عرش منخفض تحت قبّة فضيّة بعد إلباسه حلّة ثمينة، وفي المساء يوضع على سرير ذهبيّ داخل غرفة مقدّسة معزولة تمامًا عن العالم[١].

وبفضل هذا المنحى الجديد، الذي اتّخذه مسار الحياة السيخيّة القائم على العمل العسكريّ، استطاع قائد السيخ بعد غوبند سينغ، بندابهادر توجيه ضربات موجعة للمغول واستطاع السيخ أن يؤسّسوا مملكة ضمّت معظم إقليم البنجاب واستمرّت ثماني سنوات، وبعدها تمكّن منه المغول واعتُقل مع سبعمائة من أتباعه وتمّ إعدامهم في دلهي صيف ١٧١٦. وفي أيّام الاستعمار البريطانيّ، قاوم جماعة السيخ، وكانوا قد سيطروا على مقاطعة البنجاب كلّها، الجيش البريطانيّ الذي حاول إخضاعهم عام ١٨٤٥ ثمّ عام ١٨٤٨، إلى أن استسلم حاكمهم عام ١٨٤٩. وبعد ذلك قام تعاون وثيق بين السيخ والبريطانيّين الذين أُعجبوا بتلك الفئة لشجاعتها وأكلها اللحوم. ولكن بعد تقسيم الهند سنة ١٩٤٧، جُزّئت مقاطعة البنجاب بين باكستان والهند، ووقعت أمريتسار تحت سيطرة الهندوس، وصار السيخ يحاربون ضدّ الهندوس والمسلمين معًا. واشتدّت نزعتهم الانفصاليّة حتّى باتوا ينظرون إلى أنفسهم كما لو كانوا عرقًا قائمًا في ذاته[٢].

---

١ - أديب صعب، الأديان الحيّة، مرجع سابق، ص ٤٩.

٢ - أديب صعب، الأديان الحيّة، ص٥٠.

عقيدة السيخ

قامت عقيدة السيخ على التوحيد والتسليم بسيادة اللّه الخالق على كلّ شيء. وعمليّة الخلق عندهم ضرورة لإظهار قدرة اللّه تعالى. وقد فسّروا عمليّة الخلق على الوجه التالي: "مضى زمن لم يكن فيه سماء ولا أرض ولا نهار ولا ليل، ولا شمس. وقد خلق اللّه العالم بأقسامه الجوهريّة وعناصره الأساسيّة وعناصره الوسيطة والثانويّة. واللّه قضى أن يكون الإنسان أعلى مخلوقاته، وأن تكون بقيّة المخلوقات في خدمته. وهذا جعل السيخ يأكلون اللحوم[1].

دعا ناناك إلهه "الإسم الحقّ" لكي يتجنّب أن يُطلق عليه اسمًا مثل اللّه أو راما أو شيفا أو فيشنو. وإذا كان لا بدّ من إطلاق اسم عليه، فليكن صفة "هاري HARI" التي تعني "العطوف"، لأنّ العطف أفضل صفة للّه[2]. ففي أوّل مؤلّف من كتب السيخ المقدّسة تشديد على وحدانيه اللّه. واللّه عند المعلّم "ناناك" شخصيّ وواحد، وهو الخالق، المفارق، المتعالي الذي يجب أن يرتبط به ارتباطًا وثيقًا أولئك الذين يبحثون عن الخلاص. وهذا السعي من أجل الخلاص هو الذي يهمّ "ناناك" الذي يكرّر القول بأنّ طريق الخلاص هو الذي يشكّل فحوى تعاليمه. ويعبّر المعلّم "ناناك" عن فهمه اللّه بعدد من المصطلحات. فالمصطلح الأوّل هو "نرنكر NIRANKAR" أي "ما لا شكل له". ومن أبرز ما يَصف به اللّه أنّه "هو الواحد الذي لا شكل له"، والصفة الثانية للّه هي "أكال AKAL" أي "الأزليّ"، والثالثة هي ألكال ALKAL" أي "ما لا يوصف" وهناك تأكيد

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٤٧.

٢ ـ المرجع السابق.

خاصّ على أهمّيّة هذه الصفة الأخيرة. ولقد استخدم المعلّم كلمات لا حصر لها للتعبير عنها: فكيف يمكن للمرء أن يعرف اللّه؟ الجواب الأوّل للمعلّم "ناناك" يقول بـ"أنّ المرء لا يستطيع أن يعرف اللّه، لأنّ اللّه في تمامه يجاوز كثيرًا فهم الموجودات الفانية". غير أنّ هناك إجابة ثانية تقول: "إذا كان اللّه في تمامه، لا يمكن معرفته، فليس عدم إمكان معرفته تامًّا"، ذلك لأنّه أيضًا هو إله النعمة الذي بعث بوحي يمكّن للإنسان العادي محدود العقل فهمه، وهو الوحي الذي يتجلّى في الخلق، فاللّه "حاضر في كلّ مكان، ويمكن لعين الشخص اليقظ روحيًّا أن تراه في كلّ مكان". ولهذا الوحي العامّ بؤرة مركزيّة معيّنة هي القلب البشريّ، ولا بدّ للمرء من أن يكون قادرًا على الرؤية بعينه الخارجيّة، ولا بدّ له، أوّلاً، من أن يكون قادرًا على الرؤية بعينه الداخليّة، ولا بد للتأمّل من أن يتمّ في الباطن، وسوف تُتاح للشخص المتأمّل بهذه الطريقة استنارة تدريجيّة تؤدّي في النهاية إلى الخلاص. وللوحي المتجلّي في الخلق أهميّة بالغة عند المعلّم "ناناك"، إذ يمكن عند هذه النقطة أن يتمّ الاتّصال بين اللّه وبين الموجوادات البشريّة. ولا يمكن لطريق الخلاص الذي يهبه اللّه أن يوجد إلاّ إذا فهم هذا الاستبصار وطبّق بصرامة[1].

أمّا الأثر الهندوسيّ في عقيدة السيخ فيتجلّى في قولهم بأنّ العالم غير حقيقيّ. "إنّه وهمٌ يتقلّب مثل التماع البرق الخاطف". وآمن ناناك بقانون العودة المتكرّرة، فدعا أتباعه إلى إطاعة اللّه لئلاّ تُكتب لهم العودة. وما عليهم إلاّ التفكير الدائم في اللّه وتكرار اسمه والذوبان فيه. فالخلاص هو الذوبان أو الفناء في "الإسم الحقّ"[2]. وقال بأنّ العقبة الرئيسيّة التي تعوق عمليّة السعي إلى الخلاص هي الوضع البشريّ، فالناس

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص٢٤٢.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٤٧.

في ضلالهم واقعون في عبوديّة العالم، لأنّ ولاءهم للعالم ولقيمه، وهذا التعلّق بالعالم يسجنهم داخل دورة تناسخ لا نهاية لها من الميلاد والموت. فالعدوّ العظيم هو "المايا MAYA " أي الـ"لاواقع" أي "الوهم" أو "العدم" أو الـ"لاوجود" و"المايا" عند المعلّم ناناك لا تعني نظريّة عن اللاواقعيّة المطلقة عن العالم ذاته، بل هي بالأحرى عن لا واقعية القيم التي تمثّلها. "إنّ العالم يقدّم كيفيّات يقبلها الناس على أنّها خيِّرة ومرغوبة في آن واحد، مع أنّها وَهْمٌ وخداع". وأولئك الذين يقبلون العالم على هذا النحو، ويسعون بالتالي إلى تحقيق الخلاص عن طريق التعلّق بالقيم الدنيويّة، هم ضحايا "المايا"، ضحايا الوهم الذي يصوّر لهم أنّ هذه التعلّقات، إن لم تكن هي الحقيقة في ذاتها، فهي على الأقلّ ليست معادية للحقيقة. ونتيجة هذا التعلّق أو الولع بالعالم هي التناسخ أو عذاب الموت بعد الموت، بدلاً من الفرح الأزليّ بالرؤية السعيدة ، ذلك لأنّ مصير الضالّ الذي لا يتوب ولا يندم هو الانفصال الدائم عن اللّه. فإنّ وضع الضالّ الجاحد وضع يائس، ولكنّه لا يعدم الأمل. ذلك لأنّ اللّه بفضله ونعمته قد كشف عن نفسه في خلقه، ويمكننا أن نظفر بالخلاص عندما نحوز على هذا الكشف. والمصطلحات الرئيسيّة التي يستخدمها ناناك ليعبّر بها عن هذا الكشف الإلهيّ هي: "نام NAM"، "سهاباد SHABAD"، "غورو GURU"، و"حوكام HUKAM". فالمصطلحان الأوّلان: "نام" أي "الاسم الإلهيّ" و"سهاباد" أي "الكلمة الإلهيّة"، مترادفان، وكلّ مصطلح منهما يصلح لتخليص الكشف أو التجلّي الإلهيّ في شموله. وكلّ ما يُقال عن اللّه هو جانب من الإسم الإلهيّ أو الكلمة الإلهيّة. لكنّ الإنسان، في حالة الضلال وعدم التوبة، يفشل في إدراك تجلّيات الحضور الإلهيّ، وهذه التجلّيات هي التي يوضّحها له المعلّم الروحي "غورو الثالث"، أو "المرشد الإلهيّ" الذي يدلّ في استخدام ناناك على صوت اللّه الذي ينطق بطريقة غامضة داخل الجانب الباطن من فهم الساعي اليقظ المتهيّىء للخلاص.

أمّا لفظ "حوكام" الذي يعني "النظام الإلهيّ"، فهو يعبّر عن طبيعة الكشف الإلهيّ أو التجلّي، ويتحتّم على النّاس أن يفهموا النظام الإلهيّ للكون، ماديًّا ونفسيًّا، وأن يكافحوا لكي يصلوا بأنفسهم إلى الانسجام معه، وبلوغ هذا الانسجام معناه الخلاص. وبنتيجة التطبيق المنظّم لمصطلح "تام سيمرام" أي "تذكّر اسم اللّه"، يكون النموّ نحو اللّه، والنموّ في اللّه. وهي عمليّة متدرّجة شبّهها المعلّم "تاناكّ بسلسلة من المراحل الصاعدة، وخامس هذه المراحل وآخرها هي المسمّاة "ساخ كهاند SACH KHAND" أي "عالم الحقيقة"، وهي الإتمام النهائيّ أو الإنجاز الأخير، حيث تجد الروح اتّحادها الصوفيّ باللّه. وفي هذا الوضع الذي تشعر فيه بسعادة لا يمكن وصفها تتحطّم معها أغلال التناسخ، وتبلغ الروح مرحلة الانعتاق المطلق باندماجها في اللّه[1].

الكتُب المقدَّسة عندَ السِّيخ

ذكرنا سابقًا أنّ كتاب "غورو غرانت صاحب GURU GRANTH SAHIB". يحتلّ مكانة السلطة المطلقة التي احتفظ بها السيخ منذ آخر "غورو"، وهو الغورو "غوبند"، ولهذا الكتاب دلالة مركزيّة مطلقة في الحياة اليوميّة للسيخ المؤمنين، وفي احتفالات السيخ جميعًا حيث يُعرف بصفة عامّة باسم "كتاب السيخ المقدّس" المصمود دومًا في معابدهم "غودوارا". وهذا الكتاب، على ما يبدو، هو نفسه كتاب "آدي غرانت"، إذ هناك مجموعتان من الكتابات التي ترتفع إلى مرتبة الكتب المقدّسة لجماعة السيخ، رغم أنّ

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص٢٤٢ ـ ٢٤٣.

إحدى هاتَين المجموعتَين واسمها "آدى غرانت ADI GRANTH" هي التي تتمتّع بوضع تشريعيّ لا خلاف عليه، أمّا الأخرى اللاحقة لها "داسام غرانت DASAM GRANTH" فلها أهميّة متميّزة.

والمجموعة الأولى "آدى غرانت ADI GRANTH" الذي يعني اسمها حرفيًّا "المجلّد الأوّل"، جُمعت خلال عامَي ١٦٠٣ و١٦٠٤ بواسطة المعلّم الروحيّ "آرجان ARJAN". ويستخدم هذا المعلّم في المجموعة تصنيفًا آخر كان قد تمّ إعداده في حقبة مبكّرة تلبية لوصية المعلّم "عمار داس"، ثمّ أضاف إليه مؤلّفاته الخاصّة ومؤلّفات والده المعلّم "رام داس"، وبعد ذلك لم تُضَمّ للمجموعة سوى أعمال قليلة أضافها المعلّم الروحيّ "تاج بها دوره"، ثمّ اكتمل التشريع أثناء فترة المعلّم الروحيّ "غوبند سنغ" أو بعدها بقليل. وفضلاً عن ترنيمات المعلّمين، فقد أضيف عدد من مؤلّفات شخصيّات مبكّرة في "تراث سانت SANT" اشتهر من بينهم "كابير KABIR" و"نامديف NAMDEV" ور"افيداس RAVI-DAS"، كما أضيفت مجموعة من المقاطع الشعريّة المزدوجة (الكوبلية أو الدويت) تعزى إلى الشيخ فرى "الباك بتانى PAK PTTAN"، ويصنّف المجلّد كلّه تبعًا للوزن الشعريّ "راج"، وداخل كلّ وزن أو بحر تقسيمات فرعيّة أخرى تبعًا للمؤلّف ووفقًا لحجم القصيدة. ومعظم المادة تتألّف من الترانيم التي استخدمها المعلّمون من قبل في إرشادهم الدينيّ، وتكاد تكون كلّها مكتوبة بلغة "سانت بهاشا SANT BHASHA"، وهي لغة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بكلّ من اللغتَين الهندوسيّة والبنجابيّة، كما أنّها لغة استخدمها أصحاب الديانة الشعبيّة على نطاق واسع في أواخر العصر الوسيط في شمال الهند كلغة مشتركة عامّة، والنصّ المكتوب هو "جرميخي GURMUKHI" الذي لا يستخدمه اليوم إلاّ أهل البنجاب[1]. وعلى العموم، يتألّف "آدي غرانث" من ٦,٠٠٠ ترنيمة

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص٢٤٩.

نظمها الغورو الخمسة: "تانك"، و"أنجاد"، و"أمرداس"، و"رام راس"، و"آرجان"، وأضاف إليها "غوبند" سينغ ١١٥ ترنيمة منسوبة لأبيه "تاج بهادور". إلى جانب هذه الترانيم يضمّ "آدي غرانث" ترانيم قدّيس بهاكتي والمسلمين الصوفيّين... وترانيم بعض الشعراء الذين ينتمون إلى حاشية الغورو[١].

في مقابل ذلك، نجد أنّ الكتاب الذي جاء بعد "آدي غر"نت" وهو "داسام جرانت DASAM GRANTH"، لا يُقرأ إلاّ قليلاً في يومنا الراهن، ولقد جُمع هذا الكتاب في القرن الثامن عشر من أعمال متنوّعة تُنسب إلى المعلّم "غوبند سنغ"، وظهرت صحّة هذه النسبة في بضع مؤلّفات قليلة، لكنّ الجانب الأكبر من المجموعة يتألّف من حكايات هندوسيّة، ورواپات عن حيل النساء، ولا يمكن أن يكون ممّا كتبه هذا المعلّم. غير أنّ أهميّة "داسام غرانت" الخاصّة تكمن في الشهادة التي قدّمها عن المثل العليا عند السيخ في القرنَين السابع عشر والثامن عشر، كما ترجع كذلك إلى أنّها مصدر ذو قيمة كبرى لتاريخ السيخ في هذه الحقبة[٢].

والأمر المهمّ عند السيخ، بعد كتابهم "آدي غرانث" هو ما يسمّى بالكافات الخمسة، وهي خمس كلمات بالسنسكريتيّة، تُنسب إلى الغورو العاشر غوبند سينغ، وقد ترافقت مع نظام "الخالصة"، وهو نظام الأخوّة بين السيخ الذي يوحّد جوانب التزامات السيخيّ الدينيّة والاجتماعيّة والعسكريّة. كما يسهل تمييزهم عن الهندوسيّين بخمسة مبادئ يعتبرونها من شعائر عقيدتهم، يُسمّونها الكافات الخمسة التي يصرّون على الالتزام بها وهي[٣]:

---

١ - ENCYCLOPEDIA BRITANNICA.

٢ - بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص٢٤٩.

٣ - مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ١٧٧.

- "الكيسا KESH"، وتعني الشَعر الواجب أن يحافظ عليه السيخيّ الذي انتسب إلى "الخالصة". فعندهم أنّ شعر الرأس واللحية يجب أن يُطلق ولا يُقصّ منه شيء، وهذا الأمر من الأمور التي تميّز السيخ. وحرمة قصّ الشعر بدأت عندهم مع الغورو العاشر والخالصة، حتّى أنّهم يلفّون شعر رؤوسهم تحت عمامة يتميّزون بها حتّى الأطفال في المدارس.

- "كانغا KANGHA"، ووتعني المشط الذي يحمله كلّ واحد من السيخ، وهو لزوم شعر الرأس ولحيته الطويلة ليسرّحه ساعة الضرورة وساعة يشاء.

- "الكاشا KACCHA"، وهو سروال أبيض اللون، قصير لا يتجاوز الركبة، وهو أشبه بشورت عسكريّ، يرتدونه تحت الملابس بخلاف عامّة أهل الهند الذين يكتفون بلبس السراويل الطويلة البيضاء.

- "كارا KARA"، وهو سوار من الفولاذ يضعه كلّ سيخيّ في معصم يده اليمنى، وهو عندهم أشبه ما يكون بتعويذة يظنّون أنّها تُبعد الشرّ والأذى عنهم، وهذا السوار يذكّرهم باللّه.

- "كيربان KIRPAN"، وهو خنجر من الفولاذ، أو مدية، يتمنطق به كلّ رجل من السيخ، ويبدو أنّ هذا الأمر يلازم شخصيّتهم العسكريّة القائمة على فلسفة القوّة التي أصّلها فيهم الغورو العاشر غوبند سينغ.

مَعابـد السِّيــخ
ونظَام العبادَات

بما أنّ "الخلاص" هو غاية عبادة السيخ، فلكـي يحقّق السـاعي إلـى الخـلاص هذه الغايـة عليـه أن يدخـل فـي نظـام للعبـادة، وأن يثـابر علـى تطبيقـه بانتظـام حتّـى يبلـغ الانسجام النهائيّ. وهذا النظام كما أوضحـه "نانـاك" لا علاقـة لـه بالشـعائر الخارجيّـة، كطقوس المعبد، أو صلاة المسجد، أو الحجّ، أو الزهـد. إنّمـا المقصد الوحيد المقبـول للحجّ "والبيت الوحيد الـذي يمكـن قبولـه للعبـادة هـو القلـب البشـريّ الـذي ينطـق فيـه المعلّم الروحـيّ بالكلمـة الإلهيّـة". والمصطلـح الـذي يُسـتخدم، فــي الغــالب، للتعبـير عـن النظـام الـذي يعلّمـه المعلّـم " نانـاك" هـو "نـام سـمرام NAM SIMRAM" أي "تذكّـر الإسـم الإلهـيّ". وقـد كـان التكـرار الآلـيّ لكلمـة معيّنـة أو لمقطـع مـن كلمـة مقدّسـة يعنى ممارسة محدّدة للعبـادة، لكـنّ المعنـى الـذي يضفيـه المعلّـم نانـاك إلـى المصطلـح يتجاوز ذلك بكثير. فهناك أوّلاً إصرار على الجانب الباطنيّ المطلق للنظـام. ثـم توسّـع في الكلمة الواحدة لتصبح نظريّة متطوّرة عن التأمّل. وحتّى هذا التأمّل لا يكفي وصفًـا للممارسة، فالمثل الأعلى هو التعرّض الكامل لكيان المرء أمام الإسم الإلهيّ، والتطابق الشامل لكلّ ما يكونه المرء ويعمله مع النظام الإلهيّ الذي يجد التعبير عنـه فـي الاسم الإلهيّ.

وتعبّر العبـادة المنتظمـة للسيخيّ المخلـص عـن نفسـها فـي ثلاثـة طقــوس: أوّلاً: التلاوة اليوميّة لفقرات معيّنة مـن كتـاب "غرانـت صـاحب" خصوصًـا "الجـابجي JAPJI" للمعلّم "ناناكّ الذي ينبغي تلاوته من الذاكرة بعد النهوض من النوم والاغتسال مباشـرة؛ ثانيًا: الطقوس اليوميّة للأسرة، رغـم أنّهـا ليسـت عامّـة علـى الإطـلاق، فتتجمّـع كثير مـن الأسـر كـلّ صبـاح، ومعهـم نصـوص المعلّـم "غرانـت صـاحب"، ويقـرأ أفرادهـا

فقرات يتمّ اختيارها عشوائيًا؛ ثالثًا: هناك لقاء مع الأسرة الكبرى، وهي أسرة "الخالصة"[1].

بنى السيخ معبدهم الرئيسيّ في "أمريتسار"، بركة الخلود، التي أصبحت المدينة المقدّسة للسيخ، وقد أُسّست بدءًا من العالم ١٥٦٦ بعد أن وهب أرضها السلطان المغوليّ للغورو "رام داس"، ومعبدهم فيها المسمّى "المعبد الذهبيّ" هو مكان حجّ السيخ. وهو من أجمل معابد الهند ومن أروع المباني في العالم. ويأتي السيخ إلى هذا المعبد لتقديم الصلوات "لصاحب المواهب" المقدّس، وكتابه الموضوع في تقديس فوق المذبح الكبير[2]. فـ"المعبد الذهبيّ HARIMANDIR" مع سائر معابدهم التي تُسمّى "غوردوارا GURDWARA" ومعناه "البوّابة إلى الغورو"، يمنعون فيها أيّة صور أو رسوم تشير للإله، فعقيدتهم عقيدة توحيد للّه وتنزيه عن الشبيه وعن التجسيد. والسيخ يستحضرون العالم الخارجيّ في معابدهم حيث تراهم يزيّنونها بـ "أوراق الأشجار والأزهار ورسوم العصافير ورسوم وصور أخرى وصور للغورو ولوحات تنطق بأهمّ المحطّات في تاريخ السيخ، وترتفع فيها موسيقى تتميّز بالقوّة والرصانة"[3]. ومنذ أيّام المعلّم الروحيّ ناناك و "الغوردوارا" يشغل مكانة ذات أهميّة ملحوظة في حياة جماعة السيخ. ونمط العبادة المتّبع في "الغوردوارا" يعتمد أساسًا على إنشاد فقرات من نصوص "المعلّم جرانت صاحب"، وعندما يدخل السيخيّ يعفّر الأرض بجبهته ويقدّم قربانًا. وفي أوقات معيّنة يشترك جميع الحاضرين في تلاوة الـ"أرداسARDAS" أي صلاة السيخ، وهي شكل معيّن من الابتهالات للنعمة الإلهيّة، وتُذْكَر الآلام الماضية

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص٢٥٠.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ١٧٧.

٣ ـ السحمراني أسعد، موسوعة الأديان، دار النفائس، (لبنان، ٢٠٠٢) ص٣٠٩.

التي مرّت بها الجماعة وكذلك أمجادها. وقد نشأت هذه الصلاة إبان القرن الثامن عشر ولم يطرأ عليها منذ ذلك التاريخ سوى تعديلات عرضيّة طفيفة، وهي تُختتم بالإشارة إلى "غورو غرانت صاحب" بوصفها التجلّي الجسديّ للمعلّم، وبالإعلان الشهير: "راج كاريغا خالصة RAI KAREGA KHALSA" أي "الخالصة سوف تحكم"[١].

ويتمّ إقرار أمور طائفة السيخ من خلال طريقة الشورى في المعبد وبالتصويت، والنساء لا تشارك في هذا العمل. وهناك طقس جماعيّ يمارسونه في معابدهم هو المأدبة الجماعيّة التي يقيمونها في الأعياد والمناسبات الاحتفاليّة، و"هذا الواجب التضامنيّ الإنسانيّ يتحقّق من خلال وجبة طعام مشتركة تُعدّ في المعبد من الطحين والسكّر والسمن المصفّى المُذاب". هذه المؤاكلة العامّة تعني عند السيخ أنّ كلّ البشر سواء أمام الإله، وقد أرادوا هذه الطقوس لدحض القاعدة الهندوسيّة التي تقوم على أنّ الناس متفاوتون حسب طبقاتهم، ويُراعى ذلك حتّى في تناول وجبات الطعام[٢].

تجدر الإشارة إلى أنّه لا وجود لنظام كهنوتيّ عند السيخ، وإنّما الراشدون هم الذين يقومون بإحياء الطقوس الدينيّة والشعائر بما في ذلك أداء الترانيم والأناشيد في صلاتهم وسائر مناسباتهم. ومن مجمل المراجعات، يتّضح أنّ الولادة لها بعض المستلزمات الدينيّة، أوّلها إنشاد بعض المقاطع من نصوصهم الدينيّة احتفالاً بالمولود الجديد، وبعد أيّام قليلة يُحضرون الطفل إلى المعبد "الغوردوارا" ويُفتح كتاب الـ "آدي غرانث" ويُعطى المولود اسمًا استنادًا إلى أحرف الكتابة، ويكون عادة الحرف الأوّل من الكلمة الأولى على الصفحة اليسرى. وعندما يتفتّح الوعي عند الطفل يبدأون

---

١ - بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص٢٥٠.

٢ - DELAHOUTRE MICHEL, *LES SIKHS*, ED. BREPLES (PARIS,198)

بتعليمه بعض النصوص المقدّسة من كتبهم، وعند البلوغ يعمّدون أولادهم، ويكون ذلك باحتفال في "الغوردوارا" يسقون المعمَّد فيه شرابًا يسمّونه الرحيق الإلهيّ، وبعدها يعلنون انضمامه إلى الأخويّة المسمّاة "الخالصة". أمّا الزواج عند السيخ فزواج دينيّ بحت، وتتمّ مراسمه في المعبد "الغوردوارا" أمام كتابهم "الغورو غرانت صاحِب". وهي تبدأ بإحضار الخطيبَين أمام "الغورو غرانث صاحِب"، ويرافق ذلك ترتيل أناشيد وترانيم خاصّة، ويُطلب من العروسَين أن يقفا أثناء أداء الصلاة والموعظة ومراسم الزواج من قِبَل الشخص الذي يقود الاحتفال، وبعدها يقوم العروسان اللذان يصلّيان بالانحناء أمام "الغورو غرانث صاحِب" وذلك إشارة إلى أنّهما قرّرا أن يتزوّجا. ثمّ يقوم العروسان بأربع دورات حول "الغورو غرانث صاحِب" ترافقها ترانيم العرس، وبذلك يُختتم الاحتفال. أمّا مراسم دفن الأموات فمأخوذة من الهندوس، والجنائز عند السيخ تعالَج بشكل بسيط جدًّا، حيث يحملون الجثمان إلى مكان مخصوص لإحراق الموتى، وتُحضَّر الجثّة للحرق، ويتمّ حرق الجثمان وسط تواشيح وأناشيد معيّنة تُرتَّل بشكل متواصل، وتُتلى صلاة ابتهاليّة. وبعد إحراق جثّة الميت يتبع السيخ عادةَ الهندوس حيث يلقون رماد الجثمان في أحد الأنهار، ويفضّلون إلقاءها في نهر الغانج المقدَّس.

السيـخ

اليـــوم

يبلغ تعداد السيخ الذين يعيشون اليوم في الهند حوالي ١٢ مليون نسمة، وهم يمثلون نسبة ٣٪ من سكان البلاد، وحوالي ٩٠٪ من هذا العدد الإجماليّ يعيشون في مقاطعتَي "البنجاب PUNJAB" وهاريانا HARAYANA"، وحوالي ٤٪ يعيشون في المنطقة المتاخمة لشمال راجستان ودلهي، ولا يبقى سوى ٦٪ فقط ينتشرون في بقيّة أنحاء الهند. ولقد هاجر عدد كبير منهم إلى بلاد أخرى، ولكن لا تتوافر إحصاءات عن عدد هؤلاء المهاجرين. ولم ترجح كفّة السيخ العدديّة في أيّ مكان من الهند، فهم حتّى في ولاية البنجاب يشكّلون حوالي ٥٠٪ من السكان، وإن كان لهم تأثير كبير يزيد عن حجم تعدادهم لا داخل ولاية البنجاب وحدها، بل كذلك داخل ميادين واسعة من الحياة الهنديّة، وهذا التأثير يشمل القوّات المسلّحة، والنقل والمواصلات، والنشاط السياسيّ والنشاط الرياضيّ. وتنعم جماعة السيخ أيضًا بوضع اقتصاديّ مميّز نسبيًا، وهم يبلغون في التعليم درجة أعلى من المتوسّط في كلّ أنحاء الهند. وردّ باحثون[1] أسباب تميّز السيخ إلى عدّة أسباب أهمّها أنّ الغالبية العظمى منهم تعيش في مناطق عالية الخصوبة. وقد تحالفت البيئة مع رسائل التقنيّة الزراعيّة المتقدّمة، فأنتجت الكفاية الاقتصاديّة، وجلبت في حالات كثيرة رخاءً ملموسًا إلى طبقة المزارعين من السيخ "الجات JAT" أي إلى المزارعين أو الفلاّحين. وليس في عقيدة السيخ أو إيمانهم ما يعوق هذا التقدّم، بل إنّ تحرّرهم بصفة عامّة من العادات والتقاليد المعوقة قد أعطاهم ميّزة كبرى لم يتوانوا عن استغلالها. أمّا طائفتا الـ"خاترى KHATRI" والـ"أرورا ARORA"، وهما من الطوائف الدنيا، فتنعمان كذلك بقدرٍ وافرٍ من النجاح الاقتصاديّ في

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص٢٥١.

الصناعة والحرف والمهن المختلفة. ويمكن تفسير ذلك من ناحية، بأنّه يرجع إلى المهارة التجاريّة الموروثة، كما يرجع، من ناحية أخرى، إلى تأكيد السيخ على أهميّة التعليم. والسيخ اليوم هم وحدهم الذين ينتمون إلى الجماعات المنبوذة التي تعاني عدم الأمان الاقتصاديّ الواسع النطاق، وإن كان وضعهم، بصفة عامّة، أفضل من وضع الهندوس أو الطبقات المسيحيّة المقهورة.

ومن أهمّ مظاهر تحرّر السيخ من العادات والتقاليد المعوّقة، استعدادهم للهجرة إلى بلاد أخرى. ويمكن أن نجد السيخ اليوم في كلّ بريطانيا والولايات المتّحدة الأميركيّة وكندا وأستراليا والدول الاسكندينافيّة وكينيا وأوغندا وتانزانيا وملاوي وزامبيا وماليزيا وهونغ كونغ...، إضافة إلى الدول المجاورة للهند، كباكستان وأفغانستان وماليزيا وبنغلادش وسواها[1].

ظهر في السنوات الأخيرة استعداد لدى شباب السيخ للتخلّي عن الرموز الخارجيّة لعقيدتهم عندما يعيشون خارج الهند، بل أصبح هناك علامات مميّزة لهذا الاتّجاه داخل البنجاب نفسها. وقد كان عدد كبير من المهاجرين الهنود الذين قصدوا إلى المملكة المتّحدة من السيخ قد بنوا المعابد، وفي إنكلترا اليوم خمسون معبدًا للسيخ "غوردوارا GURDIWARA"[2]، كذلك لهم معابدهم في العديد من البلدان التي هاجروا إليها. وإذا كان السيخ غير قابلين للازدياد بشكل ملحوظ عن طريق الانتماء الجديد إلى ديانتهم، فإنّ تكاثرهم الملحوظ عن طرق التوالد يبدو متوسّط المعدّل. غير أنّ ما تجدر الإشارة إليه هو قابليّتهم للتطوّر الاجتماعي، وخاصّة الاقتصاديّ، بشكل مميّز، في محيطهم الهنديّ الذي يتّصف بغالبيّته بالزهد والتقشّف.

---

١ ـ السحمراني، موسوعة الأديان، ص٣٠٩.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص٢٥١.



الفَصلُ الرَّابع

الزَّرَادَشتِيَّة

بيئَة مَنشَأ الزَّرادَشتيّة؛ مولدُ زَرَادَشت ونشأتُه؛

"أهورا مزدا" و"أهرمان"؛ الله هو الموجُودُ الأعظم؛

السَّجنُ والمعجزة و"الأفيستا"؛ النَّار المقدّسة؛

أهورا مزدا والتوحيد؛ "الأفيستا" كتابُهم المقدَّس؛

الطقُوس المركزيَّة؛ إنتشار الزرادشتيّة.

بيئة منشأ الزَّرادَشتيَّة

مع أنّ الحضارة الإيرانيّة أو بالأحرى الفارسيّة، كانت الأخيرة، من حيث ظهورها بين حضارات الشرق الأقصى، فإنّها فرضت، مع ذلك، سيادتها السياسيّة على أبعد مدى، حتّى أنّها أخضعت، لسيطرتها، مصر وبلاد الرافدين، وهما موئل أقدم حضارات الشرق[1].

وإيران، أو فارس، كما كانت تُدعى في يوم من الأيّام، تنغلق داخل مثلّث من الجبال الشاهقة التي يبلغ ارتفاع بعضها عن سطح البحر نحو ٥,٥٠٠ متر، وهناك أدغال استوائيّة بالقرب من بحر قزوين. وهناك مناخ البحر المتوسّط في وديان الأنهار في الجنوب الغربيّ. ولقد أظهرت هذه الاختلافات ثقافات مختلفة، جعلت الجبال الاتّصال بينها صعبًا. وعلى حين يخضع غرب إيران لتأثير بلاد ما بين النهرين، واليونان، وروما، فإنّ شرق إيران يخضع لتأثير الهند، بل ولتأثير الصين. وهكذا تقف إيران كجسر بين الشرق والغرب، وهي حقيقة لم تؤثّر في دينها فحسب، بل جعلت من إيران أيضًا ملتقى روافد تاريخيّة عديدة[2].

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، تأليف: أندريه إيمار، وجانين أوبوايه، نقله إلى العربيّة فريد م. داغر، وفؤاد ج. أبو ريحان، ساهم في الترجمة يوسف أسعد داغر، وأحمد عويدات، إشراف موريس كروزيه، ط٢، منشورات عويدات (بيروت ـ باريس،١٩٨٦) ١: ٢٠٢.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١٣٧.

تحرّكت موجات من الآريّين، وهم شعب بدويّ مولع بالقتال، حوالي عام ١٠٠٠ قبل الميلاد، إلى داخل إيران من الشمال ومن الشمال الغربيّ، وبحلول عام ٨٠٠ قبل الميلاد كانوا قد احتلّوا الأرض. ولقد كشفت ديانات الهند وإيران معًا، تحت التأثير الآريّ، عن عدد من الخصائص المتماثلة. فهناك عدد من الآلهة يظهر في كلَيهما، كالإله "ميثرا"، وهناك تصوّراتهما المتشابهة لنظام الكون، كما كان لطقوسهما الدينيّة الكثير من السمات المشتركة. وتكشف ديانة الآريّين عن طريقة حياتهم، فهي ديانة شعب يعيش على مقربة من الطبيعة، يجد فيها المتعة ويخشاها في آن واحد. إنّه مفتون بالحياة التي تهبها الطبيعة الخيّرة، ومع ذلك، فهو يخاف من قسوتها المدمّرة للحياة[1]. إلاّ أنّ ذلك الشعب الذي كان يتكلّم لغة تشبه كثيرًا اللغة التي كانت سائدة في الهند، كان يؤمن بعدّة آلهة تشبه آلهة الهند، ويعبد نفس البقرة التي كان يعبدها الهندوسيّون. ولكنّ الفارق الكبير في المناخ والأحوال الجويّة بين الهند، وإيران، حيث الجوّ أكثر برودة من مثله في الهند، قد جعل الناس يرتدون ثيابًا أثقل، ويأكلون طعامًا أكثر دسامة، ويسكنون بيوتًا أكثر دفئًا. وللحصول على كلّ هذا، كان لا بدّ للناس من أن يعملوا بنشاط أكثر من ذلك الذي يبذله الآخرون الذين يعيشون في المناخ الدافئ. وكانت إيران أيضًا بلدًا مليئًا بالقبائل الهمجيّة التي كانت تفد إليها من كلّ مكان يحيط بها، فتسلب الناس ماشيتهم ومحاصيلهم. ومن هنا لم تكن حياة الراعي أو الفلاّح الإيرانيّ حياة سهلة مثلما كانت حياة جاره الهندوسيّ، بل كانت حياة حافلة بالمصاعب والمخاوف والأخطار. وعندما يكون الشعب مضطربًا، فإنّه لا يفكّر كثيرًا في الحياة بعد الموت مثلما يفكّر في الخبز والسلام. لذلك عبد الإيرانيّون عدّة آلهة عبادة سطحيّة، فلم يطلبوا النيرفانا كالهندوسيّين، بل راحوا يصلّون من أجل وفرة المحصول ومن أجل

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١٣٧.

الانتصار على الأعداء والمعتدين. ومن المنطلق نفسه كانوا ينظرون إلى كلّ رجل لا يؤدّي عملاً نافعًا على أنّه رجل شرّير، ولم يحترموا سوى الذين يفلحون الأرض ويرعون الأغنام والماشية لأنّهم هم وحدهم الصالحون، فلم يكن من مكان في إيران لآلاف من الرهبان يعيشون على الصدقات وينالون حظًّا عظيمًا من الإكبار والتبجيل كما في الهند، بل كان الاحتقار والإهانة لكلّ مَن لا يعمل ليكسب عيشه بكفاحه وكدّه وعرق جبينه. فقد كان كفاحهم في سبيل الحياة شاقًّا، وكانت وسائل الزراعة والريّ بدائيّة يكلّفهم الحصول على إنتاجها كثيرًا من الجهد والتعب، ولهذا كرهوا أن يشركوا معهم في ثمرة جهودهم أيّ واحد لا يشترك معهم في بذل الجهد والتعب والكفاح[1].

عبد الإيرانيّون القدماء عددًا كبيرًا من آلهة الطبيعة. فعبدوا إله الشمس الذي يُنضج محاصيلهم وسمّوه "ميثرا"، وعبدوا إلهة الخصب والأرض وسمّوها "أنيتا"، وعبدوا الثور الذي مات ثمّ بُعث حيًّا ووهب الجنس البشريّ دمه شرابًا ليسبغ عليه نعمة الخلود وسمّوه "هوما"، كذلك عبدوا إله المطر الذي يروي حقولهم، وعبدوا إله السحاب وإله الريح وكلّ آلهة الطبيعة التي ساعدتهم في عملهم المضني للحصول على الرزق وسمّوها كلّها "دايفا" أي الأرواح الخيّرة. وكان عندما ينتهي الشتاء ويجيء الربيع ويبدأ أوان البذار في الأرض، يذهب الإيرانيّون إلى الجبال ويدعون آلهة الطبيعة لتساعدهم في إنبات المحصول ومدّهم بإنتاج طيّب. وعندما ينتهي الصيف ويُجمع المحصول يذهب الإيرانيّون مرّة أخرى إلى الجبال يتعبّدون ويثنون على آلهة الطبيعة ويقدّمون لها القرابين من الفاكهة والحبوب والحملان الصغيرة. لقد كانت تلك العقيدة بسيطة جدًّا، ولكنّها لم تستمرّ كذلك، لأنّ الشعب الإيرانيّ لم يعد يؤمن بالأرواح الخيّرة فحسب، بل أصبح يؤمن بآلهة القبائل وآلهة العائلات وعدّة أنواع أخرى من

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٧٨ ـ ٢٧٩.

الآلهة والأرواح. ومع تعدّد الآلهة ظهرت التماثيل والأصنام التي نحتوها من الصخر وشكّلوها من الطين ورسموها على الخشب. وصاغ الأغنياء أصنامهم من الذهب والفضّة. عندها لم يعودوا يذهبون إلى الجبال لعبادة آلهتهم، بل اكتفوا بالتجمّع لتقديم القرابين والصلوات لتلك الأصنام التي وضعوها في معابد أقاموها. وبالتدريج زادت الصلوات والتراتيل والقرابين التي تقدّم للآلهة، ولم يستطع الناس الذين كانوا منهمكين في فلاحة الأرض، ورعاية قطعانهم وحماية ممتلكاتهم من قبائل البدو والأعداء، لم يستطيعوا أن يحفظوا جيّدًا كلّ التراتيل التي لا بدّ من أدائها للآلهة المختلفة، كما لم يستطيعوا أن يذكروا أيّ الصلوات تتلى لكلّ إله، وأيّ القرابين تلائم إلهًا دون أن تغضب الآلهة الأخرى، وهكذا استخدموا بعض الرجال الذين أتقنوا تعلّم طرق تقديم القرابين وترنيم التراتيل المناسبة للآلهة، وكان هؤلاء هم الكهنة. وإذ كان الكهنة دائمًا في صحبة الآلهة داخل المعابد، فقد بدأوا، هم أنفسهم، يعتقدون أنّهم خير من جميع الناس الآخرين في إيران، وادّعوا أيضًا أنّهم يعرفون كيف يرضون الآلهة الخيّرة، كما يملكون أيضًا أن يجعلوا الآلهة تفعل كلّ ما يريدونه منها. وصدّق الإيرانيّون الكهنة، ونظروا إليهم على أنّهم وسطاء بين الآلهة والبشر. وكلّما ذهب الإيرانيّون إلى الحرب أخذوا معهم كهنتهم وأصنامهم المحبوبة لتساعدهم في كسب المعارك. وهكذا أصبح الكهنة سحرة، وأصبحت الكهانة نوعًا من السحر. وإذ استطاع الساحر أن يؤثّر في الآلهة لكسب الحروب كما أصبح الناس يظنّون، فقد صار من المؤكّد أنه يستطيع أن يؤثّر في الآلهة لجعل أبقار الناس تدرّ الكثير من اللبن، وجعل حقولهم تنتج محصولاً أكثر وفرة، وصوف الأغنام ينمو أغزر وأطول. وقال السحرة إنّهم لو أرادوا لفعلوا أكثر من كلّ ذلك. فانتشر الإيمان بين الناس بالسحر والسحرة في كلّ بلاد إيران[1].

---

١ ـ مظهر، قصة الديانات، ص٢٨٠ ـ ٢٨١.

مولدُ زَرَادَشت ونشأتُــــــــه

في ذلك الوقت، كانت البشائر تتبـئ بقدوم نبـيّ عظيم، راح النـاس يتحدّثـون عـن معجزة ظهوره في مدينة أذربيجان، غربيّ بحـر قزويـن. حيث فـي أحد جوانـب تلـك المدينة البعيدة كان يعيش رجل اسمه "بوروزهازيو" من قبيلة "سبيتاما" مع زوجته الحسناء من "الري" واسمها "دوغدوما". وذات يوم، بينما كان الرجل يرعى ماشيته في الحقل، تراءى له شبحان نوريّان اقتربا منه، وقدّما إليه غصنًا من أغصان نبات الهوما المقدّس، وأمراه أن يحمل الغصن معه إلى داره ويقدّمه لزوجته، لأنّه يحمل كيان الطفل الروحانيّ. وصدم الرجل بالأمر، ومـزج الغصـن بـاللبن وشربه هو وزوجته، فحملت الزوجة وليدًا هـو "زارافوشـترا"، أو "زور آستر ZOROASTER"[1]، وهو الاسم الذي شاع أكثر عند اليونان، والذي نسـمّيه الآن "زرادشـت". وبعد خمسة شـهور من الحمل، رأت الأمّ في الحلم أنّ سحابة سوداء أحاطت ببيتها، وأنّ مخلوقات بشـعة هبطت عليها من السحابة وانتزعت الطفل من رحمها وهمّت بالقضاء عليه. وصرخت الأمّ وأعولت، ولم يلبث أن هبط من السماء شعاع نـور مزّق السحابة السوداء إربًا، فاختفت الكائنات البشعة التي ولّت هاربة، ثمّ انبثق من الطيف شاب يشعّ منه نور متلألئ، أعاد الطفل إلى بطن أمّه وسكّن من روعها، وقال لها: هذا الطفل عندما يكبر، سيصبح نبيّ "أهورامزدا". والمقول إنّ الطفـل قد وُلد الطفل سنة ٦٦٠ قبل الميلاد، فيما تذهب روايات أخرى إلى أنّه عاش نحو العام الألف قبل الميلاد[2]. ولـم يبـكِ مثل

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٨٢؛ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١٣٧.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص١٠٧.

سائر الأطفال، وإنّما قهقه بصوت عال اهتزّت له أركان البيت الذي غمره نـور إلهـيّ، وهربت الأرواح الشرّيرة كلّها إلى عالمها السفليّ[1].

وتكثر الأساطير حول ما حصل بعد مولد الطفل زرادشت، منها أنّ "دوران سرون"، كبير سحرة إيران ونائب الملك في المقاطعة، قد عرف أنّ طفلاً قد وُلد، وأنّه عندما يكبر سوف يقضي على السحر وعلى عبادة الأصنام، ويطرد السحرة والكهّان من جميع البلاد. وأرسل "دوران سرون" ثلاثة من سحرته لإحضار زرادشت إليه في معبد النار. وفي أثناء ذلك، أعدّ "دوران سرون" نارًا على المذبح. وعندما جيء بالطفل وضعه وسط النار، وانطلق خارجًا من المعبد هو وسحرته. ولكن عندما عادت أمّ الطفل إلى البيت ولم تجد ولدها، انطلقت إلى معبد النار لتصلّي وتدعو الآلهة أن تردّه إليها، وهناك على المذبح، وجدت الأمّ طفلها، يلعب في ابتهاج وسط اللهب، كما لو كان يعبث في حمّام دافئ. وتأكّد "دوران سرون" أنّ زرادشت ليس طفلاً عاديًّا، فدبّر خطّة جديدة، واستدعى سحرته الثلاثة، وأمرهم بإحضار الطفل زرادشت مرّة أخرى ووضعه وسط الطريق العام حيث يمرّ قطيع كبير من الماشية. ولكنّ أوّل بقرة من القطيع أسرعت نحو الطفل ووقفت تغطّيه بجسمها لتحميه من القطيع. وظلّت البقرة في مكانها حتّى مرّ القطيع كلّه. وعندما جاءت أمّ زرادشت تجري على الطريق بحثًا عن ولدها وجدته على الأرض سليمًا لم يلحقه أيّ أذى. واستبدّ الخوف بكبير السحرة. وظلّ ثلاثة أيّام بلياليها يدبّر المؤامرة، ثمّ قرّر آخر الأمر أن يسرق زرادشت ويضعه في جحر ذئاب. وحدّث "دوران سرون" نفسه قائلاً: "حتّى إذا لم تقتله الذئاب فلا شكّ في أنّه سيموت جوعًا". ولكنّ الذئاب عندما عادت إلى جحرها تسمّرت فجأة في الأرض وعجزت عن التحرّك، بينما ظهرت عنزتان داخل الجحر بغير خوف، راحتا

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٨٢.

تُرضعان الطفل. وليست هذه سوى واحدة من عدّة قصص قيلت حول ما حدث لزرادشت عندما كان لا يزال في المهد. غير أنّ كلّ ما حدث جعل أباه وأمّه يتوقّعان له أن يصبح صاحب مستقبل عظيم، فقرّرا أن يعلّماه أحسن تعليم[1].

عندما بلغ زرادشت السابعة من عمره، أُرسل بعيدًا ليدرس مع الحكيم "بورزين – كوروس" الذي امتدّت شهرته بالحكمة في جميع أنحاء إيران، وظلّ زرادشت ثمانية أعوام مع الحكيم "بورزين" حيث لم تقتصر دراسته معه على العقيدة، بل تعدّتها إلى الزراعة وتربية الماشية وعلاج المرضى. وبانتهاء الأعوام الثلاثة عاد زرادشت إلى موطنه وارتدى القميص المقدّس، وتمنطق الحزام، وكان ذلك رمزًا لتعميده في عقيدة شعبه. على أنّ زرادشت لم يكد يعود إلى موطنه وهو في حوالى الخامسة عشرة، حتّى غزا الطورانيّون إيران من الإقليم المجاور، وتطوّع زرادشت الشاب على الفور للذهاب إلى ميدان القتال لتطبيق معرفته في معالجة المرضى والجرحى من الجنود.

لم تضع نهاية الحرب حدًّا لآلام الناس، فقد انتشرت المجاعة في جميع أنحاء إيران، واشتدّ المرض وزادت الفاقة في البلاد، فتطوّع زرادشت واضعًا جهده وخبرته في خدمة المرضى والفقراء. وانقضت خمسة أعوام كرّس فيها زرادشت الشاب كلّ حياته لذلك العمل النبيل. وعندما عاد إلى موطنه طلب منه أبوه أن يتخلّى عن عمله بين الناس، وأن يتزوّج ويستقرّ ويعيش حياة محترمة كصاحب أرض وراعي ماشية. ولكنّ زرادشت لم ينفّذ من نصيحتَي أبيه سوى الزواج بفتاة حسناء اسمها "هافويه"، أنجبت له بنتًا وولدَين. ولكنّه واصل عمله في خدمة المرضى وعلاجهم في كلّ مكان طوال عشرة أعوام أخرى[2].

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٨٤.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٨٤ ـ ٢٨٥؛ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١٣٧.

"أهورا مزدا"

و"أهرمـــان"

بينما كان زرادشت يعالج المرضى، كان يتساءل: من أين تجيء كلّ هذه الشرور إلى العالم؟ وراح يتمنّى أن لو عرف مصدر ذلك العناء، لاستطاع أن يحقّق حلمه في جعل كلّ الناس سعداء. وفيما تقول مصادر إنّه عندما بلغ زرادشت الثلاثين من عمره نزل عليه الوحي الأوّل على ضفّة نهر "دايتيا" بالقرب من قريته[1]. تقول روايات أخرى إنّه في ذات يوم، وكان زرادشت في العشرين من عمره، قال لزوجته هافويه: "سأذهب بعيدًا لأعيش ناسكًا زمنًا، لأفكّر في الخير والشرّ، فربّما تبيّنت مصدر العناء في العالم". وكأيّ زوجة راحت تلحّ على زوجها ألاّ يفعل، فقد رأت أنّه من الحمق أن يضيّع وقته في البحث عن مصدر الخير والشرّ، في الوقت الذي يجب عليه أن يربّي ماشيته وينمّي ثروته. ولكنّ زرادشت، وقد استقرّ رأيه، لم يكن يستطيع أن يقتنع بمنطق زوجته. فخرج من البيت، وانطلق إلى جبل "سابلان" حيث هام على وجهه سعيًا وراء أجوبة عن تساؤلاته الكثيرة حول الأصل والمصير ومعنى الحياة والخلاص، وعزم على ألاّ يعود إلى بيته قبل أن يكتسب الحكمة التي ينشدها ويصل إلى الهدف الذي يريد. وكان كلّما صادف شخصًا طرح عليه تلك الأسئلة، علّه يجد الجواب الشافي. وظلّ زرادشت أيّامًا وأسابيع وشهورًا وحيدًا يفكّر فوق الجبل، ويحاول أن يفهم سرّ هذا العالم. فكّر في كلّ ما علّمه إيّاه أستاذه الحكيم "بورزين ـ كوروس"، وفكّر في كلّ ما تعلّمه من أبيه وكهنته، وفي جميع تجاربه بين الناس أثناء الحرب وخلال المجاعة، والسنوات التي أعقبت ذلك.

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ١٠٨.

ولكنّه لم يستطع أن يجد في كلّ ذلك ما يفسّر له عالم الخير والشرّ[1].

وفي ذات يوم، جلس زرادشت أمام كهفه في بطن الجبل، وتساءل عمّا إذا كان عليه أن يتخلّى عن بحثه عن مصدر العناء، وأن يعود إلى زوجته وأطفاله. وأخذت الشمس تغوص خلال ذلك في المغرب وراء الأفق. واستحالت السماء أمام ناظرَيه بين ذهبيّة وقرمزيّة وحمراء. ثمّ أخذت الشمس تغيب في بطء شيئًا فشيئًا خلف التلال، ونشر الظلام جناحَيه على الوادي تحته. وعلى حين فجأة، قفز زرادشت واقفًا على قدمَيه وقد ملأه فرح غامر: لقد أمسك بيدِهِ سرّ الحكمة التي يبحث عنها، وجاء ذلك الإدراك وهو يرقب غروب الشمس. فقد أدرك وقتئذ أنّ اليوم ينقسم قسمَين: النهار والليل، النور والظلام، ولكن، ألم يكن يعرف هذه الحقيقة العاديّة منذ طفولته؟ بلى. لكنّه تبيّن فيها الآن سرّ الحكمة. فكما أنّ اليوم يتألّف من النور والظلام، فالعالم أيضًا في ما بدا لزرادشت يتألّف من الخير والشرّ. وكما أنّ الليل والنهار لا يمكن أن تتغيّر طبيعتهما أبدًا، فالنهار متألّق والليل مظلم، فكذلك لا يمكن للخير أن يصبح شرًّا، ولا للشر أن يصبح خيرًا. وإذا كان الخير دائمًا خيرًا، والشرّ شرًّا، فإنّ السحرة والكهنة الذين يقومون على عبادة الأوثان لا بدّ أن يكونوا جزءًا من الخطأ أيضًا. فهم يعتقدون أو يوهمون الناس أنّ الإنسان يستطيع أن يصلّي لآلهة الخير لتوقع الشرّ بأعدائه، ويتقرّب لآلهة الخير من أجل أن تصنع له خيرًا. فآلهة الخير لا يمكن أن تصنع شرًّا.. وآلهة الشرّ لا يمكن أن تفعل أيّ خير. وبدا واضحًا كلّ الوضوح لزرادشت أن العالم تحكمه قوّتان: خير واحد وشرّ واحد. وقال زرادشت" إنّ "أهورا مزدا" هو قوّة الخير، وأنّ "أهرمان" هو قوّة الشرّ. علمًا بأنّ كلمة "أهورامزدا" مركّبة من ثلاث كلمات هي

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص١٠٨؛ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٨٦.

"هو" ـ "را" ـ "مزدا" ومعناها على التوالي "أنا الوجود خالق" أي "أنا خالق الكون"؛ وكلمة "أهرمان" تعني "الخبيث" أو "القوى الخبيثة". وأهورامزدا، عند زرادشت، هو اللّه، هو السيّد المهيمن الحكيم، خالق السماوات والأرض، وهو الأوّل والآخر. ومع ذلك فهو أيضًا الصديق الذي دعاه من البداية، لا يمكن أن تكون للّه علاقة بالشرّ، فروحه المقدّسة هي التي تقيم الحياة، وتخلق الرجال والنساء. وتعارضه الروح الشرّيرة أو القوّة المدمّرة التي تتّسم بالنوايا الشرّيرة، والتكبّر والكذب، وعلى البشر أن يختاروا بين هاتَين القوّتَين المتعارضتَين أو بين التوأم من الآلهة، فإنْ سلكوا طريق الشرّ، فسوف تمتلئ حياتهم بالأفكار الشرّيرة والكلمات الشرّيرة، والأعمال الشرّيرة، وإنْ سلكوا طريق الحقّ فسوف يشاركون في العقل الخير، ويبلغون الكمال والخلود، والورع، وملكوت السماوات، وكلّها جوانب من الطبيعة الإلهيّة[١].

غير أنّ زرادشت، وإن كان قد أصبح لدَيه سرّ الحكمة، إلاّ أنّه لم يصبح واضحًا له تمامًا لماذا خُلق الخير ولماذا خُلق الشرّ. ولا كيف يجب على الناس أن يفعلوا من أجل أن يقضوا على الشرّ وعلى العناء. وظلّ زرادشت واقفًا على جبل سابلان، يستوضح أفكاره شيئًا فشيئًا، ويتقدّم في بطء من حقيقة اكتشافه أنّ الخير خير دائمًا، وأنّ الشرّ شرّ أبدًا، تمامًا كما يتقدّم نحو فهم السبيل الذي يجعل الناس يعيشون كلّهم أخيارًا[٢]. ومع ذلك فالصراع بين الحقّ والباطل ليس أزليًا، إذ سوف تأتي "لحظة التحوّل الأخيرة في العالم" عندما يلتحم الجيشان العدوّان الكبيران، وسيكون على الرجال والنساء أن يخضعوا للاختيار العظيم "عن طريق النّار" و"سوف تتحقق العدالة"، ويتجدّد "الكلّ من جديد" بواسطة "المحسنين" أو المخلصين للدّين الخيّر الذين

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١٣٨ ـ١٤٠.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٧٨ ـ ٢٨٨.

يقمعون الهوى بأعمالهم العادلة، وبنشرهم التعاليم الحكيمة. وكلّ مَن يعمل على قمع الباطل فهو "المخلص" وهو لفظ ينطبق على زرادشت نفسه بصفة خاصّة[1].

وقد نُقل عن بعض الأساطير أنّ الوحي قد نزل على زرادشت ذات يوم بينما كان واقفًا على الجبل يفكّر، إذ أحسّ فجأة بنشوة روحانيّة تغمره في جميع جنبات نفسه وتملؤها نورًا وهّاجًا، ثمّ رأى كائنًا نورانيًّا يدنو منه وكأنّه عمود من نور، حجمه تسعة أمثال حجم الإنسان، يحمل في يده عصا من اللهب. ولم يلبث ذلك الكائن أن حلّق فوق رأس زرادشت في صورة عمود آخر من النور، وأمره بخلع ملابسه، ثمّ أنبأه أنّه كبير الملائكة "فوهو مانا VOHU MANA"، وأنّه جاء يقوده إلى السماء ليحظى بشرف المثول بين يدَي ربّ السماء نفسه. وصدع زرادشت بالأمر. ولم يلبث أن وجد نفسه لدى إله النور الأكبر، "أهورا مزدا" الإله الحكيم، وهو الكائن الأسمى، الذي كان جالسًا على العرش محاطًا بالملائكة، وتجلّى أمام زرادشت نور عظيم منبعث من محفل الملائكة، وانبهر بالنور بحيث لم يعد يبصر خياله، وهناك تلقّى زرادشت كلمات الحقّ والحقيقة، وتعلّم أسرار الوحي المقدّسة واستمع إلى أمر النبوّة. فقد علّمه "أهورا مزدا" العقائد والواجبات المتعلّقة بالدين الصحيح الذي أوكل إليه نشره على الملأ. وقيل إنّه أفاق من نشوته وعاد إلى إنسانيّته بعد أن تكرّرت التجربة الروحانيّة ثلاث مرّات. وعندما انتبه إلى نفسه قال: "الآن.. سأنزل إلى الناس وأقود شعبي باسم "أهورا مزدا".. من الظلام إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن الشرّ إلى الخير"[2].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١٣٨.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٨٨؛ صعب، الأديان الحيّة، ص١٠٨.

الله هو
الموجُودُ الأعظم

التعاليم الشفويّة للديانة الزرادشتيّة تعلّم الناس أنّ النسق، والنظام، والمبدأ، والقاعدة، وهو ما نراه في السماوات والأرض، تجعلنا نتعرّف على الوجود اللامتناهي للإله القادر على كلّ شيء، كما تجعلنا نؤمن به. والزرادشتيّون يحبّون العالم، ويؤمنون بأنّ الحياة تعلّمنا "أنّ الله هو الموجود الأعظم، والأفضل، والأسمى من حيث الفضيلة والاستقامة والخير"[١]. الكلمة الأولى في الديانة الزائفة هي القول بأنّ الشرّ يأتي من الخالق[٢]، فاللّه لا يمكن أن يكون مسؤولاً عن الشرّ، لأنّ الشرّ جوهر، مثله مثل الخير، وكلّ منهما يرجع في النهاية إلى سبب أوّل هو الله، و"الشيطان: أهرمان AHRIMAN" الموجود بصفة مستمرّة، والمسؤول عن كلّ شرور العالم، وعن الأمراض، والموت والغضب والتّهم. وبما أنّهما جوهران متعارضان أساسيّان فهما لا محالة يشتبكان في صراع. ولكلّ منهما في هذا الصراع قوى خاصّة، وتصبح صفات الإله كالاستقامة والخلود... التي عرضها زرادشت، هم الخالدون الستّة أو الملائكة المقرّبون "أمهر اسباند AMAHRASPANDS"، وهم يجلسون أمام عرش الإله، ولهم مكانة خاصّة في طقوس الزرادشتيّين؛ لأنّهم يحرسون العناصر التي يتألّف منها العالم كالنار، والتراب، والماء...، ومع ذلك فليسوا هم الكائنات السماويّة الوحيدة، فهناك أيضًا الظاهرون أو "يازات YAZATA" أو الموجودات المعبودة، وكثيرًا ما نمت المقارنة بين وضع هذه الموجودات ووضع الملائكة والطبقات العليا من الملائكة. وعدد

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ١٤٠، عن: مودي ج. ج.، التعاليم الشفهيّة للديانة الزرادشتيّة (بومباي، ١٩٦٢)، ص ٦ وما بعدها.

٢ ـ تعاليم المجوس، ترجمة ر. ك. تسنير، نشرها د. م. مارن (لندن، ١٩٥٦) ص١٩٤.

الـ "يازات"، مـن الناحيـة النظريّـة، عـدد هـائل، ولكـن مـن الطبيعـيّ أن تكـون بعضهـا شخصيّات مهيمنة، وقد كانت في العادة هي الشخصيّات الآريّة القديمة، وبغـضّ النظـر عن الأساطير، فإنّ الطابع المجرّد للقوى السماويّة يبقى على حالـه؛ إذ لا تـزال تمثّل: النيّـة الطيبـة، والحقيقـة، والسـلام...؛ وفـي معارضـة القـوى السـماويّة، هنـاك حشـود الأرواح الشرّيرة، وجماعة الشـياطين، ونـادرًا مـا تمثّـل فـي صـورة أفـراد كمقابِلاتهـا السماويّة، لكنّها تعبّر عن طبيعتهـا علـى نحـوٍ فعّـال، وتتجمّـع التفصيـلات الكـبرى فـي صورة الشياطين الرئيسيّة، الذين يعارضون "الامهارسباند" أو الملائكـة المقرّبيـن. فهـم رؤساء الشياطين في الارتـداد عـن الديـن، والفوضـى والأفكـار الشـرّيرة، والعصيـان، والجوع والعطش، وقبل ذلك كلّه: في الكذب[١].

عندما نزل زرادشت من فوق جبل سابلان مستعدًّا في حماس لإعلان حقيقة الخـير والشرّ للناس، لم يكن أهل إيران مستعدّين للإنصات إليه. فقد كـانوا قـد تعـوّدوا آلهتهـم وأصنامهم التي كانت حقائق ملموسة بين أيديهـم، بينمـا إلـه الخـير وروح الشـرّ اللـذان يتحدّث عنهما زرادشت لا يمكن رؤيتهما أو سماعهما أو لمسـهما. وكـلّ مـا كـان أهـل ذلك الزمان يعجزون عـن رؤيتـه بعيونهـم أو لمسـه بـأيديهم أو سـماعه بـآذانهم فهـم لا يؤمنون بوجوده. حتّى أنّ أسرة زرادشت نفسه لـم تؤمـن بالتعـاليم التـي جـاء بهـا قـطّ. ومرّت بزرادشت عشرة أعوام رهيبة هائلة وهو يبحث عـن مؤمنيـن بـه، ولقـي خـلال تلك السنوات من التعنّـت والشـقاء والعذاب مـا لا يتحمّلـه بشـر. فقـد تخلّـى عنـه أهلـه وعشيرته منذ أعلن فيهم رسالته، وطردوه، فترك مسقط رأسه وراح يتنقّل من بلد إلـى بلد تسبقه إليها شهرته التي تقول إنّه رجل يسبّ الدين والكهنة... فيخشاه الناس ويـأبون حتّى أن يستضيفوه ويغلقون في وجهه الأبـواب. فـلا يجد أمامـه ليبيـت لياليـه الطويلـة

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١٤٠ ـ ١٤١.

سوى حظائر الخيل والبغال والحمير[١]! وإذ لم يجتمع حوله الأتباع، حاول الروح الرديء واسمه "آنغرا ماينيو ANGRA MAINYU" أن يجرّبه طالبًا إليه أن يطرح جانبًا ذلك الدين الذي يقوم على عبادة "أهورا مزدا". لكنّ زرادشت رفض الرضوخ للشرّير، وقال إنّه لن يتخلّى عن الدين القويم حتّى وإنْ قُطّع جسده عضوًا عضوًا[٢].

واستمرّ زرادشت يناضل في سبيل دعوته وهو يقطع أرض إيران طولاً وعرضًا واعظًا الناس مرشدًا ومجادلا. ولكنّ أحدًا مع ذلك لم يتبعه، حتّى كاد اليأس الكامل أن يأخذ به. ومع هذا فإنّ ربّه "أهورا مزدا" لم يتركه. فيُقال إنّ الوحي نزل عليه في هذه المرحلة سبع مرّات. ظهر له في إحديها "أهورا مزدا"، كما ظهر له بعد ذلك الملائكة الستّة الكبار ليلقنّوه أصول الحكمة. وهؤلاء الملائكة الستّة هم أساطين العرش. وهم رموز ومثُل عليا لمعانٍ إنسانيّة مقدّسة، فثلاثة منهم ذكور يمثّلون التفكير الطيّب والحقّ الأسمى والإحسان، وثلاث إناث يمثّلن الفداء والخلود والتقوى. وقد لقّنه كلّ فرد منهم حقيقة من الحقائق الكبرى. فتعلّم حقيقة النار المقدّسة، والأسرار التي تنطوي عليها الأرض، وحياة الحيوانات والنباتات، وأخواص المعادن، والسرّ في وجوب العناية بالماء، والصراع الأزليّ بين الخير والشرّ[٣].

على أنّ الأعوام العشرة لم تكد تنقضي حتّى وجد زرادشت مَن يؤمن به، وكان هذا ابن عمّه "ميتيوماه"، الذي قال له: "إنّ تعاليمك شاقّة جدًّا على فهم الناس". وتأمّل زرادشت كلام "ميتيوماه" وقال في أسف: "نعم". فقال ابن العم: "ولكنّك إذا استطعت أن تسترعي نظر المتعلّمين الذين تدرّبوا على فهم الأفكار الصعبة والآراء المستعصية،

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ٢٨٩.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص١٠٨.

٣ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٨٩.

فربّما وجدت مَن يسمع لك". وهتف زرادشت: "أجل، أنت على حقّ". وكان أن قرّر زرادشت أن يبدأ بتبشيره مع المتعلّمين من بني وطنه، ومَن تراه أكثر علمًا في البلاد من الملك والملكة وبقيّة أعضاء الأسرة المالكة!؟ وهكذا انطلق زرادشت إلى "بلخ" في شرق إيران، ليشرح عقيدته للملك الآريّ "فيشتاسبا VISHTASPA" الذي يُقال إنّه والد الأمبراطور "داريوس". وتنتهي الرواية بتمكّن ررادشت من مقابلة الملك وكهّانه. وبعد جهد جهيد تخلّلته منازلات جدليّة بين زرادشت والكهنة، تمكّن زرادشت من إقناع الملك بالإيمان بأنّ الخالق هو "أهورا مزدا إله الحكمة والحاكم الأسمى للعالم، خالق كلّ ما هو خير في العالم لأنّ اللّه خير". وبأنّ "أهرمان، روح الشرّ هو الذي خلق كلّ ما هو شرّ في العالم". وبأنّ دورة العالم تستمرّ إثنَي عشر ألف سنة. وفي أثناء الآلاف الثلاثة الأولى كان هناك عالمان متجاوران هما عالم "أهورا مزدا" "عالم النور" وعالم "أهرمان "عالم الظلمات". وكان العالمان متناهيَين من جوانب ثلاثة. ولكنّ كلاًّ منهما يحدّ الآخر من الجانب الرابع. فعالم النور في الجانب الأعلى وعالم الظلمات في الجانب الأسفل. وبينهما فراغ مملوء بالهواء. وقال "أهورا مزدا" "لأهرمان": إنّ طرقك لا تتّفق وطرقي، وأفكارك لا تتّفق وأفكاري، وكلماتك ليست كلماتي، وأعمالك ليست أعمالي. فلنفترق. وكان "أهورا مزدا" يعلم المستقبل. فعرض على "أهرمان" حقبة من الحرب طولها تسعة آلاف سنة. وقبِل "أهرمان" العرض وهو لا يعرف غير الماضي. وعندئذ قال "أهورا مزدا" بأنّ الجولة تنتهي بهزيمة عالم الظلمات. وفزع "أهرمان"، ولم ينتبه إلاّ وهو يسقط في الظلمات ويقضي فيها مشلولاً مدّة ثلاثة آلاف سنة، خلق "أهورا مزدا" خلالها الأرض بكلّ ما فيها من خير. وقد بدأ أهورا مزدا، روح الخير، بخلق أرواح طيّبة تنسجم مع طبيعته ليستعين بها في مقاتلة روح الشرّ أهرمان. وعلم أهرمان بذلك فخلق أرواحًا شرّيرة من جنسه ليقاوم بها الأرواح الخيّرة. ثمّ خلق أهورا

مزدا النجوم والكواكب وانتهى من خلق الأرض. وعندما انتهى من ذلك جعل الأرض حاجزًا بينه وبين أهرمان وأعوانه. ولكنّ أهرمان شقّ الأرض وأحدث فيها فجوة جمع بداخلها أعوانه الشرّيرين. ثمّ صارت ميدانًا للصراع بين القوّتَين. وعندما أتمّ أهورا مازدا خلق الأرض خَلَقَ الثور الأوّل ثمّ خَلَقَ الإنسان الأوّل "كيومرد" الذي هو أوّل البشر. وعندئذ ألقى أهرمان بقوّته ضدّ خلق أهورا مزدا، فنجّس العناصر وخلق طوائف من الزواحف والحشرات. وأقام أهورا مزدا خندقًا أمام السماء. ولكنّ أهرمان كرّر هجماته ونجح أخيرًا في قتل الثور وكيومرد أوّل البشر. وكانت بذور كيومرد مخبّأة في الأرض فنتج منها عند انقضاء أربعين سنة شجرة خرج منها أوّل زوجَين من بني آدم. وهكذا بدأت فترة اختلاط الخير بالشرّ. وأخذ البشر يلعبون دورًا في الحرب بين مملكتَي النور والظلمات. ولأنّ الإنسان خُلق حرّ الإرادة يختار بها بين الخير والشرّ. ولكنّ كلّ الأفكار التي يفكّر فيها الإنسان، وكلّ الكلمات التي يقولها، والأفعال التي يأتيها كلّ يوم من أيّام حياته، مكتوبة كلّها في كتاب الحياة. فالأفكار والكلمات والأفعال الصالحة مكتوبة في جانب، والأفكار والكلمات والأفعال الخبيثة مكتوبة في الجانب الآخر. وعندما يموت الإنسان تذهب روحه إلى الحفيظ على كتاب الحياة. فإذا كانت أفكاره وكلماته وأفعاله الخيّرة أعظم من أفكاره وكلماته وأفعاله الخبيثة ذهبت إلى الجنّة وإلاّ ذهبت إلى عذاب الجحيم. وإنّ يوم الحساب قريب. وفي ذلك اليوم ينتصر الإله الواحد على الشرّ. وعندئذ يُبعث الموتى ويقع النجم المذنّب على الأرض، فتشتعل وتذوب جميع المعادن فتنتشر على الأرض كأنّها سيل ملتهب. وعلى كلّ الناس الأحياء والأموات المبعوثين أن يعبروا مجرى السبيل الذي يبدو للأرواح الخيّرة كأنّه لبن دافئ، فيطهّرهم المرور به ويمضون منه إلى الجنّة. أمّا الأرواح الشرّيرة فتظلّ تحترق إلى الأبد خالدة في المعدن الملتهب. وعندئذ يطرد الإله الخيّر

روح الشرّ وكلّ مَن يتبعه من الأرواح الخبيثة إلى وسط الأرض ويدعها فيها إلى الأبد. وفي ذلك اليوم يبدأ العالم السعيد الخيّر الذي لا شرّ فيه ويدوم سرمديًّا. والسبيل إلى الإله الواحد هو الأفكار الطيّبة والكلمات الطيّبة والأعمال الطيّبة. والأمر غاية في البساطة. فالصدق صالح والكذب باطل. فالصدق يأتي أوّلاً. ولكن هناك أشياء أخرى كثيرة. فالذي يسلك طريق الإله الواحد يجب أن يكون: طاهرًا في أفكاره وأعماله، محسنًا يساعد المحتاجين، يفلح الأرض ويُنبت الأشجار ويربّي الماشية ويؤدّي أعمالاً نافعة أخرى ويكون رحيمًا للحيوانات[1]...

وظلّ رجال الملك طوال سنتَين يوجّهون الأسئلة إلى زرادشت وهو يردّ عليهم جميعًا. وأخيرًا قال الملك بعد أن ظلّ ينصت بانتباه: "من المؤكّد أنّ هذا الرجل الذي يستطيع أن يتكلّم بمثل هذه الحكمة ويهزمكم جميعًا، إنّما هو نبيّ من عند إله حكيم"[2].

أمّا المجوس فيربطون ظهور دعوة زرادشت بزعم ينقله إبن الأثير فيقول: "أمّا المجوس فيزعمون أنّ أصله من أذربيجان، وأنّه نزل على الملك من سقف إيوانه وبيده كبّة من نار يلعب بها ولا تحرقه، وكلّ مَن أخذها من يده لم تحرقه، وأنّه اتّبعه الملك ودان بدينه، وبنى بيوت النيران في البلاد، وأشعل من تلك النار في بيوت النيران، فيزعمون أنّ النيران التي في بيوت عبادتهم من تلك إلى الآن".

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ٢٩٨ ـ ٣٠٢.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص١٠٨.

السَّجنُ والمعجِزة
و"الأفيستـــــــــا"

على أيّ حال، فإنّ الملك برّ بوعده واعتنق تعاليم الإله الواحد الحكيم، وأعلن أنّ زرادشت هو النبيّ الحقّ لهذه العقيدة الجديدة. وفي جميع أنحاء إيران انتشرت أنباء اعتناق الملك للعقيدة التي جاء بها زرادشت. وعندما حدث ذلك تدفّق الناس على زرادشت. حتّى أسرته التي رفضت أن تنصت إليه من قبل عادت تكرّمه وتحيّيه وتعلن إيمانها به. وملأت السعادة نفس زرادشت. فقد انتصر في النهاية على عبدة الأصنام والسحرة والكهّان، ووجد أتباعًا عديدين مستعدّين لقبول تعاليمه.

وتتحدّث الروايات عن مؤامرة حاكها حكماء القصر وكهنة عبادة الأوثان ضدّ زرادشت، فاتّهموه بأنّه ساحر أفّاق. ويُقال إنّ الملك "فيشتاسبا" كان طيّب القلب، لكنّه تأثّر بالـ "كاربان KARPANS" وهم جماعة من الكهنة تكلّمت عنهم الكتب المقدّسة الزرادشتيّة "الأفيستا" بازدراء كبير لجشعهم إلى المال والسلطة. وكانوا يمارسون السحر والتنجيم ويزعمون أنّ في قدرتهم طرد الشياطين. وكان لا بدّ أن يرسل الملك رسلاً لتفتيش غرفة النبيّ، ومن هناك عاد الجميع حاملين رؤوس قطط وكلاب ميتة، وعظامًا من كلّ نوع، وأظافر وشعرًا ممّا كان يُتّخذ وسيلة للسحر في تلك الأيّام. وفوجئ الملك بما رأى فأصدر أمره للفور بالقبض على الساحر زرادشت وإيداعه السجن، حيث أمضى سنتَين[1]. وأمر الناس بالعودة إلى عقيدة الآباء والأجداد، ونفض عن نفسه إيمانه بدين "أهورا مزدا". كما تتحدّث الروايات عن معجزة قد حصلت فبرّأت ساحة زرادشت، ملخّصها أنّ جواد الملك أُصيب بمرض لم يستطع أن يفهم

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص١٠٨ ـ ١٠٩.

سرّه أحد، فقد أصبح عاجزًا عن الوقوف إذ تقلّصت قوائمه الأربع جميعًا، ودخلت في بطنه ولم يعد يظهر منها سوى الأطراف. وقد عجز أطبّاء البلاط وكهنة القصر الملكيّين عن فعل أيّ شيء. وعندما بلغ الأمر أسماع زرادشت وهو في أعماق السجن، استطاع أن يرسل مَن يحمل إلى الملك أنّه يستطيع إبراء الجواد. فجيء به على الفور إلى الحظائر الملكيّة حيث قال زرادشت للملك "فيشتاسبا": - "هل تعدني أيّها الملك إذا استردّ الجواد صحّته، بأن تؤمن بتعاليمي ولا تهجرها على الإطلاق؟". وإذ لم يجد الملك ما يمنعه من ذلك، اقترب زرادشت من الجواد، وراح يدلّك قوائمه وهو يرفع رأسه إلى السماء ويتوجّه بالدعاء إلى ربّه حتّى برئ الجواد. وصدر أمر الملك بالإفراج عن زرادشت، والتحقيق في أسباب المؤامرة. فإذا بالحارس الذي كان يحرس غرفة زرادشت يعترف بكلّ ما حدث، ويكشف عمَّن اشتركوا في التآمر على النبيّ، فقُبض عليهم جميعًا وأُلقي بهم في أعماق السجن. وتكرّرت المعجزات التي صنعها زرادشت للملك، إلى أن انتهى الأمر إلى أن أخذ الملك على نفسه المواثيق بأن يفرغ للدفاع عن دين زرادشت. وصدرت أوامره بذبح اثنَي عشر ألف بقرة، دُبغت جلودها ورُبطت بخيوط من الذهب الخالص، وكُتب عليها بحروف من الذهب جميع تعاليم نبيّ الإله الواحد. وسُمّيت "الأفيستا".. وعُيّن صاحبها زرادشت كبيرًا لكهنة الملك فيشتاسبا في بلاط "بلخ" ببلاد إيران[١].

وكان لزرادشت إبنة صغيرة تُدعى "بوروكيستا"، عُرف عنها أنّها أحكم النساء في المملكة. وجاءت بوروكيستا إلى القصر الملكيّ لترى أباها الذين عُيّن كبيرًا للكهنة في بلاط "بلخ". ونالت الفتاة بحكمتها إعجاب العائلة الملكيّة لدرجة أنّ رئيس الوزراء طلب

---

١ - راجع: مظهر، قصّة الديانات، ص٣٠٣ - ٣٠٦.

الزواج منها. ولم يكن في "بلخ" سوى رئيس واحد للوزراء. ولمّا كانت بوروكيستا امرأة حكيمة فإنّها لم ترفض العرض السخيّ. وعندما أصبح زرادشت صهرًا لرئيس الوزراء، تدعّم مركز نبيّ أهورا مزدا في البلاط، وتزوّج إحدى أميرات البلاط[1]. ووافق الملك على طلب زرادشت على أن ينطلق الرسل في جميع أنحاء إيران وخارجها لنشر تعاليم "الأفيستا". وسرعان ما انتشرت تعاليم الزرادشتيّة في جميع أنحاء إيران وخارجها حتّى وصلت إلى طوران، بَل إلى اليونان والهند، ولكنّ عدد أتباع زرادشت خارج إيران لم يكن مع ذلك كبيرًا. وعندما بلغ زرادشت الستّين من عمره قرّر أن يفرض على كلّ شعب طوران المجاور لإيران اعتناق عقيدته. وبعد عدّة معارك رهيبة انتصر الإيرانيّون انتصارًا عظيمًا على طوران، وأصبح زرادشت، الذي كان سبب الحرب، بطلاً شعبيًّا عظيمًا في إيران. وصارت كلمته قانونًا وتعاليمه مقدّسة.

أمّا في طوران فقد كره الناس زرادشت وراحوا يدبّرون الخطط لانتقام كبير. ومنذ ذلك اليوم، ولمدّة سبعة عشر عامًا، واصل الطورانيّون مؤامراتهم على زرادشت والإيرانيّين، وعندما شعروا بالقوّة الكافية للدخول في حرب ثانية هاجموا مملكة إيران. وبعد وقت قصير حاصروا مدينة "بلخ" وفتحوها واندفعوا يحطّمون كلّ شيء أمامهم. أمّا زرادشت، فعندما كانت أسوار المدينة تنهار أمام أبناء طوران، كان هو نفسه في معبد النار يصلّي، ومعه ثمانون من كبار الكهنة، يدعون ربّهم أهورا مزدا لإنقاذ شعبه ومناصرته في حربه المقدّسة. وبينما هو راكع أمام النار، اندفع الجنود الطورانيّون داخل المعبد وطعنوا النبيّ العجوز في ظهره، كما أعملوا سيوفهم في الكهنة الثمانين،

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ١٠٩.

فسقطوا جميعًا صرعى، وسالت منهم الدماء تلطّخ جدران موقد النار، كما امتدّت إلى النار المقدّسة نفسها فأخمدتها. وهنا، انتهت حياة زرادشت، نبيّ أهورا مزدا الإله الواحد الحكيم وهو في السابعة والسبعين[1].

النّــــار المقدّسة

إذا كانت حياة زرادشت قد انتهت فإنّ عقيدة أهورا مزدا لم تنته بموته على الإطلاق. فقد ظلّ كلّ أتباع الزرادشتيّة يؤمنون بحقيقة أهورا مزدا كما حدّثهم عنه نبيّهم زرادشت في الأفيستا المقدّسة. ومن أجل أن يتمكّن الناس من تصوّر هذه القوّة الغيبيّة الخفيّة، وحتّى تتقرّب إلى أذهانهم، فقد رُمز إلى أهورا مزدا برمزَين ماديَّين مشاهَدَين تقوى عقول الجماهير من أتباعه على إدراكهما، ويستطيعون فيها تصوّر صفات أهورا مزدا على وجه التقريب: هذان الرمزان هما: الشمس والنار. فالشمس في السماء تمثّل روح أهورا مزدا، في صورة يستطيع الناس إدراكها لِما امتازت به من صفات المبدأ الأوّل، إذ هي كائن مشرق متلألئ يفيض الخير على جميع الكائنات ويبعث فيها الدفء والنشاط، وهي قوّة لا تقاوم ولا تستطيع نزعات الشرّ الاقتراب منها والحطّ من قدرها والانتقاص من طهرها وصفائها. والنار في الأرض هي العنصر الذي يمثّل للناس تلك القوّة العليا. فهي ليست عنصرًا أوّليًا ساذجًا بسيطًا فحسب، بل هي أيضًا قوّة مطهّرة مهلكة طاهرة نقيّة نافعة لا يمكن أن يتطرّق إليها الفساد. وهكذا تبدو تلك الصورة التي يتصوّر الناس من أجلها أنّ أتباع زرادشت

---

١ - راجع: مظهر، قصّة الديانات، ص ٣٠٧ - ٣٠٩.

يعبدون النار، بينما هم يؤكّدون على أنّ تلك الفكرة خطأ كبير. فهم لا يعبدون النار أو يتّخذون منها إلهًا، ولكنّهم يرونها إلى جانب النار رمزًا لقوّة الإله الذي لا يمكن أن يراه أحد. ويعدّون الوثنيّة والشرك بالإله الواحد الخيّر الحقّ جريمة كبرى، لأنّها لا تتضمّن إنكار مبدأ وحدة الواحد أهورا مزدا. ويقول الزرادشتيّون إنّهم يقدّسون النار ولا يعبدونها، لأنّها مقدّسة كرمز، ومن أجل ذلك تحمّلوا التبعة التي ألقاها زرادشت على أكتافهم بالاحتفاظ بشعلة النار مضطّرمة بالمعنى الرمزيّ والمعنويّ، فراحوا يوقدونها أبدًا ويجعلونها تتأجّج في صدورهم إلى جوار تأجّجها في المعابد. وعندما توقد النار في الهيكل، يصير من أهمّ الواجبات وأقدسها على رجال الدين أن يعملوا دائبين على إبقاء نارها مشتعلة، فيأتون إلى الهيكل خمس مرّات في اليوم ليقدّموا إلى النار وقودًا من خشب الصندل وغيره من المواد العطريّة، فتنتشر في الهيكل رائحتها الزكيّة[1]. وكلّما كانت النار قديمة وطاهرة ازدادت قيمتها. وهي في معابد إيران أهمّ منها في معابد الهند لأنّها أقدم. وتحتلّ النار المقدّسة وسط غرفة خاصّة. وتوضَع في موقد حجريّ مستقرّ على أربع قوائم. ويوقدها الكهنة ليلاً ونهارًا وهم يلقون فيها كمّيات من البخور. ويضع الكاهن كمّامة على فمه لئلاّ يدنّس النار. ولا يجوز أن يعطس أو يسعل قريبًا من النار المقدّسة. وأحيانًا يجمعون النار من أمكنة مختلفة لتكون أكثر طهارة. ويتقدّم المؤمنون واحدًا واحدًا إلى عتبة الغرفة حيث النار المقدّسة، بعد خلع أحذيتهم وغسل الأجزاء المكشوفة من أجسادهم، ويتلون صلاة بلغة الغاثا القديمة التي لا يعرفون معناها عمومًا، لا هم ولا الكهنة الذين يحفظون في ذاكرتهم كثيرًا من مقاطع الأفيستا. وعلى العتبة يتناول الكاهن من المؤمن تقدمته التي هي قبضة من البخور ومبلغ من المال، ويناوله حفنة رماد صغيرة من الموقد المقدّس، يمسح بها

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ٣١٠ ـ ٣١١.

جبينه وأجفانه. ثمّ يعود المؤمن إلى حيث ترك حذاءه فليبسه ويرجع إلى البيت بشعور من التجدّد النفسيّ[1].

والنار بالنسبة للزرادشتيّين مصدر للنور الذي يجب عليهم الاتّجاه إليه لأنّه قبس من نور "أهورا مزدا". وعن هذا الأمر يقول المرجع الدينيّ الأعلى للزرادشتيّين في إيران السيّد رستم شهزادي: "إنّ ما نفعله هو أن نتّجه للنار في بعض الأحيان باعتبارها تمثّل النور الذي نعتقد أنّه انعكاس أو مظهر من مظاهر اللّه، فنحن في الحقيقة، وعندما نتوجّه لعبادة اللّه، نتّجه إلى النور بأيّ شكل كان، ففي النهار تكون قبلتنا الشمس وفي الليل القمر أو النجوم أو أيّ ضياء كان، ومنها النار طبعًا حيث نعتقد أنّ نور جميع هذه الأشياء يمثّل النور الإلهيّ، فالمهمّ إذن أن نتّجه لأيّ مصدر للنور مهما كان شكله أو حجمه كقبلة لنا نقدّسها ولا نعبدها". فلأنّ النور مقدّس عندهم، وبما أنّ الطبيعة لا توفّر لهم مصدر هذا النور من خلال الكواكب في الأوقات كافّة، عمد الزرادشتيّون إلى ما هو اصطناعيّ، فكانت النار، كمصدر للنور ممكن في كلّ وقت، مقدّسة ولها شأن في عباداتهم، وباتت تحتلّ واسطة العقد في بيوت عبادتهم. وربّما كانت أهمّ زيارة لمعبد النار تلك التي تحصل في أوّل السنة الفارسيّة. في ذلك اليوم يستيقظ المؤمنون باكرًا، فيستحمّون ويلبسون الثياب الجديدة، ويقصدون المعبد حيث يقدّمون الصلاة والنذور والزكاة، ويقضون بقيّة النهار في زيارات المعايدة والولائم. ومن أعيادعهم الأخرى الرئيسة واحد يحتفلون فيه بمراحل الخليقة الستّ، وهي السماء والماء والتراب والنبات والحيوان والإنسان[2].

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ١١٥.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص١١٥.

أهورا مزدا والتوحيد

يبدو جليًّا للمطّلع على الزرادشتيّة أنّها تقول بالإيمان باللّـه الواحد الخالق، الكائن الأسمى والأكمل الذي يجب أن يُعبد، والإيمان بأنّ هناك قوى خيّرة وقوى شرّيرة في الكون، وأنّ النفس البشريّة ميدان صراع بين الخير والشرّ، كما تقول بالإيمان بالثواب والعقاب والحياة الأخرى بعد الموت والقيامة في اليوم الأخير، والإيمان بأنّ الخير سوف يتغلّب على الشرّ في النهاية. والتوحيد هو من أبرز وجوه الزرادشتيّة. والواقع أنّ زرادشت لم يخترع التوحيد، بل ركّز على العناصر التوحيديّة لدى الآريّين. وكان أهورا مزدا يشبه الإله الذي عبده الآريّون في الهند وأعطوه اسم "فارنا". كما كانت كلمة "أهورا مزدا" نفسها شائعة. وكلمة "مزدا" تعني الحكيم أو المليء نورًا، فيما تعني كلمة "أهورا" الإله أو الربّ. وكانت، بالنسبة إلى الهنود الآريّين، تشير إلى الشخصيّات المتفوّقة بين الآلهة. وقد آمن زرادشت بوجود مجموعة من الأرواح الصالحة التي يعبّر أهورا مزدا عن إرادته بواسطتها، وأهمّها "الروح القدس SPENTA MAINYU". إلاّ أنّ ذلك الاعتقاد لم يدفعه إلى التخلّي عن التوحيد. فهذه الأرواح كلّها خاضعة لربّ الأرباب أهورا مزدا[1].

فأهورا مزدا في دين زرادشت إذن واحد لا يشركه أحد، هو خير محض لا شرّ فيه، وكلّ ما في العالم من خير منبعث منه، وهو مصدر كلّ مجد ونور وسعادة، يريد الخير دائمًا ولا يفكّر في الشرّ أبدًا، وهو المشرّع القدسيّ والقاضي الأسمى العادل الرحيم. وقوّة أهورا مزدا الخيّرة هي التي ستنتصر في النهاية على روح الشرّ أهرمان

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص١٠٧ ـ ١٠٩.

الذي هو سبب كلّ ما في العالم من شرور، يقوم بها هـو ومعـاونون مـن خلائـق الشـرّ الأخرى المعروفة باسم "ديفـا". لقد آثرت هـذه الخلائـق منذ أوّل الأمـر النيّـة الخبيثـة واندفعت بأمر من روح الشرّ أهرمان تغدر بالناس وتغرّر بهم وتسلبهم الحيـاة السـعيدة والخلود الـذي ينتظرهـم فـي العـالم الآخر، ذلـك العـالم الـذي جـاء ذكـره فـي الأفيسـتا المقدّسة حين تقول: "سوف تبتهج نفوس الخيّرين في الحياة الثانية الخالدة، كما سيتعذّب الكاذبون إلى الأبد"[1].

"الأفيستا AVESTA "

كتابُهـم المقـدَّس

يؤكّد باحثون على أنّ المصدر الأصليّ الوحيد للاطّلاع على حياة زرداشت وفكره هو كتاب الزرادشتيّين المقدّس واسمه "الأفيسـتا AVESTA "[2] ويُسمّى أيضًـا "الأبسـتاق" وهي الترجمة العربيّة القديمة لكلمة AVESTA الفارسيّة التي تعني "الأصل" أو "المتن"[3]. الذي يرجّح أنّه البقيّة الباقية من مجموعة أكبر لـم يبلغنـا منهـا سـوى هـذه الشـذرات[4]. وليس من المرجّح أن يكون قد تمّ تدوينه قبل القرن الخامس الميلاديّ. وربّما يرجع لما قبل الحقبة الزرادشتيّة. لكنّ جزءًا من مادّة هذا الكتاب يرجع إلى ما قبـل هـذا التـاريخ بزمن طويل، وقد فُقدت جميع نسخ الأفيستا بعد غزو الإسكندر لفارس عـام ٣٣٠ قبـل الميلاد، وفُقدت معها تفاسيره والمؤلّفات التي كانت تشتمل على شيء مـن أجزائـه، ثـمّ

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٣١١ ـ ٣١٢.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص١٠٧.

٣ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١٣٩.

٤ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص١٠٧.

بدأ ملوك فارس في القرن الأول الميلادي في تدوين ما بقي من حوافظ الناس من الأفيستا، وأكملوا هذا العمل في القرن الثالث ثم في القرن الخامس[١]... وأهمّ أجزاء الأفيستا وأكثرها قداسة مجموعة أناشيد تسمّى الـ "غاثا GATHAS"، وكلمة "غاثا" تعني الغناء أو الإنشاد، كتبها زرادشت باللغة الفارسيّة القديمة، وهي قريبة من اللغة الهنديّة التي كُتبت بها الفيدا. وفي هذه الأناشيد بالذات نقع على حياة مؤسّس الزرادشتيّة وفكره. وكلّ ما بقي من هذا الكتاب المقدّس للزرادشتيّين، ترنيمات زرادشت أو "الأناشيد GATHAS" ونصوص الطقوس الدينيّة الرئيسيّة "ياسنا YASNA" ومعناها العبادة أو التسبيح، ويشمل أدعية وصلوات كان يتّجه بهما إلى اللّه وملائكته والكائنات المقدّسة؛ والـ "فنديداد VINDIDAD"، والمعنى الحرفيّ للإسم القانون المضاد للشياطين، وهو يوضّح التعاليم التي يخضع لها رجال الكهنوت من الزرادشتيّين، كما يتضمّن وجهة نظر الزرادشتيّة في الموت والزواج وغيرها من المشكلات الاجتماعيّة؛ وترنيمات أخرى هي "يشتا YASHTS" التي تتضمّن إحدى وعشرين ترنيمة تُتلى في مديح الملائكة المشرفين على أيّام الشهر[٢].

وفي القرن التاسع ميلاديّ تمّ تدوين عدد من الكتب الزرادشتيّة للدفاع عن "ديانة الخير" ضد الدعاية المسيحيّة والإسلاميّة ولشرح الإيمان لرجل الشارع. ولمّا كانت قد كُتبت باللغة الفارسيّة الوسطى، أو البهلويّة، فقد كانت ملخّصات موجزة، وشروحات على الأبستاق، وهي تتحوّل، في كثير من الأحيان، إلى رصيد مثير للمعتقدات القديمة. لكنّ ذلك ليس كلّ شيء، ففيها الفلكلور، والنقوش، والعملات، وتقارير الملاحظين

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١٣٩.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص١٠٧؛ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

الأجانب، وإيمان الزرادشتيّين المحدثين، وكلّ ذلك يضيف إلى معرفتنا بالديانة الإيرانية[1].

الطقُوس المَركزيَّة

وعلى الرغم من أنّ زرادشت أدان معظم التراث القديم، فإنّه لم يتخلّص منه تمامًا، فهو بوصفه كاهنًا قد وضع عددًا من ترنيماته في الشكل التقليديّ المأثور، ورأى أنّ طقوس النار القديمة هي رمز النور والقانون الكونيّ للّه، فاستخدمها في صلواته[2]. وهناك نوعان من الطقوس المركزيّة: طقوس النار التي سبق ذكرها، وطقوس القربان "الهوما HAOMA". وهناك عدد من النيران المقدّسة يسهر على خدمتها الكهنة بحبّ وبصفة مستمرّة، والنار الرئيسيّة هي "بهرام BAHRAM" أو ملك النيران الذي يتوّج ويوضَع على العرش. والـ "هوما HAOMA" نبات، لكنّه أكثر من ذلك، فهو الإله "هوما" على الأرض، وفي طقوس الهوما يُسْحَق الإله، ومن العصير يُستخرج شراب الخلود. وفي هذه القرابين الخالية من الدماء يكون القربان في آن واحد هو الإله والكاهن والضحيّة، ويقوم المؤمن بالتهام هذا القربان الإلهيّ مستبقًا بذلك القربان الذي سيُقام في نهاية العالم ويجعل جميع البشر خالدين[3].

ومن أهمّ الطقوس الزرادشتيّة الأصيلة التي لم يبقَ منها الكثير، أن يتلو الكاهن في المعبد، في كلّ مرّة، عبارات دينيّة يدعو فيها الناس إلى التأمّل في الخير والكلام

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١٣٩ ـ ١٤٠.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١٣٨.

٣ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ١٤٤.

الطيّب والعمل الصالح. وهي جواهر الزرادشتيّة الثلاثة التي تتضمّن كثيرًا من الفضائل والأدب كالأمانة وحسن المعاملة والعفّة والطهر والإحسان إلى الفقراء والعطف على الأغراب. ومن هنا كان أوّل عهد يأخذه الزرادشتيّ على نفسه كما جاء في الأفيستا المقدّسة: "لن أُقدم على سلب أو نهب، ولا تخريب أو تدمير، ولن آخذ بالثأر.. وأُقرّ أنّي أعبد الإله الواحد أهورا مزدا، وأنّي أعتنق دين زرادشت، وأقرّ أنّي سألتزم التفكير في الخير والكلام الطيّب والعمل الصالح"[1].

وكما أنّ تعاليم مؤسّس أيّ دين تتطوّر وتتعدّل عن طريق أتباعه، لم تكن الزرادشتيّة استثناء من هذه القاعدة. فأفكار زرادشت قد عُدّلت وتلاءمت مع أفكار العصر وحاجاته. ولم يفسد أتباعه تعاليمه عمدًا، ولكن يبدو أنّه حدث "تلاقٍ والتحام" بين تعاليمه وبين الإيمان التقليديّ في التراث[2].

فكلّ ما آمن به الناس من أتباع زرادشت، ظلّوا يؤمنون به بعد مصرعه عندما سقطت إيران في يد الطورانيّين. وإذا كان مصرع زرادشت لم يؤثّر في إيمان الناس، إلاّ أنّ المعركة نفسها بين الإيرانيّين والطورانيّين لم تنتهِ مع مصرع نبيّ أهورا مزدا. فقد أقسم الملك فيشتاسبا على الانتقام ممَّن قتلوا النبيّ. ونظّم قوّاته وجدّد هجماته على الطورانيّين حتّى انتصر في عدّة مواقع. ولم يعقد الملك صلحًا مع جيرانه إلاّ بعد أن وعدوا باعتناق عقيدة زرادشت. ولم تكد الحرب تضع أوزارها حتّى أرسل الملك رسله إلى البلاد الأخرى يدعو للدخول في دين نبيّ أهورا مزدا. غير أنّه مع مرور الزمن، بدأت تعاليم زرادشت تتغيّر وتتقلب على نفسها في بطء شديد. فمن قبل، عندما

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٣١١.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١٣٩.

سُئل زرادشت عمّا إذا كان الإله الواحد هو وحده صانع الخير في العالم، أجاب أنّ الإله له مساعدوه السماويّون الذين يُسمّون الملائكة، وقال إنّ أهمّ هذه الملائكة سبعة: "العقل الخيّر، والنور، والحكمة، والخير، والتقوى، والخلود، والأمر الصالح". ونستطيع أن نفهم بسهولة من أسماء هذه الملائكة أنّ زرادشت لم يكن يعني أنّ ملائكة الإله الواحد حقيقيّون ذوو أجنحة كما نراهم أحيانًا في الصور، بل كان زرادشت يعني أنّ هذه هي المميّزات المتعدّدة للإله الحكيم، والصفات والمظاهر الرئيسيّة له. ولكنّ كهنة إيران وشعبها كانوا من عبدة الأوثان، وإذ كانوا قد قبلوا تعاليم زرادشت إلاّ أنّ عقولهم كانت لا تزال عقول عبدة الأوثان. وعندما ذكر زرادشت لهم ميزات الإله الواحد تصوّروها ملائكة حقيقيّين تطير هنا وهناك، كأنّها قطيع من الطير الأبيض تنفخ في أبواق ذهبيّة تترنّم بالتراتيل. ولم يمضِ وقت طويل حتّى أطلقوا أسماء على ألف ملاك يعيشون في السماء، و٩٩٩٩ شيطانًا أسود يساعدون روح الشرّ في الجحيم تحت الأرض. وبهذه الطريقة فعل الإيرانيّون ما لم يكن زرادشت يريد منهم أن يفعلوه، عبدوا الأوثان القديمة بعد أن غيّروا أسماءها بأسماء جديدة. وكان زرادشت يؤمن أيضًا بأنّ العالم سوف ينتهي في أيّامه، ولكنّ أتباعه، بعد موته، قالوا إنّ اللّه الواحد قد خلق العالم في ستّ حقبات، كلّ حقبة منها شهران، وإنّ العالم سيستمرّ ألف سنة مقابل كلّ شهر من شهور الخلق. وقالوا إنّ زرادشت وُلد في نهاية الألف التاسعة بعد الخلق، وإنّه بعد وفاته بثلاثة آلاف سنة سيظهر في هذه الدنيا أحد أبناء زرادشت، وسيكون هذا الإبن هو المخلّص الذي يخلّص البشريّة[١].

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٣١٢ ـ ٣١٥.

وهكذا فقد غيّر أتباع زرادشت معتقداته وتعاليمه. والزرادشتيّة، كما وصلت إلى الملوك والكهنة، اختلفت قليلاً عن ديانة الأفيستا. ومن العناصر الجديدة التي اكتسبتها إضفاء صفات إلهيّة على زرادشت. صحيح أنّ زرادشت أعلن نبوّته منذ البداية، قائلاً إنّه استمدّ رسالته من أهورا مزدا مباشرة، الذي أوكل إليه تعليم الدين الكامل والدين الأخير، غير أنّ ذلك الإنسان المتواضع، الذي أطلقت عليه الأفيستا اسم "راعي الفقراء"، أصبح شبه إله وموضوع عبادة في مخيّلة العامّة. وفي الروايات الشعبيّة أنّ السماء والأرض اتّحدتا فيه، وبشّر الثور الخرافيّ بمولده قبل ثلاثة آلاف سنة من حدوثه، فيما عمد الملك "ييما YIMA" الذي حكم خلال العصر الذهبيّ، إلى إنذار الشياطين بأنّ نهايتهم محتومة. وفي كتاب "زرادشت نامه" الذي نُظم نحو العام ١,٢٠٠ للميلاد، وجُمع من مواد سابقة، أخبار عجائب كثيرة منسوبة إلى زرادشت. ومن العناصر الأخرى التي اكتسبتها الزرادشتيّة لاحقًا الاستفاضة في معالجة مسألة الشرّ. وبات المنظّرون يضعون إله الشرّ "آنغرا ماينيو" في مواجهة إله الخير أهورا مزدا منذ بداية الخليقة. ونسبوا إلى إله الشرّ قدرات خارقة غير محدودة. وهو صانع الموت. وهناك عدد لا يُحصى من الشياطين أو الأرواح الشريرة التي تأتمر به. وفي ضوء هذه الازدواجيّة أو الثنائيّة، يمكن القول بأنّ الخير كلّه يأتي من اللّه، وبأنّ الشرّ كلّه يأتي من الشيطان. وإذا كان الشيطان صانع الشرّ كما أنّ اللّه صانع الخير، فهو مساوٍ للّه في الأزليّة. وإذا لم تكن الحالة هكذا، فإنّ اللّه هو الذي صنع الشرّ منذ البداية. ولكن للّه أن يصنع شرًّا أو ينطوي على شرّ. وحاولت جماعة من المجوس، وهم الزرادشتيّون الذين يعيشون في الهند، البلد الذي هربوا إليه منذ أكثر من ١٣٠٠ سنة، في القرن الرابع قبل الميلاد، أن تجد حلاً أكثر منطقيّة لهذه المعضلة، فقالت إنّ "أهورا مزدا" و"آنغرا ماينيو" كلَيهما جاءا من مبدأ كونيّ واحد اسمه "زرفان ZURVAN"، وهو

الزمان أو المكان أو الإثنان معًا، وإنّ اللّه والشيطان متساويان في القِدم. وذهبت هذه الجماعة إلى القول بأنّ الغلبة سوف تكون للّه في النهاية[1].

ونقع في تاريخ الزرادشتيّة أيضًا على دعوات إلى الطهارة والتطهّر الجسديَّين، نشأت منها محاولات لإطالة العمر بواسطة السحر. وقد لجأ بعضهم إلى مقاطع من الأفيستا لطرد أثر الشياطين والأرواح الشرّيرة. ويُظنّ أنّ هناك كائنات يجب التطهّر منها قبل حلول اللعنة على مَن يلمسها. فإذا لمس المرء جثّة كان عليه أن يتطهّر بالماء أو ببول الماشية. ويتجنّب الزرادشتيّون الطيور والحشرات التي تقتات باللحوم الميتة أو الوسخة. ويعتقدون أنّ هذه الحشرات والحيوانات، ومنها الضفادع والأفاعي، هي من خَلق الشيطان، وأنّ قتلها من أعمال التقوى. وإذا لامست إنسانًا فعليه الاغتسال من غير إبطاء[2].

وللزرادشتيّة، كالهندوس والسيخ، رموز تذكّرهم بدينهم كجزء من زيِّهم اليوميّ: فهناك رمز "كوشتي KUSHTI"، وهو خيط مقدّس به اثنان وسبعون خيطًا، ترمز إلى أسفار "يسنا YASNA" وهي تُعقد وتُربط مرّات عديدة في اليوم تعبيرًا عن التصميم الدينيّ والعزم والأخلاق معًا؛ ورمز "SANDRE" وهو قميص شبيه بالمريول يرتديه الزرادشتيّون منذ سن البلوغ، يُسمّى بالفارسيّة سدرة، وهو يرمز إلى الدين، ويرتدي الكهنة أردية بيضاء، ويضعون عمامة على الرأس، وقناعًا على الفم أثناء تأديتهم لبعض الطقوس ليتجنّبوا تلويث النار المقدّسة بأنفاسهم[3].

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، مرجع سابق، ص١١١ ـ ١١٢.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص١١٢.

٣ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١٤٣.

أمّا صلاتهم ومواقيتها، فالمعلوم عندهم أنّه هناك صلوات بعدد أقسام اليوم الخمسة، كصلاة الصباح "كاه هاون"، وصلاة الظهر "كاه إرقون"، وصلاة العصر "كاه إيزن"، وصلاة الليل "كاه عيوه سرتيرد"، وصلاة الفجر "كاه إشهن"[1]، وعندهم احتفالات لجميع المناسبات الكبرى في الحياة: في الميلاد، والبلوغ، والزواج، وإنجاب الأبناء والموت.

إنتشَــــــار الزرادشتيّة

عرفت الزرادشتيّة انتشارًا واسعًا بعدما أصبحت دين الملوك في أمبراطوريّة الفرس التي أسّسها كورش الكبير بعد قضائه على بابل عام ٥٣٨ قبل الميلاد، ووضعه حدًّا للأمبراطوريّة الكلدانيّة. وازدهرت في مقاطعة "ميديا"، مسقط رأس زرادشت ونالت دعم الجماعة الميديّة المعروفة بالمجوس. أمّا بداية المجوس فليست واضحة، وربّما كانوا من أصل غير آريّ. لكنّ سمعتهم بلغت غربًا حتّى أورشليم من حيث هم خبراء ماهرون في فنون السحر والتنجيم. وعبارة "MAGIC" الغربيّة، التي تعني السحر، مشتقّة من اسم المجوس. وكانت سمعتهم قد وصلت إلى مدينة بابل قبل سقوطها على يد كورش، ويبدو أنّهم عارضوا الزرادشتيّة بادئ الأمر. لكنّهم أدركوا أنّ وضعهم ككهنة يُتيح لهم نشرها بين الناس، لذلك ارتأوا تبنّيها. وسرعان ما أصبحوا دعاتها والمبشّرين بها في بلاد ما بين النهرَين[2].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ١٤٣.

٢ صعب، الأديان الحيّة، ص١١٠.

وكان كورش زرادشتيًا. لكنّه أوهم الكلدانيّين أنّه من عبدة الإله البابليّ مردوخ. إلاّ أنّ خليفته "داريوس" الأوّل و"أحشويروش" لم يساووا على الزرادشتيّة، بل أجلاّ "أهورا مزدا" على أنّه ملك السماء والأرض وربّ الأرباب. وكان لدى "داريوس" ثمّ لدى "أحشويروش" خطّة للغزو على أوسع نطاق في العالم. واقتحم "أحشويروش" بلاد الإغريق، إلاّ أنّ القائد "ثيميستوكليس" ردّه على أعقابه وهزمه في معركة "سلاميس"، قبل أن يقضي الإسكندر الكبير في القرن التالي على أمبراطوريّة الفرس ويحتلّ بلاد فارس. ويقدّر المؤرّخون أنّ كارثة "سلاميس" هي العامل الأكبر الذي منع الزرادشتيّة من أن تصير ديانة الغرب الرئيسيّة[1].

وبعد ثلاثمائة عام من موت زرادشت غزا الإسكندر الأكبر أرض فارس وحطّم الأفيستا. وأقام بدل الزرادشتيّة عقيدة اليونان. ولكنّ شعب فارس لم يشأ التخلّي عن عقيدته، وأخذ يعلّمها لأبنائه سرًّا. فلمّا استقلّت فارس عن الحكم الأجنبيّ بعد خمسمائة عام تقريبًا، أعادت تعاليم زرادشت ثانية. وجمع أتباع زرادشت الأجزاء القديمة من الأفيستا في كتاب واحد، برغم أنّ جزءًا كبيرًا قد ضاع من الأفيستا القديمة. ومع ذلك فإنّ الأفيستا الجديدة الباقية بدأت تنتشر في جميع أنحاء فارس، وبُنيت معابد جديدة للنار، أُبقيت النار مشتعلة فيها رمزًا للإله الحكيم الواحد الخالد[2].

وبعد أربعمائة عام أخرى، غزا العرب فارس، وجاؤوا بدينهم الجديد وهو الإسلام. وضعفت الزرادشتيّة إلى حدّ بعيد في بلاد فارس، خصوصًا بعد مقتل آخر الحكّام الساسانيّين عام ٦٥٢ للميلاد. لكنّ المسلمين الأوائل كانوا متسامحين مع أتباع الديانة الزرادشتيّة لمساواتهم بالذين أُنزل إليهم كتاب مقدّس كاليهود والمسيحيّين. أمّا

١ ـ أديب صعب، الأديان الحيّة، ص١١١.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٣١٦.

الاضطهاد الذي عرفه الزرادشتيّون في بلاد فارس فلم يحصل على أيدي العـرب. بيد أنّ عددًا من الزرادشتيّين في إيران فضّلوا الموت على اعتناق الدين الجديد، وإنْ فضّل عدد آخر منهم اعتناق الإسلام. ومَن بقي من الزرادشتيّين في إيران، فقد تسـتّروا، مـع الوقت تحت اسم "باه - دينان" أي "أتباع الدين الصـالح"، وابتعدوا عـن الأضـواء. ومـا يزال كهنتهم يُرسَمون حسب الطقوس القديمة ويُبقون النار متّقدة في معـابدهم البسيطة التي لا يميّزها عابرو السبيل عن المنازل العاديّة، ويحافظون على الطقوس التي تلقّوها من جيل إلى جيل، ولكن من غير إظهارها على الملأ[1].

وما إن انقضى قرن على الفتح العربيّ حتّى راح العديد من الزرادشتيّين يغـادرون بلاد فارس. وأخذت وفودهم تصل إلى البرّ الهنديّ، البلد الذي هربوا إليه منذ أكثر مـن ١٣٢٠ سـنة، حيث لقوا معاملـة حسـنة علـى أيـدي الهنـدوس المعروفيـن بالتسـامح. وسمّوهم "الفارسيّين PARSIS"، وأتـاحوا لهـم ممارسـة شـعائرهم بكـلّ حريّـة. وبالتـالي أصبحت الهند الموطن الثاني للزرادشتيّة بعد إيران، واليوم لـم يبـقَ فـي إيـران، أرض فارس القديمة، سوى القليل جدًّا من الزرادشتيّين[2]. وغدا عدد أتباع الديانـة الزرادشـتيّة في إيران اليوم في حدود ٣٠٠ ألف نسمة. والإحصـاءات تشـير إلـى أنّ هنـاك حوالـى ١٠٠ ألف في الهند، و٥٠ ألف في باكستان، و٥٠ ألف في دول أوروبّا، و٢٠ ألف في أميركا، و٢٠ ألفًا آخر في أفريقيـا الجنوبيّـة. فـي حيـن تذكـر مراجـع أخـرى أنّ عـدد الزرادشتيّين اليوم في الهند يبلغ نحو مئتي ألف. وغالبيّتهم ما تزال في غوجارات، تلك المقاطعة الواقعة في بومباي التي قصدوها منذ البداية. والزائر يتعرّف إليهم هناك مـن النظرة الأولى، ليس في لونهم الآريّ الفاتح فحسب، بل في ملابسهم الجليلة التي تجمـع

---

١ - مظهر، قصّة الديانات، ص٣١٧؛ صعب، الأديان الحيّة، ص١١٤.

٢ - المصدران السابقان.

بين القديم والحديث. وكاهنهم يُطلق لحيته كلّها ويلبس عمامة بيضاء ويرتدي جبّة ناصعة البياض. وفي الهند كما في إيران، لا يُعرف مكان العبادة في الخارج، لأنّ الزرادشتيّين يفضّلون ممارسة دينهم على نحو سرّيّ، ولا يسمحون للآخرين بالاقتراب من أمكنة العبادة حيث النار المقدّسة. وإذا كان مكان العبادة يحتلّ غرفة داخليّة في منزل في إيران، فهو في الهند يحتلّ المبنى كلّه[1].

ومع ذلك فهذه العقيدة رغم قلّة عدد أتباعها اليوم. فهي ذات أهميّة كبرى من حيث تأثيرها في العقائد الأخرى. ولا تزال جماعتهم حفيظة على كتبها المقدّسة، تخلص لها وتدرسها برغم ما أُدخل عليها من تغييرات، ولا تزال تقدّس النار والتراب والأرض والماء كرموز للإله.. وتعرض موتاها في أبراج الصمت للطيور الجارحة حتّى لا تدنّس العناصر المقدّسة بدفنها في الأرض أو حرقها في الهواء.. وهم قوم ذوو أخلاق سامية وآداب رفيعة تشهد بما كان للدين الزرادشتيّ من أثر عظيم في تهذيب الناس وتمدينهم وإيمانهم بالخير[2].

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص١١٤ ـ ١١٥.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٣١٨.



الفَصلُ الخَامِس

الكُونفُوشيُوسيَّة والتاويَّة

مَركزُ الكَون أو مَملكَة الوسَط؛ الديَانَات القَدِيمَة؛ العَرافة والتنبُّؤ؛ كُونفُوشيُوس؛ قصَّة كُونفوشيُوس؛ الكُونفُوشيُوسيَّة بَعد كُونفُوشيُوس؛ تَعاليم كونفُوشيُوس؛ مَنسيُوس وهسُو تسُو؛ إحراق كُتب الحُكماء؛ الكونفُوشيُوسيَّة والصِّين الجَديدَة؛ التَّاويَّة؛ حيَاة لاو- تسي؛ الكُتُبُ التَّاويَّة؛ التحوُّل الخَطير في التَّاويَّة؛ وصفٌ للتَّاويِّين؛ السَّماء الصفراء والطُّقوس التَّاويَّة؛ الجَماعَة التاويَّة؛ بينَ البُوذيَّة والتَّاويَّة.



مَركزُ الكَونِ أو مَملكَةُ الوسَط

كان الشعب الصينيّ في تراثه التقليديّ يعتبر نفسه مركزًا للكون، وكلمة "شانغ كيو CHUNG-KUO" وهي الإسم الصينيّ للصين، تعني حرفيًّا "مملكة الوسط"، فقد عدّ الصينيّون أنفسهم، على نحو ما فعل الإغريق، جزيرة من الثقافة وسط بحر من التوحّش والهمجيّة. وظلّوا لمدّة طويلة، على خلاف الإغريق وعلى نحو أشبه بالرومان، يفهمون فنون الإدارة الحكوميّة على نطاق واسع. وابتداء من الخدمة المدنيّة التي تقوم على أساس اختيار الكفاءة، فإن البيروقراطيّة الصينيّة حافظت على الأمبراطوريّة، فظلّت سليمة لا تمسّ لمدّة ألفَين من السنين. ولقد ظلّت خاصيّتا: التفرّد والاتّصال، اللتان يتميّز بهما روح الشعب الصينيّ حيّتَين على نحو مذهل، رغم أنّه قد حلّ محلّ هذه الأمبراطوريّة في البداية النظام الجمهوريّ "من ١٩١٢ حتّى ١٩٤٩"، ثمّ النظام الشيوعيّ.

لقد كان للصين كذلك، مثلها مثل الغرب، عصر تشكّل في فلاسفة، وحقبات أمبراطوريّة، وعصور نهضات ثقافيّة، وإن كانت الحضارة الصينيّة تتعارض في كلّ نقطة تقريبًا مع التجربة الغربيّة. ومن حيث الأفكار الدينيّة والفلسفيّة، بالإضافة إلى أمور أخرى كثيرة، استوعبت التجربة الصينيّة مشاعر وتطلّعات الجنس البشريّ كلّه، ولكنّها عبّرت عنها باستمرار بطريقة صينيّة خاصّة.

لعبت ثلاثة ديانات الدور الرئيسيّ على مدى ثلاثة آلاف سنة من التاريخ الصينيّ، وهذه الديانات هي: الكونفوشيوسيّة، والتاويّة، والبوذية. أمّا الكونفوشيوسيّة والتاويّة فهما ديانتان قوميّتان أصليّتان في الصين، وُجِدتا قبل دخول البوذيّة إليها من الهند بحوالي خمسمائة سنة. وحتّى قبل ظهور الكونفوشيوسيّة والتاويّة كانت هناك ديانة أقدم، تفرّعت عنها الكونفوشيوسيّة والتاويّة كلّ بطريقتها الخاصّة، وسيطرت هذه الديانة القديمة على الصين لما يقرب من ألف سنة. وهكذا امتدّ تاريخ الدين في الصين لأكثر من ألف عام ونصف الألف قبل أن تواجه أفكاره تحدّي التراث الأجنبيّ. وقد بقي هذا التراث القوميّ قويًّا حتّى بعد أن دخلت البوذيّة إلى الصين، إذ ازداد طابعها الصينيّ، وظهرت المدارس البوذيّة الصينيّة الخالصة. ولكنّ تأثير الفكر الهنديّ وتجربته الدينيّة على عقول الصينيّين، كان كذلك من القوّة بحيث غيّر من الكونفوشيوسيّة والتاويّة، اللتَين عادتا إلى الظهور في شكلَين جديدَين هما: الكونفوشيوسيّة الجديدة، والتاويّة الجديدة، اللتَين لم تكونا سوى إعادة تشكيل للتراث القوميّ الأصليّ حتّى يواجه تحدّي التراث الغريب الجديد. وفي حضارة كالحضارة الصينيّة التي استمرّت هذا الأمد الطويل، وظلّت متماسكة على نحو لم تؤثّر فيه، نسبيًّا، حضارات خارجيّة، كان لا بدّ أن تزدهر عبادات ونحل كثيرة، وقد أدخلت إليها كذلك ديانات غريبة عليها، ولا سيّما الصور الغربيّة من الديانة المسيحيّة، رغم أنّ دخولها إليها قد تأخّر إذا ما قورنت بالبلاد الأخرى. ومع ذلك فإنّ الكونفوشيوسيّة، والتاويّة، والبوذيّة، قامت على المدى البعيد بالأدوار الأساسيّة في التجربة الدينيّة الصينيّة. ومن المهمّ التذكير بأنّ الكونفوشيوسيّة والتاويّة بوصفهما ديانتَين، تمثّلان عند العقل الصينيّ الـ"شياو CHIAO" أي التعاليم، وأنّ هذه التعاليم ليست تعاليم دينيّة على سبيل الحصر، أو التخصّص، رغم أنّها تتعلّق بأمور كثيرة ممّا ننظر إليه نحن على أنّه يخصّ الدين.

فلقد نُظر إلى كتابات مؤسّسي الكونفوشيوسيّة والتاويّة على أنّها جزء من التراث الثقافيّ الجامع للصينيّين. أمّا في حالة الكونفوشيوسيّة فإنّ شريعتها المقدّسة لا تتكوّن من مؤلّفات مؤسسيّها فحسب، بل كذلك من الوثائق الدنيويّة التي كانت موجودة قبل كونفوشيوس وتشكّل التراث الكلاسيكيّ للصين. لقد ظلّت الشريعة الكونفوشيوسيّة لألفَين من السنين هي العصب الرئيسيّ لمنهج التربية والتعليم في الصين، وكان الإلمام بالشريعة على سبيل المثال، هو أحد المتطلّبات الرئيسيّة في امتحانات الخدمة المدنيّة. وفي جزء كبير من تاريخ الصين اعتقد الصينيّون أنفسهم أنّ الكونفوشيوسيّة والتاويّة وجهان أصيلان للروح القوميّ، لا مجرّد أنواع من الإيمان الدينيّ الذي يدعو إلى الهداية ويتطلّب الإنتماء والالتزام الشخصيّ[1].

ومن ناحية أخرى، ظهرت مع دخول البوذيّة في بداية العهد المسيحيّ، فكرة الدين بوصفه مؤسّسة رسميّة منتظمة، فطوّرت التاويّة، كردّ فعل عاجل على البوذيّة، مؤسّسات من هذا القبيل، كان لها على نحو البوذيّة نظام كهنوتيّ هرميّ، كما كانت لها معابد وأديرة وشريعة مقدّسة، وجذبت كلّ منهما مؤيّديها بوصفهم المهتدين إلى الإيمان. ثمّ كانت هناك حقبات في تاريخ الصين أصبح فيها الولاء الطائفيّ الذي ظهر على هذا النحو حرجًا للغاية. وكان الأمر كذلك، بصفة خاصّة، في تلك الحقبات النادرة التي اعتنق فيها أعضاء الأسرة الأمبراطوريّة الديانة البوذيّة أو التاويّة. غير أنّ القصر الأمبراطوريّ والمؤسّسة الحاكمة في الصين ظلّتا في المقام الأوّل كونفوشيوسيّتَين، وتأصّلت الكونفوشيوسيّة، بوصفها الفلسفة السائدة بين الطبقات المسؤولة عن الإدارة، في المراسم والطقوس الرسميّة وما تُقدّم الدولة من قرابين أمبراطوريّة. وبهذه الطريقة أصبحت جزءًا من الجهاز الحكوميّ، بل أصبحت عقيدة

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٠٦ ـ ٣٠٧.

الدولة. غير أنّ كلاً من الكونفوشيوسيّة والتاويّة، كانتا في الأصل مذاهب فلسفيّة خالية من أيّ عنصر من عناصر العقيدة، وتعتنقها "مدارس" وأفراد، ولم يشكّلا مؤسّسة، ولا كان لهما طابع دينيّ خاصّ[1].

الدِّيَانَات القَدِيمَة

نشأت في الصين القديمة أساطير كثيرة حول الآلهة. ومن هذه الأساطير واحدة تقول إنّه خلال عشر حقَب امتدّت مليونَي سنة، حكمت مجموعات من البشر وأنصاف البشر وأشباه الحيوانات، وإنّ حكم الواحد امتدّ حتّى ١٨ ألف سنة. لكنّ تلك الكائنات لم تكن أوّل الموجودات. وفي اعتقاد الصينيّين أنّه قبل خلق العالم لم يكن هناك شيء.. لا شيء على الإطلاق. واستمرّ ذلك وقتًا طويلاً، ثمّ ظهر شيء، ومن هذا الشيء خُلق "بان كو PAN KU". وهو الإنسان الأوّل[2].

لم يذكر لنا تاريخ الصين كم عاش "بان كو"، إنّما قيل إنّه كان غاية في القوّة، له رأس تنّين، وجسد أفعى، وكان حجمه يفوق حجم الرجل العاديّ بأربعة أضعاف. وعند ظهوره كان العالم في حال فوضى، فحمل مطرقة وإزميلاً، وما انفكّ يعمل طوال ١٨ ألف سنة حتّى فصل السماء عن الأرض، وحفرَ أمكنة في السماء للشمس والقمر والنجوم، كما حفر الأودية على سطح الأرض ورفعَ الجبال. أخيرًا، وفي تتويج لأعماله، وزّع نفسه على الكون بعدما ازداد حجمه، وهو يعمل في خلق العالم، الذي

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٠٧.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٧٢؛ مظهر، قصّة الديانات، ص١٨٦.

استطاع أن يشكّله حوالى عام ٢،٢٢٩،٠٠٠ قبل الميلاد، وعندما مات تجمّعت أنفاسه فصارت ريحًا وسحبًا، وأضحى صوته وأنّاته الأخيرة الرعد، وأصبح الدم في عروقه الأنهار، وعرقه الأمطار، وعظامه الصخور، وأسنانه المعادن، وشعره الغابات والأشجار، ولحمه الأرض، ورأسه الجبال، وأصبحت عينه اليسرى الشمس، وعينه اليمنى القمر، ولحمُه الحقول، ولحيتُه النجوم، وعظامه المعادن. وكوّن الآدميّين من الحشرات التي كانت تعلق بجسمه. ثمّ توزّعت بقاياه لتكوّن جبال الصين الخمسة المقدّسة[1]. وهكذا تمّت قصّة الخلق.

ثمّ تعاقب على الأرض ملوك سماويّون حكم كلّ منهم أكثر من مائة عام، جاهدوا أشدّ الجهاد ليجعلوا من "قمل" "بان كو" خلائق متحضّرين، بعد أن كانوا كالوحوش الضارية يلبسون الجلود، ويقتاتون باللحم النيّء، ويعرفون أمّهاتهم ولكن لا يعرفون لهم آباء. ومن بين هؤلاء الملوك السماويّين "فوشى" الذي عاش حوالى عام ٢٨٣٨ قبل الميلاد، ويُعتبر، في بعض قصص الصينيّين خالق البشر من "قمل بان كو"، ومعلّمهم الأوّل. وكانت لفوشى أخت سماويّة هي "نوكوا شي"، لها جسم ثعبان ورأس آدميّ. اعتبرها الصينيّون القدماء منقذة هذا العالم. فقد حدث أنّ "ربّ العقاب" المسمّى "هونغ كنغ" قد بالغ في القسوة والطمع حتّى دخل في صراع دمويّ مع ربّ الغابات حيث تغلّب عليه. ثمّ استمرّ في عدوانه حتّى اصطدم بـ "شوشنغ" أحد مساعدي "هوانغ تي" الذي أصبح في ما بعد إله النار. وفي هذه المعركة الجديدة هُزم ربّ العقاب، فثار غضبه، وضرب الجبل برأسه فانشقّ، ولم يكد ينهار حتّى تساقطت أعمدة السماء وانهدمت أركان العالم. وهنا نهضت "نوكوا" فأذابت خمسة من ألوان قوس قزح،

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ١٨٦؛ صعب، الأديان الحيّة، ص٧٢ ـ ٧٣.

وأعادت إصلاح أعمدة السماء، وقطعت أقدام السلاحف لتلصق بصمغها أركان الأرض، وجمعت رماد الهدم وكدّسته لتوقف به فيض الماء. وعادت الحياة من جديد على ظهر الأرض[1].

لم تكن الـ"أرواحية ANIMISM"، أي عبادة آلهة الطبيعة، وطقوس الخصوبة وعبادتها ولا سيّما عبادة الأسلاف مجرّد مظاهر لأقدم الممارسات الدينيّة الصينيّة التي حفظها التاريخ فحسب، وإنما هي تتكرّر في صور منوّعة ومختلفة في "الديانة الشعبيّة" للعصور التالية. وفي عام ٢٠٢٧ قبل الميلاد خلفت أسرة "تشو CHOU" أسرة "شانغ SHANG" وحكم القصر الملكيّ لأسرة تشو حتّى عام ٧٧١ قبل الميلاد بوصفهم "الملوك ـ الكهنة"، وظلّوا يسيطرون سيطرة تامّة على العالم الصينيّ. ولقد بقيت من هذه الحقبة مجموعة من الوثائق، وعدد لا بأس به من النقوش على أواني برونزيّة مقدّسة، وهي جميعًا تعطينا فكرة عن ديانة القصر الملكيّ لأسرة "تشو". والديانة الملكيّة لأسرة "تشو" تدّعي لنفسها أهميّة خاصّة لا تتناسب مع أهميّتها الحقيقيّة؛ وذلك لأنّ كونفوشيوس نظر إلى هذه الحقبة على أنّها العصر الذهبيّ. وقد استشهد ببعض وثائقها باعتبارها شواهد قديمة، وبذلك ضُمّت إلى الشريعة الكونفوشيوسيّة، وهكذا دخلت كثرة من عناصر ديانة "أسرة تشو" الملكيّة إلى العقيدة الكونفوشيوسيّة. فقد كان ملوك الصين الأوائل ملوكًا وكهنة في آن واحد، وتعتمد سيادة الملك على أنّ السماء هي التي قلّدته "مهامّ منصبه". وعندما ثار "ون WEN" على أسرة "شانغ" تولّى ابنه الملك "وو WU" (١٠٢٧ ـ ١٠٢٥ الميلاد) العرش وأسّس أسرة "تشوّ. وحكمت هذه الأسرة على نحو ما تؤكّد وثائق عهدها، معتقدة أنّ رسالتها قد قضت بها السماء؛ فالسماء هي التي أزاحت أسرة "شانغ"

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٨٦ ـ ١٨٧.

وأنهت تفويضهم بالحكم، وهي التي كلّفت أسرة "تشو" الملكيّة بتولّي هذا المنصب الذي هو "تفويض من السماء". وتعتقد أسرة "تشو" أنّ الإله الأعلى هو السلف الأعظم "شانغ - تي CHANG-TI" وهو لفظ مرادف لـ "تين TIEN" أي السماء، وبحسب الاعتقاد الذي كان سائدًا، تمسك السماء بيدها الكون بأسره، العالم الطبيعيّ وسكّانه، وهو العالم المعروف للصينيّين، وتقضي بتعاقب الفصول في مواقيتها، وتأمر بدورة الموت والتجدّد، وتكفل خصوبة الرجال والنساء والحيوانات والمحاصيل. غير أنّ السماء تمنح مسؤوليّة تنظيم الكون لوصيّها على الأرض، وهو "ابن السماء "تين تزو TIEN-TZU". ولقد وقع الاختيار على أسرة "تشو" للقيام بهذا الدور كما تزعم. و"تنظيم الكون" مسألة لا بدّ أن تكون مقبولة عند السماء "بي PEI" عن طريق الطقوس والشعائر، ومن خلال تأدية هذه الطقوس التي تستحثّ وقائع النظام الطبيعيّ وتسلسله في الكون وسط الجنس البشريّ[١].

العَرَافة والتنبُّؤ

لقد كان الصينيّون الذين عاشوا منذ عدّة آلاف من السنين عبدة للطبيعة تمامًا كأغلب الشعوب القديمة، وأهمّ عناصر تلك العبادة، الخوف من خوارق الطبيعة، وعبادة الأرواح الكامنة في جميع الأنحاء، وتقديس ما على الأرض من صور رهيبة وما لدَيها من قدرة على الإنتاج والتوالد، وخشية السماء وعبادتها وإجلال ما فيها من شمس منعشة وأمطار مخصبة. بل لقد كان الصينيّون يعدّون الشمس والمطر من عناصر الوئام والارتباط بين ما فوق الأرض من حياة وما في السماء من قوى خفيّة

---

١ - بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٠٩.

قادرة. ومن هنا عبدوا الريح والرعد والأشجار والجبال والأفاعي، وآمنوا بأنّ لكلّ من هذه المقدّسات روحًا يجب أن تُعبد. وأصبحت أعظم أعيادهم هي الأعياد التي تقام لمعجزة "النماء" حيث يحتفل الشبّان والفتيات بأيّام الربيع فيرقصون ويتضاجعون في الحقول وفي الخلاء، ليضربوا المثل لأمّهم الأرض في الإخصاب والإنجاب. وكان الصينيّون يجمّلون الحقائق الواقعيّة الماديّة بخوارق الطبيعة. فكانوا يحسّون أنّ آلافًا من الأرواح الطيّبة والخبيثة ترفرف من حولهم في الهواء المحيط بهم، وفوق الأرض التي تحت أقدامهم، وكانوا يحرصون على أن يردّوا عداوة هذه القوى الخفيّة، وأن يستعينوا عليها بالأدعية والرقى السحريّة. فراحوا يستأجرون المتنبّئين ليكشفوا لهم عن المستقبل باستخدام أصداف السلاحف وتأمّل حركات النجوم، كما استأجروا السحرة ليوجّهوا منازلهم نحو الريح والماء، وتعاملوا مع العرّافين ليستنزلوا لهم نور الشمس وماء المطر. بل لقد بلغ بهم الأمر حدّ أنّهم كانوا يعرضون للموت مَن يولدون من الأطفال في أيّام النحس، أمّا البنات، فكنّ إذا توقّدن حماسًا وغيرة يقتلن أنفسهنّ ليجلبن الخير أو الشرّ لآبائهنّ[1].

يبدأ التاريخ المسجّل للصين بأسرة "شانغ SHANG" التي استمرّ حكمها من القرن السادس عشر حتّى القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وكانت سجلاّتها تتألّف من مجموعة من العظام نُقشت عليها نبوءات، تمّ اكتشافها قرب نهاية القرن التاسع عشر قبل الميلاد حيث أصبحت منذ ذلك الحين المصدر الرئيسيّ لتاريخ أسرة "شانغ". وكانت هذه العظام إجابات عن أسئلة قدّمت إلى العرّافين، وقد تمّ إنقاذ مئات الألوف من شذارتها، وكانت الأسئلة تُحفر على عظام الحيوانات والقواقع والأصداف، وتوجّه

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٨٧ ـ ١٨٨.

إلى الأرواح طلبًا للهداية والإرشاد، وبعد أن يُحفر السؤال، يقوم العرّاف بتسليط النار على ثقوب يُحدثها في العظم، ثمّ يؤول ما ينتج عن الحرارة من تصدّعات بأنّ الأرواح تجيب ببشائر أو نذير شؤم. وقد حصل الباحثون من طبيعة الأسئلة المطروحة على صورة لمجتمع ينظّمه، في كلّ جانب تقريبًا من جوانب الحياة اليوميّة، التنبؤ بالغيب، وتحكمه اعتبارات الحظّ الحسن أو الفأل السيّء، أمّا "القوى" التي يستشيرونها في عملية التنبّؤ بالغيب فهي أرواح الموتى من الملوك أو الـ"تي TI"، وكذلك أرواح الأسلاف. ويبدو أنّه كان هناك عنصر جنسيّ في هذه العبادة، وذلك يتّضح من الآثار الباقية من أشكال الخطوط التي لا يزال من الممكن تمييزها. كما يتّضح من الأسئلة التي كانت تُطرح حول آداب تقديم القرابين وتأدية الطقوس، أنّ آلهة التلال والأنهار وغيرها من آلهة الطبيعة والأرواح الحارسة، كانت تُعبد إلى جانب أرواح الموتى. ولم يكن الموتى يُسألون فقط عن الهداية والإرشاد في أمور السلوك، بل كان يُتوسّل إلى قواهم الداخليّة "مانا MANA" حتّى تكفل خصوبة الرجال والنساء والمحاصيل والحيوانات. لقد كان الصينيّون، الذين عاشوا منذ عدّة آلاف من السنين، عبدة للطبيعة تمامًا كأغلب الشعوب القديمة[1].

١ ـ راجع: بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٠٧؛ مظهر، قصّة الديانات، ص١٨٨.

كونفوشيوس

يُعتبَر كتاب "المنتَخبات ANALECTS" أفضل مصدر لحياة كونفوشيوس وآرائه، وهو الكتاب الذي وضعه تلاميذه وضمّنوه أقواله. وإذ لم يحوِ هذا الكتاب الكثير عن حياة الرجل، ظهرت سِيَر عدّة لاحقًا، وإن لم تكن كلّها موضع ثقة. والمعروف أنّ أثر كونفوشيوس كان كبيرًا جدًّا في التربية والحكم في الصين حتّى وقت قريب، وهو أثر جاء ليس من التعاليم وحدها، بل من سيرة حياة رجل، الذي يذهب الصينيّون إلى أنّه كان مثال الرجل الكامل الذي لم يعرف الفسادُ طريقًا إليه[1].

قصّة كونفوشيوس

بحسب بعض الباحثين، وُلد كونفوشيوس عام "٥٥١ قبل الميلاد" في دولة المدينة في مملكة "لو LU"، ومات فيها عام ٤٧٩ قبل الميلاد[2]. ويقول آخرون إنّه منذ حوالى ٢,٥٠٠ سنة، كان يعيش في إقليم "لو" بمنطقة "تشو"، في شبه جزيرة "شانتونغ"، على مقربة من نهر "هوانغهوا"، رجل اسمه "تشوليانغ هيه"، من أسرة "غونغ". وكان

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٨٣ ـ ٨٤.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٢٠.

"تشوليانغ هيه" من سلالة ملكيّة، وكانت له القيادة على منطقة "تشو" بالقرب من النهر الأصفر بعيدًا من البحر الأصفر. وتحدّث الناس عن القائد "تشوليانغ هيه"... وكان من بين ما تحدّثوا به عنه ما جرى عندما كان يتولّى القيادة وحاصر بجيشه قلعة أحد أعدائه. فقد حدث أن ترك "تشوليانغ هيه" مدخل القلعة مفتوحًا، واندفع الكثيرون من رجاله في ذلك المدخل، وعندما أصبحوا داخل القلعة لجأ العدوّ على الفور إلى الأبواب ليحصر جنود "تشوليانغ هيه" داخل القلعة. وعندئذ اندفع "تشوليانغ هيه" نحو الأبواب الضخمة الهائلة ودفعها بيدَيه وظلّ يرفعها حتّى مرّ جميع رجاله عائدين ناجين من الفخّ الرهيب. من أجل هذا كان بإمكان "تشوليانغ هيه" أن يكون رجلاً سعيدًا جدًّا. ولكنّه لم يكن كذلك. فقد كان "تشوليانغ هيه" متزوّجًا وله تسع بنات. والبنات يكبرن ويتزوّجن ويعبدن أسلاف أزواجهنّ كما تقضي التقاليد. وكان "تشوليانغ هيه" يريد أن يكون له ولد يعبد روحه بعد مماته. ولهذا لم يكن "تشوليانغ هيه" سعيدًا قطّ. ولكنّه عندما بلغ السبعين من العمر أهدته زوجته الجديدة الصغيرة "تشينغ تساي" ولدًا سمّياه "تشيمو". وكان ذلك عام ٥٥١ قبل الميلاد. وعندما بلغ "تشيمو" الثالثة من العمر مات أبوه "تشوليانغ هيه". وأصبح "تشيمو" يتيمًا، يعيش في الإقليم الذي يُسمّى اليوم "شانتونغ" بجوار البحر الأصفر المقدّس. وبالرغم من أنّ "تشوليانغ هيه" كان حاكمًا لإقليم "تشو"، إلاّ أنّه، عند موته، ترك زوجته ضحيّة لفقر مدقع. ومع ذلك استطاعت الأرملة الشابّة أن تدبّر أمر تعليم ابنها الوحيد تعليمًا طيّبًا. وعندما أثنى معلّموه على اهتمامه بالدراسة وفهمه للأشياء التي كان الكبار أنفسهم يجدون صعوبة في فهمها، امتلأت نفسها سعادة وفرحًا. وكان "تشيمو" يدرس على أحد معلّمي القرية الذي لقّنه التاريخ الصينيّ القديم والأشعار والموسيقى التقليديّة. ويُقال إنّه كان يعزف ويغنّي الأشعار القديمة. وفي الخامسة عشرة قرّر التبحّر في تلك

العلوم فراح يستزيد منها حتّى أتقنها. وكان أحيانًا يمارس الرياضة، ومنها صيد الطيور والسمك[1].

وفي حين نسب باحثون كلامًا لـ "تشيمو" جاء فيه أنّه قال لتلاميذه ذات يوم: " أنا أفخر بأنّي لم أستعمل قطّ شبكة لصيد السمك، ولم أرمِ طائرًا بسهم، إلاّ إذا كان الطائر محلّقًا في الفضاء، حتّى تكون لديه فرصة الهرب أو النجاة". وهذا ما يوحي بأنّ كونفوشيوس كان شديد العطف على الحيوان.

تزوّج كونفوشيوس وهو في التاسعة عشرة من العمر، وكان من البديهيّ أن يبحث عن عمل. فقيل إنّه وُظّف كجابي ضرائب وأمين مخازن للحبوب عند حاكم "لو"، وهو منصب بالغ الأهميّة بالنسبة لشاب لم يكن قد بلغ العشرين من العمر بعد. وكان يجمع رؤوس الماشية والمحاصيل التي يتوجّب على المواطنين دفعها للدولة[2]. وكان كونفوشيوس يتمنّى التخلّي عن منصبه لكي يكرّس كلّ نفسه وجهده لدراسة الشعر والموسيقى، غير أنّه عجز عن تحقيق الأمنية لأنّ زوجته وضعت في ذلك الوقت ولدًا ذكرًا جعله يقرّر الاحتفاظ بمركزه ليعيل الأسرة التي بدأت تنمو وتكبر. ولكنّ كلّ ذلك لم يمنعه عن الاهتمام بالأمنية التي أرادها. فبرغم الواجبات اليوميّة الكثيرة للمشرف على الحقول التي كانت تشغل كلّ وقته، إلاّ أنّه كان يقضي جزءًا كبيرًا من وقت فراغه في دراسة التاريخ والموسيقى والشعر، وزادت معرفته يومًا بعد يوم وهو مستمرّ في دراسته، وحكمته تتزايد وتشتهر في جميع أنحاء الإقليم الذي يعيش فيه، حتّى بدأ الناس يتوافدون من كلّ مكان ليتبادلوا معه الحديث وينصتوا إلى ما يقول. وقد سارت الأمور سيرها الطيّب مع الحكيم كونفوشيوس حتّى بلغ الثالثة والعشرين. ثمّ

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٩٠ ـ ١٩١؛ صعب، الأديان الحيّة، ص٨٣ ـ ٨٤.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٨٣ ـ ٨٤.

حدثت المفاجأة إذ ماتت والدته. فكان لهذا الحدث وقع المصاب الجلل الذي أدّى إلى كثير من التغيّرات في حياته، كان أوّلها استقالته من منصبه. وأصبح عمله الوحيد هو أن يندب أمّه. وبلغ به الحزن حدًّا كبيرًا جعله يهمله زوجته إهمالاً كبيرًا، أدّى بهما إلى الانفصال في ما بعد. هنا بدأ كونفوشيوس يتطوّر من جديد، فاعتزل الحياة العامّة وراح يكرّس وقته لدراسة تاريخ شعبه وشعر ذلك الشعب وفلسفته، ولكنّه لم ينسَ في كلّ تلك الأوقات أمّه الراحلة. بل راح يقضي الشهور إلى جانب قبرها يتأمّل الموت كما يتأمّل الحياة[1]. وعندما انتهت أيّام الحداد التي كتبها على نفسه وهي سبعة وعشرون شهرًا، أي ثلاث سنوات حسب التقليد الصينيّ الخاصّ بالدفن والحداد، لم يعد كونفوشيوس إلى وظيفته الحكوميّة بل مضى في دراسته وجعلَ من نفسه معلّمًا، وبدأ يعلّم التلاميذ هذه المرّة، كوسيلة لكسب العيش. وطارت شهرته كمعلّم عظيم، إلى حدّ أنّ التلاميذ أصبحوا يجيئون إليه من جميع أنحاء إقليم "لو" ومن الأقاليم البعيدة عنه[2].

علّم كونفوشيوس "المواضيع الستّة" الرئيسيّة آنذاك، وهي: التاريخ، الشعر، السياسة، الملْكيّة الاقتصاديّة، الموسيقى، قراءة الغَيب. ولم يجد سوى بيته ليكون المدرسة التي يُلقي فيها الدروس على مريديه. وليكون بعد ذلك ملتقى لأهل العلم في كلّ المنطقة، وأصبح البيت لا يخلو، أيّ أمسية، من أناس من مختلف الأعمار يأتون إلى المعلّم يستفسرونه ويسألونه ويتلقّون منه الصواب في كلّ شيء. وما كان أكثر سعادته وهو يحسّ أنّه يعلّم ما يعرفه لأولئك الذين في حاجة إلى العلم، ولو كان ذلك بغير مقابل، ولو كان ما يدفعه التلاميذ غاية في الضآلة والقلّة مهما كان عددهم.

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٩١ ـ ١٩٣.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٨٤؛ مظهر، قصّة الديانات، ص١٩٣ ـ ١٩٤.

وكان الكثيرون من الناس الذين يأتون إلى بيت المشرف الشاب يسمّونه "كونغ - فو - تشي"، أي "كونغ الفيلسوف".. ومن هنا بدأ تحريف الإسم ليطلق عليه الناس بعد ذلك اسم "كونفوشيوس".

عندما بلغ كونفوشيوس الرابعة والثلاثين من عمره أصبح له أكثر من ثلاثة آلاف تلميذ ومريد. وكان من بين تلاميذه إبن رئيس وزراء إقليم "لو" الذي أصبح صديقًا للمعلّم الحكيم، الأمر الذي زاد في انتشار سمعته وشهرته في جميع الأنحاء. وحدث أن نشبت حرب أهليّة في إقليم "لو" واضطرّ الأمير إلى الهرب من موطنه لينجو بحياته، واضطرّ كونفوشيوس للهرب، هو الآخر، إلى إقليم "تسي" المجاور. غير أنّ الحكيم ضاق بالعيش خارج وطنه. فلم تكد الحرب تنتهي حتّى عاد إلى إقليم "لو" وواصل تعليمه. في ذلك الوقت كان ابن كونفوشيوس "لي" قد كبر، لكنّه كان مخيّبًا لآمال أبيه، لأنّه أحجم عن دراسة الشعر، غير أنّ عزاءه كان في التلاميذ الذين أحبّهم حبًّا كبيرًا، وتنبّأ لهم بمستقبل عظيم[1].

عندما بلغ كونفوشيوس الثانية والخمسين، كان قد قام بدور كبير جدًّا في تعليم أبناء الصين. ولكنّه عندما كان يقوم بدور المعلّم، لم يكن يفعل ذلك كواحد من الأنبياء أو القدّيسين، إنّما كان حكيمًا من الحكماء، اطّلع على كتب الأوّلين واستخلص ما فيها، وأراد أن يقدّم للناس خلاصة سهلة مفهومة لِما تحويه هذه الكتب وما استطاع بحكمته وتأمّلاته أن يخرج به من الحياة. وكان تعليم كونفوشيوس كتعليم سقراط، شفويًّا لا يلجأ فيه إلى الكتابة. وجرت عادته على التنقّل من مكان إلى مكان، وفي صحبته نفر من التلاميذ والمريدين، يستوحون آراءه. ومن هنا كانت الحوادث التي تصادفهم، عرضًا،

---

١ - مظهر، قصة الديانات، ص١٩٣ - ١٩٥.

في الطريق هي التي توحي بموضوع الحديث. ومن بين ذلك، ما حدث عندما التقى كونفوشيوس في طريقة بامرأة تصرخ وتستغيث، فلمّا سألها المعلّم عن سبب بكائها وعويلها في هذه الصحراء الجرداء أجابته: "إنّ نمرًا مفترسًا قتل والد زوجي في هذا المكان، كما افترس زوجي ثمّ تبعه ولدي". وسألها كونفوشيوس: "لماذا تبقين في هذا المكان القفر بما فيه من نمور؟" أجابت المرأة: "لأنّه لا يوجد هنا حاكم ظالم". وعندما سمع كونفوشيوس تلك الإجابة استدار نحو تلاميذه وقال لهم: "اكتبوا عندكم أيّها التلاميذ، إنّ الحاكم الظالم أخطر على الناس من النمر المفترس".

إجتهد كونفوشيوس في أن يستبعد من تعلميه الموضوعات المتّصلة بتمجيد البطولة الجسمانيّة، والأعاجيب والثورات وخوارق الطبيعة، كما كان يتحاشى الدخول في مناقشات تتّصل بالكائنات غير المنظورة. وكان شديد العطف على الحيوان، حتّى أنّه كان لا يتّخذ لنفسه إلاّ الملابس المصنوعة من الكتّان على الرغم من انتشار الأقمشة الحريريّة. وعندما سأله أحد تلاميذه في ذلك قال: "أنا لا أستبيح لنفسي أن أقتل دودة القزّ لأستولي على نسيجها وأصنع منه ردائي". وسأله تلاميذه: "لماذا لا تشرب اللبن؟". فأجاب: "لأنّ اللبن من حقّ الرضيع من البهائم". وكان شديد المراعاة للمراسم، وكانت قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه. وكان يبذل ما في وسعه للحدّ من قوّة الغرائز والشهوات وكبح جماحها بعقيدته المتزمّتة الصارمة. وقد قال مرّة: "قد أكون في الأدب مساويًا لغيري من الناس.. ولكنّ خلق الرجل الأسمى الذي لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل إليه بعد". أمّا تلاميذه فكانوا يقولون عنه: "كان المعلّم مبرّأً من أربعة عيوب: فهو لا يجادل وفي عقله سابق رأي، ولا يتحكّم في الناس ويفرض عليهم عقائده، ولم يكن عنيدًا، ولم يكن أنانيًّا"[1].

---

١ ـ مظهر، قصة الديانات، ص١٩٥ ـ ١٩٧.

وإذ كان كان كلّ شيء في مدينة "غونغ دو" غارقًا في الفساد والجريمة، قرّر بعض الأهالي الإستعانة به لإنقاذ مدينتهم. وخرجوا جميعهم للبحث عنه، وإذ وجدوه رأوه "رجلاً ذا رأس أصلع لا تكاد تنمو عليه شعرة، في وجهه جدّ ورهبة يزيدهما قبحًا شفتان كبيرتان كشفتَي الثور، وفم واسع كالبحر، وجبهة عريضة فوق عينَين واسعتَين تبعثان الرعب. وبدا للجميع رهيبًا بقامته الطويلة التي لا تقلّ عن تسعة أقدام، وظهره المقوّس الشبيه بظهر سلحفاة، ومنظره الكئيب...، وعرفوا في العملاق الواقف أمامهم، الحكيم كونفوشيوس. وتقدّم أهالي المدينة من الحكيم وسألوه أن يكون قاضيًا للقضاة في مدينتهم التي هي بأمسّ الحاجة إليه. وفكّر كونفوشيوس طويلاً قبل أن يردّ بالإيجاب". ولم تمض أشهر قليلة حتّى "اجتاحت المدينة موجة جارفة من الشرف والأمانة، وأصبح كونفوشيوس معبود الشعب". وسمع أمير "لو" بهذا الذي حدث في إحدى مدن ولايته، فأرسل يستدعي الرجل الذي اعتبره صاحب المعجزة. وإذ مثل كونفوشيوس في حضرة الملك سأله: "ماذا فعلت لتجعل أهل مدينتك سعداء مخلصين في مثل هذا الوقت القصير"؟ فقال الحكيم: "كنت أكافئ الصالحين وأعاقب الأشرار. ورأى الناس أنّه من الخير أن يكونوا صالحين فيكافأوا، عن أن يكون أشرارًا فيعاقبوا. وهكذا تحوّلوا جميعًا إلى قوم صالحين. والصالحون يخلص بعضهم لبعض وللحكومة. وأخذت الحكماء لتعليمهم والعناية بهم كما لو كانوا أطفالاً، وإذا كان من الصعب أحيانًا أن تجعل الناس يفهمون، فإنّه من السهل دائمًا أن تجعلهم يتبعون المثل. وعندما يتبعون مثل الطيّب الحكيم يصبحون سعداء". عندئذ هزّ طلب الملك إلى الحكيم أن يصبح وزير الجرائم في كلّ إقليم "لو". ولم يكد كونفوشيوس يتولّى منصبه الجديد حتّى أخذ يدرس حال السجون في الإقليم، وحال المساجين في جميع أنحاء البلاد. ثمّ دعا الوزير كلّ القضاة والمحامين وحرّاس السجون في المدينة وقال لهم:

لقد درستُ سجوننا وتبيّنت أنّ أغلب المسجونين عندنا من الفقراء أو أبناء الفقراء. وتبيّنت أيضًا أنّ أغلب هؤلاء المسجونين جهلة أو أبناء جهلة. ويبدو لي أنّ الفقر والجهل يدفعان الناس إلى ارتكاب الجرائم والخروج على القوانين. فإذا قضينا على الفقر والجهل لما وقعت في بلادنا جريمة... وطريق القضاء على الجهل هو طريق التعليم. فإذا علّمنا جميع الناس في إقليمنا قضينا على الجهل. ونستطيع القضاء على الفقر بتعليم الناس الصناعات والحرف بحيث يمكن أن يكسبوا عيشهم بشرف... أنتم حكّام الناس، ومن واجبكم أن تكونوا قدوة صالحين. فالناس في حاجة إلى حكّام يستطيعون أن يتبعوهم. فإذا كان الحكّام فاسدين أصبح الناس هم الآخرون فاسدين. ولكن إذا كان الحكّام صالحين فيحذو الناس حذوهم ويصبحون صالحين. فأوّل قاعدة للإصلاح هي ألاّ تفعل للآخرين ما لا تحبّ أن يفعلوه لك.

وما انقضى عامان حتّى خلت السجون والمحاكم جميعًا في إقليم "لو"[1]. وفي ذلك الوقت، كان يحكم إقليم "لو" شاب اسمه "تينج". وكان النجاح الذي أحرزه كونفوشيوس دافعًا للأمير الشاب على أن يجعله مستشاره في جميع شؤون الحكومة، وكان كونفوشيوس قد أصبح في الخمسين من العمر. وإذ كانت استشاراته غاية في الدقّة أصبح إقليم "لو" أكثر الأقاليم غنى وأعظمها قوّة. ما جعل كونفوشيوس يتقلّب في مناصب عدّة، منها وزارتا الأشغال والعدل، قبل أن يصبح رئيسًا للوزراء. وكان كونفوشيوس يعتقد بأنّ أفضل طريقة لتحقيق أفكاره هي أن يتسلّم مع تلاميذه أعلى المناصب الحكوميّة، فكان أن تتحقّق له ما يريد[2].

وتتحدّث المدوّنات عن أنّ ازدهار إقليم "لو" قد أزعج حكّام سائر المقاطعات، فحاكوا مؤامرة لإبعاد كونفوشيوس من قرب ملك الإقليم، ونجحوا في ذلك. وغادر

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ١٩٨ ـ ٢٠٥.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ٨٤؛ مظهر، قصّة الديانات، ص ١٩٦ ـ ٢٠٥.

كونفوشيوس مقاطعة "لو" مع القليل من مريديه المخلصين مغضوبًا عليه من وطنه، وهو في الخامسة والخمسين، ساعيًا إلى منصب حكوميّ، لدى حاكم عادل يريد أن يتعلّم كيف يجعل قومه سعداء صالحين، لكنّه لم يوفَّق في ذلك. وخلال تجواله من إقليم لآخر، استقبله حكّام الدويلات استقبالاً حسنًا ولقي ألوانًا من المجاملة والترحاب، ونظر إليه بعضهم كرجل حكيم يستحقّ الاحترام، إلاّ أنّ ذلك لم يكن كافيًا لممارسة السياسة. وفي المقابل لقي كونفوشيوس، في تجواله، صنوفًا من الحرمان والأذى، وهاجمه وصحبه الرعاع مرّتين، وكادوا، في يوم من الأيّام أن يموتوا جوعًا، حتّى شرع "تسي لو" أحد أتباعه، يتذمّر ويقول إنّ حالهم لم يعد يليق بالإنسان الراقي. واستمرّ الحكيم ومريدوه يتجوّلون بين الأقاليم خمسة عشر عامًا باحثين عن حاكم يريد الخير والسعادة لشعبه فلم يجدوا واحدًا. وفي عام ٤٨٤ قبل الميلاد، كان كونفوشيوس قد بلغ التاسعة والستّين من العمر، فدعاه حاكم مقاطعة "لو" الجديد إلى العودة إلى موطنه، وتسلّم مهام كبير مستشاريه. وقد تمّ ذلك بإيعاز من أحد أتباع المعلّم بعدما تسلّم وظيفة رسميّة رفيعة في المقاطعة. غير أنّ الحكيم كان قد قرّر أن يقضي سنوات عمره الباقية في بيته الذي هجره منذ زمن بعيد، وآثر العزلة الأدبيّة لينصرف إلى كتابة الشعر ونشر روائع الكتب الصينيّة القديمة وكتابة تاريخ الصينيّين وجمع محاضراته. وكان يرجو أن يستطيع، عن طريق كتبه، نشر أرائه إلى جميع أنحاء الصين، وأن يعمل أتباعه ومريدوه على تحقيق رجائه. إلاّ أنّه من المشكوك فيه أن يكون كونفوشيوس قد وضع بنفسه كلّ الكتب المنسوبة إليه[1].

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ٢٠٨؛ صعب، الأديان الحيّة، ص٨٤.

الكُونفوشيُوسيَّــة

بَعد كُونفُوشيُوس

شاخ كونفوشيوس. وإذ كان قد بذل قصارى جهده في الكتب التي كان يجمعها ويؤلّفها، فإنّ فكرة الفقر والشقاء المنتشرَين في جميع أنحاء الصين كانت تثير حزنه. وكان كونفوشيوس في السبعين من عمره عندما توفّي ابنه "لي" تاركًا ولده "كيغ" الذي يشبه جدّه إلى حدّ كبير. وعاشَ الحفيد مع جدّه وتلقّى العلم عليه، وكان مثار متعة وسعادة كبرى للفيلسوف الشيخ. وذات يوم، بينما كونفوشيوس في الغرفة وحده يعمل في كتاب عن التاريخ إسمه "الخريف والربيع"، إذ دخل حفيده "كيغ" الغرفة بهدوء، وعندما شهد جدّه غارقًا في العمل سكت، وظلّ على سكوته حتّى كفّ جدّه عن العمل وتنهّد بجهد. وجلس الحكيم في هدوء وقال يخاطب حفيده الذي أجلسه بجانبه: "في كلّ مدينة رجال لهم من الفهم مثل ما لي، ولكنّني عندما أتلقّى سؤالاً عن نفسي أتعمّقه حتّى أفهمه، وهناك كثير من الرجال يماثلونني حكمة ولكنّ القليلين هم الذين يحبّون أن يتعلّموا". وسكت الحكيم فسأله حفيده: "لديّ سؤال.. كيف يسير المرء نحو حياة صالحة؟". قال كونفوشيوس: "إبغِ الصواب، واستمسك بالكسب الصالح، واسترح في الحبّ، وتحرّك في الفنّ.. هذه هي طرق الحياة الصالحة"... وساد سكون. ثمّ عاد كونفوشيوس يعمل... ليموت بعد ذلك بهدوء. وكان ذلك في حوالى ٤٧٨ أو ٤٧٩ قبل الميلاد، وهو غير راضٍ تمام الرضى عن إنجازاته[١].

وعندما ذاع نبأ موت الحكيم عمّ الحزن لوفاته في جميع أنحاء الصين.. حتّى الحكّام الذين أهملوه حيًّا احتفلوا بإحياء ذكراه. وأعلن تلاميذه وأتباعه الحداد على موته

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٨٤؛ مظهر، قصّة الديانات، ص٢١١.

ثلاثة أعوام كما لو كان أباهم. بل بنى بعضهم أكواخًا صغيرة على مقربة من قبره ظلّوا فيها طوال أيّام حزنهم يدرسون تعاليمه ويحيون ذكراه.

إستمرّت الكونفوشيوسيّة تخترق طريقها، بعد وفاة المعلّم المؤسّس، بالرغم من أنّ البعض لا يعتبرها أكثر من منهج خلقيّ أو أسلوب من أساليب الحياة. إلاّ أنّه ما من شكّ في أنّها استطاعت أن تقوم تمامًا بالدور الذي يمكن أن يقوم به أيّ دين سماويّ. فقد استطاعت أن تؤدّي جميع الوظائف التي يُرجى أن يؤدّيها أيّ دين من الأديان. والواقع أنّ كونفوشيوس نفسه كان رجل دين تمثّلت فيه جميع العقائد الصينيّة القديمة. وكان أتباعه ومريدوه رجال الدين بكلّ ما للكلمة من معنى، برغم ابتعاد تعاليمه عن ذكر كلّ ما يتعلّق بالسماء والطقوس والآلهة. وهو إذا كان قد تجاهل هذه الأسس التي يُفترض أنّها أسس كلّ دين ومظاهره الرئيسيّة، فهو لم يفعل ذلك عن استخفاف، ولكنّه كان يرى أنّها ليست من جوهر الدين في شيء. فالعقيدة التي جاء بها كونفوشيوس وعمل على نشرها وتطبيقها تدخل بالفعل تحت ما يُسمّى بالمذهب الإنسانيّ. فهو أوّل إنسانيّ ظهر في العالم وأساس تعاليمه ألاّ يعتمد الإنسان على أيّ كائن علويّ أو أيّة قوّة غير منظورة يطلب منه العون والتوفيق في حياته. بل على المرء أن يصل إلى ما يتمنّاه من مراتب التقدّم والسعادة عن طريق ذاته فحسب، ويكون ذلك بتثقيف نفسه وتهذيبها، لأنّ المعرفة الصحيحة هي وسيلة الحياة السعيدة الهانئة. والمعرفة الصحيحة هي التي تخلق الرجل السعيد الموفّق، وهي التي تخرج العائلة الصالحة والحكومة العادلة، وهي التي تؤدّي، بوجه عام، إلى خلق عالم تسوده العدالة والمحبّة والسلام[1].

إستخدم كونفوشيوس الوثائق التاريخية للديانات القديمة في الصين ككتب مقدسة، وبتأويله لغتها العتيقة تأويلاً معاصرًا، أنشأ كونفوشيوس مذهبًا أخلاقيًا واجتماعيًا من

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢١١ ـ ٢١٢.

كتابات كانت تتعلّق بالعرافة، ويسيطر عليها السحر واللاّأخلاقية. وهكذا نجد "تي TE" القوّة السحريّة، و"مانا MANA" القوّة الداخليّة" عند القدماء، تصبحان فضيلة بالمعنى الأخلاقيّ والإجتماعيّ. وتصبح القوّة التي تمارسها "المانا" هي قوّة المثال التي رأى كونفوشيوس أنّها قادرة على تحويل "الخير" إلى قوّة لا يمكن مقاومتها، وصار أمير النصوص القديمة "تشن شو CHUN TZU" عند كونفوشيوس هو "الأمير الحقيقيّ"، وهو الرجل المهذّب على نحو ما ينبغي أن يكون عليه الرجل المهذّب، كما أنّ "جين JEN" التي تدلّ على صفات أعضاء القبيلة ذوي المستوى الرفيع، صارت عند كونفوشيوس، صفة عالية للخير لا يصل إليها إلا حكماء الماضي وحدهم. ولقد كانت عبقريّة كونفوشيوس هي التي قلبت الكثير من مفردات لغة الديانة البدائيّة إلى مفردات أخلاقيّة، وحوّلت تلك الديانة إلى نظام أخلاقيّ، وذلك مع انتقال المجتمع مع الاهتمام بالفأل الحسن والسيّء، إلى الاهتمام بالصواب والخطأ. ولمّا كان كونفوشيوس قد أنشأ نظامًا أخلاقيًّا جديدًا فقد ظلّ يؤثّر في الصينيّين، كما ظلّ موضع إجلالهم واحترامهم لألفَين من السنين، وإن كان إخلاص أتباعه له قد جعلهم يخلعون عليه شرف النجاح العالميّ باعتباره رجل دولة ودبلوماسيّ حتّى مجّدوه ونادوا به "ملكًا لم يتوّج قط"، أمّا كونفوشيوس التاريخيّ، في مقابل كونفوشيوس الذي قدّمته الأساطير وولاء الطلاّب، فكان في الحقيقة معلّمًا جوّالاً محبطًا، يئس من أن يضع حاكم مدينته تعاليمه موضع التنفيذ؛ فارتحل إلى ولايات مجاورة لم يجد فيها إلاّ نفس الإهمال والاستقبال العدائيّ. ولم يعترف بفضله في أيّامه إلاّ حلقة صغيرة من الأتباع والمريدين، وكان لا بدّ من مضيّ قرون قبل أن تسود تعاليمه، وقد مات وهو يشعر بالإحباط[1]. إلاّ أنّه لم يمضِ زمن طويل حتّى جعل أتباع كونفوشيوس ومريدوه مؤلّفاته والكتب التي جمعها

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٢٠.

كتبًا مقدّسة، أصبحت من بعدُ أوّل ما يجب أن يتعلّمه التلميذ، بل لقد أصبح الموظّف الحكوميّ لا يعيَّن في وظيفة إلاّ بعد أن يجتاز امتحانًا في الكتب المقدّسة الكونفوشيوسيّة. أمّا الحكمة فقد نُقشت على لوحات معلّقة على جدران الفصول الدراسيّة في جميع المدارس ليتعلّمها الأطفال حالما يستطيعون الإلمام بالقراءة[1].

تَعاليم كونفوشيُوس

قامت تعاليم كونفوشيوس على إجلال الماضي، حتّى على إحياء النظام الإقطاعيّ في شكل منطقيّ ومثاليّ. ومن أقواله: "إنّي ناقلٌ ولست مبدعًا". و"أنا أؤمن بالأقدمين... والحقّ أنّي لم أولَد حكيمًا. لكنّي أحبّ التراث القديم وأعمل جاهدًا كي أتعلّمه". وقد جُمعت تعليقات كونفوشيوس وشروحه لكتب الأقدمين على أيدي بعض تلاميذه في ما أصبح يُعرف بالكتب الأربعة. وهي الآتية:

١ ـ كتاب المنتخَبات أو المختارات LUN-YU: يحوي أقوال كونفوشيوس، ويُظَنّ أنّها فُصلت عن سياقها واختُصرت حتّى باتت تشكّل جملاً حكميّة قصيرة. وربّما كان نصفها منسوبًا إليه. لكنّها تبقى أهمّ مصدر لدراسة أفكاره.

٢ ـ كتاب التعليم الكبير: الأرجح أنّ هذا الكتاب من عمل شخص لاحق اسمه "هسون تسو" عاش في القرن الثالث قبل الميلاد. وهدف الكتاب تعليم الأشراف والأمراء. وقد كان الكتاب الأوّل الذي اعتاد الصبيان قراءته في المدارس.

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٢٤.

٣ ـ كتاب مبدأ الوسَط: وهو عرض وافٍ للمبادئ الفلسفيّة التي نادى بها كونفوشيوس. ويدور معظمه على العلاقة بين الطبيعة البشريّة والنظام الخُلقيّ في الكون.

٤ ـ كتاب "منسيوس MENCIUS": يعود تاريخه إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وفيه يعرض منسيوس، أهمّ المعلّمين الكونفوشيوسيّين الأوائل، كتاباته وأقواله. وهو المحاولة الأولى لتوضيح فلسفة هذه الجماعة وعرضها على نحو مقبول[١].

فـ"المختارات"، تشتمل على عشرين "كتابًا" أي "فصلاً"، يتألّف كلّ منها من مجموعة من الجمل أو الفقرات من أقوال المعلّم التي سجّلها تلاميذه. ومن المرجّح أن يكون تاريخ بعض أجزاء المختارات سابقًا على وجود كونفوشيوس، لكنّ هذه مشكلات لا تهمّ إلا المختصّين، كما هي الحال مع الكتابات الدينيّة المقدّسة بصفة عامّة. أمّا الرجل الكونفوشيوسيّ العاديّ فإن "المختارات" عنده هي أقوال كونفوشيوس، وهي من هذه الناحية تشكّل جزءًا من الشريعة الكونفوشوسيّة المقدّسة، ولقد أضيفت إلى "المختارات" على نحو ما ظلّت تدرّس قرنًا بعد قرن، شروح للتوضيح وتوسّعات في التأويل. ثمّ وجد الكونفوشيوسيّون المتأخّرون أفكار كونفوشيوس الأصليّة على النحو التالي:

هناك طريق على الأمير أن يتبعه وهو "طريق الملوك السابقين". ولمّا كان الملوك السابقون، في نظر كونفوشيوس، قد سلكوا في حكمهم وفق ما أمرت به السماء، فقد قدّموا نماذج تحتذيها الأجيال القادمة، وقد فعلوا ذلك لأنّهم كانوا "مهذّبين JEN"، وكلمة "جين" كانت تدلّ في الأصل على عضو من أعضاء العشيرة رفيع المستوى، وهي عند

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، نشؤوها وتطوّرها، ص٨٥.

كونفوشيوس تعني أن تكون خيّرًا إلى أقصى حدّ وبأوسع معنًى ممكن للكلمة. ومن ثمّ كانت صفات مثل: انعدام الأنانية، واحترام الآخرين، والأدب، والولاء للأسرة، والإخلاص للأمير، وكلّها صفات الرجل "الجين". فالرجل المهذّب الخيّر "الجين" لا يتذمّر ولا يشكو وقت المحن، وهو جريء واضح في مسألة الحق. لكن عند كونفوشيوس أنّ "الجين" هو نموذج متعالٍ لم يبلغه سوى حكماء الماضي. إنّه كيان صوفيّ وهو الصفة الجوهريّة للقداسة.

وإذا كانت "الجين" هي صفة القداسة، فإنّ "تي TE" هي القوّة التي تبلغ بها هذه القداسة: فالفضيلة ليست مضادّة للرذيلة، وإنّما هي بالأحرى، فضيلة باطنيّة ملازمة، هي قوّة شيء ما أو فاعليّته، وهي بهذا المفهوم أقرب إلى المعنى الذي يقصده كونفوشيوس. وهكذا يكون على الأمراء أن يحكموا عن طريق الفضيلة، التي هي مركز رفيع تجاوز قوته كثيرًا القوّة البدنية أو القهر. والشخص الخيّر يمارس الفضيلة فيتحوّل الآخرون إلى الخير، والإنسان الذي يسعى لأن يكون "جين" بتهذيب قوّته TE، يبلغ المثل الأعلى للأمير، وهذا المثل الأعلى الأميريّ وهو "تشن ـ تزو CHUN-TZU" ومعناها الحرفيّ "الأمير"، يصبح في تعاليم كونفوشيوس تجسيدًا للمثل العليا للسلوك البشريّ. إنّه الإنسان في أحسن أحواله، الإنسان كما ينبغي أن يكون، وهذا الإنسان الأعلى "تشن ـ تزو" تحكم "لي LI"، أي "الشعائر"، سلوكه كلّه. وكلمة "لي LI" التي تعني طقوس الديانة المبكّرة، أصبحت عند كونفوشيوس شريعة كاملة للسلوك المهذّب؛ فهي تتحكّم في ارتداء الثياب، وفي المراعاة الدقيقة للآداب الإجتماعيّة والأخلاق الحسنة، بصفة عامّة، بل في التصرّفات والإيماءات والإشارات بحيث يضاف المظهر الخارجيّ الملائم إلى السلوك الأخلاقيّ. وتحت سطح التأكيدات الكونفوشيوسيّة لدقائق الحياة اليوميّة يكمن الاعتقاد القديم القائل بأنّ للطقوس نفسها قوّتها السحريّة.

ويهتمّ كونفوشيوس في حديثه عن الخير، وتهذيب القوّة التي تولّده، وأداء الإيماءات والإشارات المناسبة التي هي علامته الخارجيّة، يهتمّ بالأخلاق الشخصيّة والأخلاق الإجتماعيّة؛ لأنّ هذا هو الطريق إلى الإنسان المهذّب الحقيقيّ أو المثل الأعلى عند كونفوشيوس، وتلك هي إضافة كونفوشيوس نفسه المتميّزة للديانة القديمة؛ إذ أضفى على الدين مضمونًا أخلاقيًا.

ويبدو أنّ كونفوشيوس، أثناء انشغاله بالسلوك الشخصيّ، وبالواجب الشخصيّ، قد أوحى بأنّه لا يهتمّ إلاّ قليلاً بعالم الأرواح وعالم ما فوق الطبيعة: "لم يتحدّث المعلّم عن مشيئة السماء، أو عن معجزات الطبيعة أو اضطراباتها"[١] "ولم يتحدّث عن الأرواح[٢]، لكنّ المسألة هنا مسألة تشديد في الإهتمام، فـ"كيف يمكنك أن تخدم الأرواح خدمة صحيحة قبل أن تؤدّي هذه الخدمة إلى الأحياء من البشر؟!". بذلك ردّ كونفوشيوس على سؤال وُجّه إليه عن أهميّة الطقوس الدينيّة. وباختصار: فإنّ خدمة الإله تصبح لا معنى لها إذا أهملت خدمة الناس. من هنا انصبّ اهتمام كونفوشيوس الأساسيّ على مشكلات الإنسان الأخلاقيّة والإجتماعيّة في علاقته برفاقه من البشر، وذلك هو جوهر تعاليمه[٣].

والولاء البنويّ هو أحد تعاليم كونفوشيوس الأخرى، وقد اكتسب هذا الموضوع أهميّة كبرى عند بعض مدارس الكونفوشيوسيّة. وهو باللغة الصينيّة "هسياو HSISAO" التي تعني أصلاً: الولاء للآباء الموتى وللأسلاف، والواجبات التي ينبغي أن تؤدّى لهم كتقديم القرابين، والطعام. أمّا بالنسبة لكونفوشيوس الذي كان يشدّد على تأدية الواجب

---

١ ـ المختارات ٧: ٢٠.

٢ ـ المختارات ١١: ٢.

٣ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٢١ ـ ٣٢٣.

للأحياء، فقد أصبح الولاء البنويّ يعني "خدمة الوالدَين أثناء حياتهما"، ومن ثمّ اكتملت العلاقات الخمس لتعاليم كونفوشيوس، وهي علاقة الأمير بالرعيّة، وعلاقة الابن بأبيه، والأخ الأكبر بأخيه الأصغر، وعلاقة الزوج بزوجته، وعلاقة الصديق بصديقه، واحترام الصغير للكبير، والحب والمودّة المتبادلَين من جانب الكبير للصغير، فكلاهما جزء من السلوك اليوميّ بين الأحياء، ومن الالتزام الدينيّ في مراسم العبادة بعد الموت[1].

وهناك سيَر تَنسب الألوهة إلى كونفوشيوس. لكنّ الدارسين الكونفوشيوسيّين بين القرنَين السابع عشر والتاسع عشر سلّطوا النقد على تلك الكتابات وحذفوا مقاطع كثيرة منها، حافظين ما اعتبروه صحيحًا[2].

لم يهتمّ كونفوشيوس بشيء أكثر ممّا اهتمّ بسعادة الناس. لذلك لم يشغله كثيرًا ما شغل التاوييّن في ما بعد، من تحويل الحديد إلى ذهب، لأنّه كان يعرف أنّ هذا لن يُسعد الناس، ولأنّه كان يرى أنّ تحويل كلّ ما في العالم من حديد إلى ذهب يجعل الذهب رخيصًا والحديد غاليًا. وما كان الناس ليصبحوا عندئذ أكثر سعادة ممّا هم عليه الآن. وفضلاً عن ذلك فإنّ تحويل الحديد إلى ذهب أمر مستحيل. ولم يكن كونفوشيوس ليهتمّ بالمستحيل قطّ. فكلّ ما يريده هو أن يجعل الناس سعداء بطرق ليست مستحيلة. وهكذا قال المعلّم: "إنّ أوّل ما يجب على الناس أن يعرفوه هو أنّ أيّ إنسان لا يستطيع أن يعيش وحده ويصبح سعيدًا". وقال كذلك: "من الأمبراطور ونزولاً، لا بدّ أن يكون للجميع أصدقاء، فلا بدّ أن يكون لدينا طعام لنأكله وثياب لنرتديها وبيوت لنقيم فيها. ولا يستطيع إنسان أن يصنع كلّ هذا وحده، وأن يعيش وحده، ويصبح سعيدًا. ولكن

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٢٣ ـ ٣٢٤.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٨٥.

عندما يعيش الناس معًا فإنّ بعضهم سيصنع الأحذية، وبعضهم سيصنع الخبز، وبعضهم سيعدّ الطعام، وبعضهم سيبني البيوت، وعندئذ يتقاسمون ما يمتلكون. فالخبّاز يخبز الخبز ويعطيه للناس، وهم يعطونه في مقابله الأحذية والثياب والبيت، كما يمكن أن يعطوه المال الذي يستطيع أن يشتري به ما يحتاج إليه. وعندما يعيش الناس معًا بتلك الطريقة يجب أن تكون لهم حكومة لترى أنّ كلّ واحد يقوم بعمل نافع مقابل ما يحصل عليه. وأنّه لا يسمح لأحد بأن يأخذ شيئًا لم يكسبه". وعلّم كونفوشيوس الناس "أنّ كلّ أسرة يجب أن تكون كالحكومة الصغيرة، فالوالدان يُعنيان بأبنائهما ويقدّمان لهما التعليم المفيد، والأبناء يحترمون الوالدَين ويعطونهما ويفعلون كلّ ما يستطيعون ليكونا سعيدَين"[1].

أمّا الفلسفة السياسيّة في الكونفوشيوسيّة فتقوم على المبدأ الإنسانيّ أيضًا من خلال الإصلاح الإجتماعيّ الذي يجب أن يبدأ في الرأس. هذا يعني أنّ صلاح المجتمع هو من صلاح الحاكم. وممّا جاء في كتاب "التعليم الكبير": "إنّ الملوك الأقدمين الذين ابتغوا نشر الفضيلة فعلوا ذلك عبر تنظيم الدولة التي يَحكمون. وتنظيم الدولة يتمّ أوّلاً عبر تنظيم العائلة. وتنظيم العائلة يقتضي تهذيب الذات. وتهذيب الذات يعني تقويم القلب. وتقويم القلب يقوم على الصدق في الأفكار. وصدق الأفكار يلزمه توسيع المعرفة. وتوسيع المعرفة هو اكتشاف الأشياء. فإذا اكتشفنا الأشياء اكتملت معرفتنا. وإذا اكتملت المعرفة صدقَ الفكر. وإذا صدقَ الفكر استقام القلب. وإذا استقام القلب هُذّبت النفس. وإذا هُذّبت النفس انتظمت العائلة. وإذا انتظمت العائلة تسنّى للملك حكم الدولة حكمًا صالحًا. وإذا تحقّق الحكم الصالح عمّ الهدوء والسلام والسعادة". هذا يعني أنّ الحياة الصالحة، في نظر كونفوشيوس، هي ثمرة الروح أكثر منها ثمرة القانون.

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٢٣ ـ ٢٢٤.

والمحبّة تجعل القانون غير ضروريّ. وعلى الحاكم أن يبني نفسه كي يبني مواطنيه. وبناء النفس يتمّ عبر القانون الخلقيّ "التاو". ولدى كلّ إنسان حسّ خلقيّ فطريّ يقوده إلى معرفة القانون. وأعظم نموذج للحكم هو أن يكون الحاكم مثالاً صالحًا أو قدوة لشعبه. ويتحقّق المجتمع الفاضل، في نظر كونفوشيوس، عندما تستقيم كلّ فضيلة في مكانها الصحيح، فيكون الحاكم حاكمًا، والوزير وزيرًا، والوالد والدًا، والإبنة ابنًا... أي عندما يؤدّي كلّ شخص واجباته أو وظائفه على النحو الصحيح. فالمبدأ الصحيح هو أن يطيع كلّ شخص واجباته ولا ينحدر عنها، أي أن يؤدّي أعلى ما عليه[1].

وفي نفس المعاني يقول كونفوشيوس: "إنّ العالم في حرب لأنّ الدول التي يتألّف منها فاسدة الحكم. والسبب في فساد حكمها أنّ الشرائع الوضعيّة مهما كثرت لا تستطيع أن تحلّ محلّ النظام الاجتماعيّ الطبيعيّ الذي تهيّئه الأسرة. والأسرة المختلّة عاجزة عن تهيئة هذا النظام الاجتماعيّ الطبيعيّ لأنّ الناس ينسون أنّهم لا يستطيعون تنظيم أسرهم من غير أن يقوّموا أنفسهم، وهم يعجزون عن تقويم نفوسهم لأنّهم لم يطهّروا قلوبهم، أي أنّهم لم يطهّروا نفوسهم من الشهوات الفاسدة الدنيئة. وقلوبهم غير طاهرة لأنّهم غير مخلصين في تفكيرهم لا يقدّرون الحقائق ويخفون طبائعهم بدل أن يكشفوا عنها. وهم لا يخلصون في تفكيرهم لأنّ أهواءهم تشوّه الحقائق وتحدّد لهم النتائج بدل أن يعملوا على توسيع دائرة معارفهم إلى أقصى حدّ مستطاع ببحث طبائع الأشياء بحيثًا منزّهًا عن الأهواء"[2]. لهذا، نادى كونفوشيوس بالإنسان المتفوّق "CHUN - TZU". والإنسان المتفوّق هذا، هو الذي يعرف واجباته تمامًا، ويؤدّيها على خير وجه في كلّ علاقة من علائق الحياة: فكأب يكون

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ٨٧.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢١٣.

محبًّا، وكزوج صالحًا، وكابن مطيعًا، وكصديق مخلصًا. وهو يجسّد في ذاته كلّ الفضائل[1].

وقد ميّز كونفوشيوس بين الجوهريّ والشكليّ في ممارسة هذه الفضائل، مركّزًا على الجوهر. وممّا نسبه "منسيوس" إلى معلّمه: "إنّي أمقت ما يحاكي الأشياء الصحيحة وهو غير صحيح. إنّي أمقت المتظاهرين بالفضيلة وهم غير فاضلين". ومن أقوال كونفوشيوس: "إذا لم يكن الرجل رجلاً حقًّا، فما نفع الطقوس"؟ هذا التركيز على الجوهر يُعتبر لبّ فلسفة كونفوشيوس الخلقيّة الإنسانيّة الاجتماعيّة. لكنّه، في الوقت نفسه، أعطى أهميّة عظيمة للطقوس. ولا شكّ في أنّه نظر إلى نفسه كمثال للإنسان المتفوّق الذي دعا إليه[2].

وإذا كان كونفوشيوس متقيّدًا بالطقوس الدينيّة، لكنّه كان ناقدًا للأفكار الغيبيّة عندما تناقض الأفكار الاجتماعيّة. إلاّ أنّ أهمّ فكرة دينيّة عند كونفوشيوس هي أنّ الإنسان، بإطاعته القانون الخلقيّ، يكون قد أطاع إرادة السماء، ويكون ابنًا صالحًا للسماء. وشَعر كونفوشيوس أنّه هو نفسه يعمل وفق إرادة السماء[3].

مَنسيُوس

وهسُو تسُو

ظهرت شروح كثيرة للكونفوشيوسيّة في القرون اللاحقة. وكان أهمّ الشارحين الأوائل اثنان: "منسيوس" و"هسو تسو". أمّا منسيوس (٣٧٢ ـ ٢٨٩ ق.م) فقد افتتح

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٨٧.

٢ ـ المرجع السابق، ص٨٧ ـ ٨٨.

٣ ـ المرجع السابق، ص٨٨.

مدرسة لتعليم الفلسفة، أحاط به فيها جمع من الطلاّب الذين آمنوا بآرائه وتعاليمه. وكانوا نواة للعدد الضخم من المريدين الذين أحاطوا به في ما بعد، خاصّة عندما انتشرت تعاليمه التي هاجم فيها الأمراء والوزراء وحكّام الصين الظالمين، الذين لم يفكّروا قطّ في شيء أكثر من مصالحهم الشخصيّة مهما كان ذلك ضدّ مصلحة المحكومين. لذلك اعتُبرت تعاليمه استمرارًا لتعاليم كونفوشيوس، وأطلق عليهم تلاميذه اسم "مانج ـ دزي" أي "مانج الفيلسوف"، وهو نفس اللفظ الذي تحوّل في ما بعد ليصبح "منشيس"، أو "منسيوس". وكان "منسيوس" ذا أثر كبير جدًّا في الأجيال اللاحقة. واعتُبر أهمّ شخص في الكونفوشيوسيّة بعد مؤسّسها، وراح يتنقّل من ولاية إلى أخرى داعيًا إلى تبنّي مبادئ كونفوشيوس. وكان الأمراء يسألونه: ما هو الحكم العادل الحكيم الذي تبشّر به؟ وكان يجيب: "ليس ما أعظ به بالشيء الجديد، فقد سبقني إليه أستاذي كونفوشيوس، ذلك أنّ الحاكم العادل يحكم شعبه طبقًا للفضائل الثابتة الخمس". وسأله الأمراء: "ما هي هذه الفضائل؟". أجاب منسيوس:

١) فعل الخير، وهو الرغبة في العمل لصالح الشعب.
٢) الاستقامة، وهي ألاّ تفعل للآخرين ما لا تحبّ أن يفعلوه لك.
٣) واللياقة، وهي أن تسلك مع الشعب الذي تحكمه سلوكًا يتّسم بالحياء.
٤) والحكمة، وهي أن تسترشد بالمعرفة والفهم.
٥) والإخلاص، وهو أن تكون مخلصًا في كلّ ما تفعل. لأنّه بدون الإخلاص لا يمكن للعالم أن يبقى، كما يقول الأستاذ كونفوشيوس[١].

وكان الذي يهمّ "منسيوس" هو أن يرسم طريقة للحياة الصالحة وتولّي خيار الناس مقاليد الحكم. وكان يرى أنّ أصل المشاكل الاجتماعيّة ليس في طبيعة الناس بل هو في

---

١ ـ راجع: مظهر، قصّة الديانات، ص٢١٣ ـ ٢١٥؛ صعب، الأديان الحيّة، ص٨٨.

فساد الحكومات. من أجل ذلك لا بدّ أن يصبح الفلاسفة ملوكًا، وأن يصبح ملوك هذا العالم فلاسفة. وكان "منسيوس" يرى أنّ الحاكم الصالح لا يشنّ الحرب على البلاد الخارجيّة بل يشنّها ضدّ العدوّ المشترك، وهو الفقر، لأنّ الفقر والجهل هما أصل الجرائم أو سبب اضطراب كلّ نظام. وكان يعتبر أنّ معاقبة مَن لم تتح لهم فرصة العمل على ما يرتكبونه من الجرائم، ظلم وقسوة، لأنّ على الحكومة أن توفّر أسباب الرفاهية لرعاياها، وأنّ عليها أن تضع الخطط الاقتصاديّة من أجل تحقيق تلك الغاية. وكان يطالب الحكومات بأن تفرض أكثر الضرائب على الأرض نفسها لا على ما تغلّه أو ما يُقام عليها من منشآت، كما يطالب بإلغاء العوائد الجمركيّة وجعل التعليم عامًّا وإجباريًّا[1].

وشدّد "منسيوس" على فكرة معلّمه القائلة بصلاح الإنسان الفطريّ وملاءمة النظام الإقطاعيّ لإنتاج ذلك الصلاح والحفاظ عليه. وقال: "إنّ نزوع طبيعة الإنسان إلى الخير هو مثل نزوع الماء للحركة إلى الأسفل. وليس هناك أحد تنقصه هذه النزعة". وعنده أنّه "إذا صار الناس أشرارًا، فهذا ليس من خطأ في طبيعتهم الأصليّة. والحقّ أنّ حسّ الرحمة موجود في جميع الناس، وكذلك الحياء والاحترام وحسّ الصواب والخطأ. وإنّ المحبّة والصلاح والضمير الخلقيّ لا تأتينا من الخارج، لكنّها تأتي من فطرتنا". ومن الأمثلة التي أعطاها منسيوس برهانًا على أنّ العطف ينتمي إلى فطرة الإنسان: "إذا رأى جمع من الناس طفلاً يكاد يسقط في بئر، فالكلّ من دون استثناء يشعر بالأسى، وهذا الشعور آتٍ، ليس من علاقة صداقة مع الأهل، ولا من رغبة في نيل مديح الجيران والأصدقاء.. والحقّ أنّه ليس من الطبيعة البشريّة ألاّ نميّز بين

---

١ - مظهر، قصّة الديانات، ص٢١٥ - ٢١٦.

الصواب والخطأ". ولئن لم يكن الناس متساوين في الصلاح الخلقيّ، فذلك يرجع، في رأي منسيوس، لا إلى الفطرة، ولكن إلى التصرّف على مستويات مختلفة. فبعضهم يستخدم عقله وبعضهم لا يستخدمه: "هناك مَن يعمل بعقله، وهناك مَن يعمل بقوّته. الذي يعمل بعقله يحكم الآخرين، والذي يعمل بقوّته يحكمه الآخرون"[1].

وكان هذا أخطر ما قرّره "منسيوس"، أنّ الحاكم الذي يستثير عداوة الشعب يفقد حقّه الإلهيّ في الحكم، ويصبح من حقّ الشعب أن يخلعه. لذلك لم يكن من السهل على هذه الآراء أن تلاقي قبولاً من الحكّام الفاسدين، الذين، وإن قبلوا الاستماع إليه لكنّ أحدًا منهم لم يأخذ بأقواله ونصائحه، رغم السنوات العشرين التي قضاها متنقّلاً من إقليم إلى إقليم، داعيًا إلى الإصلاح الاجتماعيّ والسياسيّ. وذات مرّة قال له أحد الملوك إنّه لا يستطيع منع المجاعة، فأجابه منسيوس: "إذن ينبغي عليك أن تعتزل المُلك". وقال مرّة للأمير "شوان" "إذا كان المَلك يرتكب أغلاطًا شنيعة وجب على الوزراء العظام أن يعارضوه، فإذا لم يستمع إليهم بعد أن يفعلوا هذا مرّة بعد مرّة، وجب عليهم أن يخلعوه". وسأله تلاميذه عن رأيه في العلاقة بين الحاكم والمحكومين، فأجاب: "إنّ الناس أهمّ عنصر من عناصر الأمّة، وإنّ الملك أقلّ هذه العناصر شأنًا، ومن حقّ الناس أن يخلعوا حكّامهم، بل إنّ من حقّهم أن يتخلّصوا منهم في بعض الأحايين"[2].

وقد رأى باحثون أنّ "منسيوس" الذي تمثّل تعاليم أستاذه كونفوشيوس وقد نادى بها وألحّ على تطبيقها، كان أكثر ثورة من معلّمه، إذ دعا إلى حقّ الشعب في الثورة، كما

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٨٨ ـ ٨٩.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢١٦ ـ ٢١٧.

انتقد بشدّة الملك الذي يُطعم كلابه وخنازيره ويترك الناس يموتون جوعًا، ولم يوفّر في اللوم اللاذع ترف حاشية الملوك. لذلك أُعجبت بـه جماهير الشعب وتبعتـه، وكرهـه الحكّام. وكان من أبرز ألوان الكراهية تلك، أنّ "هونغ دو" مؤسّس أسرة "مينغ" أمـر أن يُمحى اسم "منسيوس" من مكانه في هيكل كونفوشيوس، لكـنّ اللوحـة أُعيدت بعد ذلك إلى مكانها. فقد آمن الناس كلّهم في الصيـن أنّ "منسيوس" كـان حكيمًـا عظيمًـا، وظلّ الملايين، منذ موته قبل ٢٣٠٠ سنة، يعبدون ذكراه حتّى اليـوم علـى اعتبـار أنّـه حكيم الصين الثاني بعد كونفوشيوس[١].

وقد آمن منسيوس أنّ السماء تـرى وتسمع وتحدّد لكلّ ظرف ولكلّ شـيء ما يلائمه. ومَن يستخدم عقله حتّـى أقصـى الحدود ويتأمّل فطرتـه يعرف السماء ويقرأ علاماتها ويفعل إرادتها. وهناك طاقة روحيّة لدى كلّ إنسان، لا تجوز إعاقتها. إنّها قوّة روحيّة يتوجّب على كلّ شخص العمل بمقتضاها وتعزيزها. وفي نظر منسيوس أنّ كونفوشيوس إنسان مرسَل من السماء.

أمضى "منسيوس" المرحلة الأخيرة من حياته كاتبًا ومعلّمًا. وأهمّ كتاباته المجموعـة المعروفة بـ "كتاب منسيوس"[٢].

أمّا الشارح الآخر للكونفوشيوسيّة، "هسون تسو" (٢٩٨ ـ ٢٣٨ق.م.) فقد أحدث أثرًا كبيرًا في عصره. وأمضى معظم حياته في "تشي"، حيث علّم وتسلّم مناصب عالية وكان من أبرز العلماء في تلك الحـاضرة. وأهمّ مؤلّفاته كتاب "التعليم الكبير". لكنّ "هسون تسو" رفض مبدأَين أساسيَّين في فلسفة "منسيوس": المبدأ القائل بالصلاح

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢١٧.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٨٨.

الفطريّ للطبيعة البشريّة، والمبدأ القائل بأنّ السماء تراقب الأرض وتهتمّ بحياة الأفراد. فالإنسان، بحسب هذا المفكّر، سيّء بطبيعته. وأيّ صلاح يتّصف به يأتي اكتسابًا عن طريق التربية. وإذا تُرك الفرد وحده، فالأرجح أنّه يتصرّف وفق طبيعته الرديئة. ولكي يكتسب الخير، لا بدّ من تقويمه بالمبادئ الصالحة منذ الصغر. والتعليم الصحيح كفيل بهذا التقويم. هذا يعني أنّ ثمّة حاجة أكيدة إلى المعلّمين والمرشدين. وفي رأي "هسون تسو" أنّه "إذا تُرك المرء بلا معلّم أو مرشد وكان ذكيًّا، فهو يصير لصًّا. وإذا كان شجاعًا غدا مجرمًا. وإذا كان قادرًا وقويًّا أتى بأعمال فوضويّة. وإذا كان له بعض المنطق استخدمه للدفاع عن الباطل لا عن الحقّ. أمّا إذا تسنّى للفرد الذكيّ معلّمون وموجّهون، فهو يكتسب المعرفة بسرعة. وفي هذه الحال، إذا كان شجاعًا أوحى إلى الناس بمهابة، وإذا كان قادرًا غدا بسرعة كاملاً، وإذا كان منطقيًّا استطاع، من غير إبطاء، التمييز بين الصواب والخطأ".

أمّا السماء، في رأي "هسون تسو"، فلا يجوز تأنيسها وتفسير حركتها وفق حاجاتنا وأهوائنا. وكما في نطاق الأحداث الطبيعيّة، كذلك في نطاق الأفعال الإنسانيّة. فكما أنّ "الأرض لن تتقلّص بفعل محبّتنا المسافات البعيدة" هكذا "السماء لن تحمل إلينا المرض إذا حرصنا على غذائنا وصحّتنا ومارسنا الرياضة البدنيّة بانتظام. فطريقة فعل الأشياء ليست طريقة السماء ولا طريقة الأرض، بل هي طريقة الإنسان". هذا يعني أنّ كلّ شيء يحصل وفقًا للقانون الطبيعيّ، وليس هناك ما يتجاوز الطبيعة في أيّ نطاق. أمّا الطقوس الدينيّة التي يتّبعها الناس فهي ترضيهم، وإن لم تؤثّر أبدًا في القانون الطبيعيّ. وقد رأى "هسون تسو" أنّ أثر الطقوس الدينيّة نفسيّ فقط، لكنّه وجد فيها عنصرًا جماليًّا[1].

١ ـ راجع: صعب، الأديان الحيّة، ص ٨٨ ـ ٩١.

ومن المفكّرين اللاحقين الذين عرفتهم الكونفوشيوسيّة واحد اسمه "وانغ تشونغ" (٢٧ ـ ١٠٠م.) وهو مفكّر واقعيّ عمليّ، مقتَ التنظير ورفض الخوارق التي ينطوي عليها الدين. وكتب بأسلوب بسيط وفصيح، معبّرًا عن نزعة إنسانيّة قويّة. وحاول أن يصدّ نزوع الناس نحو تأليه كونفوشيوس واعتباره معصومًا عن الخطأ.

وظهر في العصور اللاحقة مفكّرون في الكونفوشيوسيّة باتوا يكوّنون ما عُرف بالـ "كونفوشيوسيّة الجديدة". وقد عوّلوا على أفكار كونفوشيوس إلى أقصى حدّ ممكن، وتمسّكوا بالأصالة. وربّما كان أهمّ أولئك المفكّرين "تشو هسي" (١١٣٠ ـ ١٢٠٠م.) الذي يعادل دوره الفكريّ في الكونفوشيوسيّة دور توما الإكوينيّ في الكاثوليكيّة الغربيّة. واعتُبرت شروحه المرجع الأخير في هذا المجال. وقد أعادَ "تشو هسي" الاعتبار إلى "منسيوس"، ونظر إلى "هسون تسو" على أنّه منحرف عن الخطّ الفكريّ القويم لأنّه قال برداءة طبيعة الإنسان. وبحث "تشو هسي" في الديانتَين الأخريَين، التاويّة والبوذيّة، منتقدًا هنا ومتبنّيًا هناك، ومتناولاً النصوص بالتمحيص. ومن آرائه أنْ لا عقل منفصلاً عن القوّة الحيّة الدافعة، ولا قوّة منفصلة عن العقل. فالمبدأ العقليّ أو الميتافيزيقيّ لا يستغني عن القوّة الماديّة أو الجسديّة كي يعبّر عن نفسه. وقد ثار "تشو هسي" على الطقوس الشكليّة في الدين، ودافع عن المعنى والجوهر. وكان يكرّس وقتًا كلّ يوم للتأمّل. وممّا كتبه عن فضيلة التأمّل الصامت: "النظر في الداخل يكون أشدّ فاعليّة عندما يحصل بهدوء وصمت. ويجدر بكلّ شخص أن يمتحن ذاته على الدوام. فإذا وجد أنّه كثير الكلام خفّف من كلامه، وإذا وجد أنّه طائش حاول أن يكون حكيمًا، وإذا وجد أنّه سطحيّ سعى إلى العمق"[١].

---

١ ـ راجع: صعب، الأديان الحيّة، ص٩٢.

إحراَق كُتب

الحُكمـــــاء

مع مرور الأيّام كـان الحكّام والأمـراء يـزدادون أنانيّـة وظلمًـا فـي جميـع أنحـاء الصين. ثمّ حدث شيء جديد في تاريخ هذا البلد. فبعد مرور مائتَين وخمسين عامًا مـن وفاة كونفوشيوس جلس على عرش الصين أمبراطور جديد، يقول المؤرّخون إنّـه كـان من أصل وضيع، وأنّه كان ابنًا غير شرعيّ لملكة مقاطعــة "تشـين" مـن وزيرهـا "لـو". واستطاع الصبيّ أن يُرغم والده على الانتحار وأن يضطهد والدته ليجلس بعدهما علـى كرسيّ الإمارة وهو بعدُ في الثانية عشرة من العمر. ولم يكد يبلـغ الخامسـة والعشـرين حتّى بدأ يغزو المقاطعات المجاورة، ويضمّ الدويلات التي كانت الصين منقسمة إليهـا. ولم تكد تمرّ سنوات قليلة حتّى خضعت كلّ الصين في يد رجل واحـد هـو ذلـك الفـاتح الذي سمّى نفسه "تشين هونغ تي"، وأعلن نفسه الأمبراطور الأوّل. والواقع أنّ الصين حكمها قبل ذلك أباطرة كثيرون، ولكنّ "تشين هونغ تي" نادى بنفسه الأمــبراطور الأوّل ليبيّن للشعب أنّه أراد منه أن ينسى كـلّ الحكّام الذيـن سبقوه. وأتـمّ "تشـين هونـغ تـي" انتصاراته على جميع أولئك الذين ثاروا ضدّه، ثمّ أمر بإقامـة الاحتفـالات الكـبرى فـي القصر ودعا إليها جميع الوزراء وعظماء البلاد. وراح الجميع يتبادلون إلقـاء الخطـب يثنون فيها على الأمـبراطور ويتمنّـون لـه حيـاة طويلـة رائعـة. وألقـى المشـرف علـى الألعاب، وهو وزير، خطابًا، ممّا جاء فيه: "لقد كانت الأمبراطوريّة قبل عهدكم ضعيفة ممزّقـة، ولكنّكم بقوّتكم وحكمتكم وحّدتـم الأمبراطوريّـــة وجعلتموهـا قويّـة. وكــانت الأمبراطوريّة قبلكم صغيرة ولكنّها الآن بفضل حكمتكـم بلغـت مـن العظمـة بحيـث أنّـه حيثما أشرقت الشمس وتلألأ القمر انحنى الناس لسلطانكم. وهذه الأمبراطوريّة السعيدة التي نظّمتموها جلالتكم ستدوم سعيدة عشرة آلاف جيل. فلم يسبق أن جلس على عرش

هذه البلاد أمبراطور بلغ من العظمة والقوّة ما بلغتم"[1]. ورأى العالم العظيم "شون يو" في هذا الخطاب جرحًا لذكرى أسلاف الصين العظماء أجمعين، هدف منه المشرف على الألعاب إرضاء الأمبراطور. فنهض وزير آخر يقول ردًّا على العالم "شون يو"، وموجّهًا كلامه إلى الأمبراطور: " إنّ ما فعلتموه جلالتكم أكثر من أن يفهمه مجرّد عالم، فهؤلاء العلماء لا يفهمون ما نفعله اليوم، بل هم لا يتحدّثون إلاّ عمّا فعله الحكّام في الماضي القريب والماضي البعيد. ولكنّ ما فعلتموه جلالتكم جعل أمبراطوريّتنا عظيمة رائعة، جعل العلماء يحقدون عليك ويشجّعون الناس على اختراع التهم الباطلة ضدّك. وخير طريقة لإبعاد هؤلاء العلماء عن الإضرار بجلالتكم هي أن تأمروا بحرق كتبهم وكتب مَن سبقوهم من أمثالهم. ثمّ أن تأمروا بإعدام جميع العلماء الذين يحفظون ما في هذه الكتب ويعلّمونها للناس".

أُعجب الأمبراطور باقتراح وزيره، وأرسل ضبّاطه في جميع أنحاء البلاد يجمعون كتب الأساتذة العظام وخاصّة كتب كونفوشيوس وحفيده وتلميذه منسيوس، وأمرهم أن يحرقوها جميعًا حتّى ينسى الناس ذكرى أولئك الحكماء والعلماء...! ولم تكن الكتب في الصين في تلك الأيّام تُكتب على ورق كما يحدث الآن، بل كانت تُكتب على شرائح من الخيزران يُشدّ بعضها إلى بعض بمشابك متحرّكة، ويبلغ اتّساعها حوالي بوصة وطولها قدمَين. وجمع ضبّاط الأمبراطور هذه الشرائح وربطوها كلّها بخيوط من حرير تمرّ في ثقوب أعدّوها في كلّ شريحة، بعد أن جمعوها من المكتبات الأمبراطوريّة ومن بيوت الأفراد، ووضعوها كلّها على مقربة من قصر الأمبراطور لإحراقها. وبرغم من أنّ بعض العلماء والضبّاط تمكّنوا من سرقة بعض أعمال

---

[1] ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ٢١٨.

الأساتذة والحكماء، وأخفوا نسخًا منها وبنوا حولها الجدران حتّى يعجز الأمبراطور عن العثور عليها، إلاّ أنّ أغلب الكتب أُحرقت، وظلّت النيران تتأجّج ثلاثة شهور على مقربة من القصر، وراح اللهب يتصاعد في النهار وفي الليل من شرائح الخيزران. وعلم الأمبراطور أنّ بعض العلماء والضبّاط أخفوا نسخًا من الكتب، فأمر بالقبض عليهم وأُرسل بعضهم للعمل في بناء سور الصين الكبير الذي كان يجري بناؤه في ذلك الوقت، بينما أمر بإعدام البعض الآخر ومن بينهم ستّون عالمًا. وبعد عدّة سنوات مات الأمبراطور الذي عاش، منذ أحرق كلّ آثار العلماء، في رعب هائل رهيب. ولم يكد يموت حتّى أخرج الناس الكتب التي كانوا قد أخفوها من قبل وأقاموا عيدًا كبيرًا واحتفالاً بذكرى كونفوشيوس وأتباعه وبالكتب المقدّسة التي تمّ إنقاذها. ومنذ ذلك الوقت أصبح اسم كونفوشيوس الذي أراد له الأمبراطور أن يندثر، أعزّ على الناس ممّا كان من قبل، وأصبحت ذكرى الأمبراطور نفسه هي الكريهة المحتقرة في كلّ مكان. فلقد أراد الأمبراطور "تشين"، الذي سُمّيت بلاده بعده باسم "الصين" أن يذكره شعبه على أنّه أفضل أمبراطور في عشرة آلاف جيل، لكنّ شعب الصين ظلّ يذكره على أنّه أخطر مجرم في عشرة آلاف جيل. والحقّ، أنّ حذر الأمبراطور تشين لم يحل دون أن يقتله بعض الناس، رغم أنّه عمد إلى مغنَطَة باب الحصن الذي يقيم فيه بحيث إذا عبره شخص مسلّح انجذب إلى الباب بشدّة وافتُضح أمره، وبرغم أنّه كان يجلس على عرشه والسيف مسلول فوق ركبتَيه، وبرغم أنّه لم يُسمح لأحد بأن يعرف في أيّ حجرة من حجرات قصوره الكثيرة ينام ليله. ولم يكد الطاغية يزول حتّى اعتلى عرش الصين أباطرة من أسرة "هان"، فزاد انتعاش البلاد في عهدهم وازدهرت، وأخذ الأباطرة الجدد يناصرون كلّ ما من شأنه توطيد الأمن والسلام وإحياء التقاليد

والشعائر القديمة، وكان في طليعة الهيئات التي نالت تأييد هؤلاء الأباطرة وتشجيعهم، المدرسة التي أنشأها كونفوشيوس في مقاطعة "لو"[1].

وقد أرّخ باحثون أنّ أسرة "شن" كانت قد وصلت إلى السلطة عن طريق الغزو العسكريّ، وخلفتها أسرة "هان" من خلال ثورة مسلّحة، ولكن عانى الملوك، من الأمبراطوّر الأول، حتّى عصر الأمبراطور "وو WU"، معاناة شديدة من مشكلات القرارات الدينيّة التي تعبد النظام الملكيّ، وتؤيّد شرعيّته. ولقد سبق أن رأينا كيف أثّرت هذه الفكرة في سلوك الأمبراطور الأوّل، كما انزعج الأباطرة الأول من أسرة "هان" بمشكلات مماثلة، وقد أرّخ أبو المؤرّخين الصينيّين "سو ـ ما ـ شن SU-MA-CH'EN" في بحث يُسمّى "قرابين فنغ FENG وشان SHAN" لتاريخ الانشغال بهذه المشكلات، فكتب في أثناء عصر الأمبراطور "وو WU" معبّرًا عن الإيمان السائد في ذلك الوقت بقوله: إنّ تفويض السماء يقتضي أن يكون الحاكم قادرًا على تقديم قرابين "فنغ وشان". وفي محاولته لتعقّب تاريخ هذه القرابين، قدّم لنا هذا المؤرّخ ما يُعدّ في الواقع تاريخًا للإيمان الدينيّ الملكيّ الذي يزوّدنا بقدر كبير من المعلومات عن الإيمان الدينيّ في عصره رغم أنّه كان في بداياته الأولى خياليًّا. والواقع أنّه ليس ثمّة دليل على أنّ قرابين "فنغ وشان" كانت تمثّل جانبًا من الطقوس التزم بها الملوك قديمًا، ولكنّ البحث عن الصيغ الملائمة أدّى بملوك أسرة هان الأول إلى استكشاف مدى الإيمان الدينيّ في سائر الأمبراطوريّة، وقد دوّنت في سجلاّت هذا البحث أشياء كثيرة لم تسجّل في أيّ مكان آخر.

بدأ نجم فقهاء الكونفوشيوسيّة، خلال تقديمهم النصائح المتضاربة لأباطرة أسرة "هان" الأوّل عن تأدية الطقوس والمراسم وواجبات الملك في تقديم

---

١ ـ راجع: مظهر، قصّة الديانات، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.

القرابين، بدأ في الصعود في بلاط أسرة "هان"، حتّى انتهى بالانتصار النهائيّ للكونفوشيوسيّة، بوصفها عقيدة الدولة، والحارس، والوسيط للطقوس الدينيّة المتعلّقة بحاكمها.

راح الكونفوشيوسيّون يعلّمون الأمراء في القصر الملكيّ، وأصبحوا مرموقين في خدمة الدولة. وفي عصر الأمبراطور "وو Wu" (حكم من ١٤٠ ـ ٨٧ ق. م) الذي تعلّم هو نفسه على يد الكونفوشيوسيّين، قدّم اقتراح فحواه أنّ الكونفوشيوسيّة ينبغي أن تكون هي الفلسفة الوحيدة للحكومة. وعُيّن الموظّفون الرسميّون في البلاط ليخصّصوا في دراسة الآداب الكلاسيكيّة للكونفوشيوسيّة وتفسيرها. بل لقد أُنشئت جامعة أمبراطوريّة لتدريس الكونفوشيوسيّة واختيار ضبّاط الدولة من بين خرّيجيها، وهكذا تمّ بالتدريج تحت وطأة هذا الضغط طرد أتباع الفلاسفة غير الكونفوشيوسيّين. وفي النهاية تحت حكم الأمبراطور "هسوان Hsuan" (حكم من ٧٣ إلى ٤٩ ق.م) دُعي مجلس أمبراطوريّ من ثقات الكونفوشيوسيّين ليناقش على مدى ثلاث سنوات مشكلات تأويل الآداب الكلاسيكيّة، وكُتبت مداولات المجلس في مذكّرة رُفعت إلى الأمبراطور، وفي عام ٥١ قبل الميلاد صدّق الأمبراطور على مضمونها، ومنذ ذلك الحين استقرّت الكونفوشيوسيّة عقيدة رسميّة وتأويلاً رسميًّا للآداب الكلاسيكيّة التي أصبحت لها سلطة رسميّة في الحكومة. وهكذا نجد الكونفوشيوسيّة، التي كانت محرومة من الحماية في عهد أسرة "شن Chin"، كما كانت حركة محليّة صغيرة في بداية حكم أسرة "هان"، وقد انتصرت مع استمرار حكم هذه الأسرة على المدارس المائة جميعًا، فأصبحت عقيدة البلاط وعقيدة الدولة، كما أصبحت آدابها الكلاسيكيّة مادّة المناهج التي تدرسها الطبقات المثقّفة. وكانت البراعة في هذه الآداب هي المحكّ في اختيار الأعضاء لخدمة الدولة، وهي معيار ترقيتهم، كما صارت الأفكار الدينيّة الكونفوشيوسيّة، وما تحدّده من

طقوس للعبادة هي الديانة الرسميّة للقصر الملكيّ. وهكذا أصبحت الكونفوشيوسيّة هي عقيدة الدولة[1].

ويروي باحثون في هذا المجال أنّ سلالة "هان"، قد كرّمت عام ٧٢م. اثنين وسبعين من كبار أتباع الكونفوشيوسيّة. وظلّت هكذا حتّى خلال حكم الأباطرة التاويّين والبوذيّين. وبعد ذلك بمائتَي عام اكتسبت الكونفوشيوسيّة قوّة هائلة بعد صدور مرسوم بوجوب تقديم القرابين العظيمة لكونفوشيوس أربع مرّات كلّ عام، وقام أهل بلدة كونفوشيوس ببناء معبد تمجيدًا لذكراه. وفي عام ٥٥٥ للميلاد صدر مرسوم يقضي بإقامة معبد لكونفوشيوس في جميع المدن الكبرى من كلّ ولاية من الولايات. وعام ٦٣٠ أصدر الأمبراطور "تاي تْسَنغ"، مرسومًا بإقامة تمثال لكونفوشيوس في كلّ دائرة رسميّة، مع حَفر أسماء المثقّفين والعظام الصينيّين على لوحات في تلك المعابد الصغيرة. وكانت الطقوس تُقام هناك، أمام التمثال، ترافقها الموسيقى والبخور والخمر والذبائح الحيوانيّة. واعتُبر كونفوشيوس بمثابة أمبراطور. وفي عام ٦٦٥ خُلع على كونفوشيوس لقب "أنبل الأساتذة" ثمّ لقب "ملك" عام ٧٣٩، ثمّ خُلع عليه لقب "أقدس القدّيسين" عام ١٠١٣، وعندما جاء أباطرة بيت "مانشو" كانوا ينحنون أمام تمثاله إجلالاً واحترامًا. ثمّ أطلقوا عليه عام ١٦٥٧ اسم "أحكم الأساتذة الأقدمين". ومنذ ذلك الوقت صارت الكونفوشيوسيّة عقيدة كاملة، وذخرًا ضخمًا يعتزّ به كلّ شعب الصين[2].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٤٠ ـ ٣٤١.

٢ ـ راجع: صعب، الأديان الحيّة، ص٩٣؛ مظهر، قصّة الديانات، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

الكونفُوشيُوسيَّـة
والصِّين الجَديدَة

أحدثت الكونفوشيوسيّة أثرًا كبيرًا جدًّا في حياة الصين السياسيّة. وهو أثر استغرق إدخاله طويلاً. إلاّ أنّه أخذ يتقلّص منذ العام ١٥٣٠م.، عندما أمر الأمبراطور "تشيا تشينغ"، بناء على نصيحة أحد العلماء الكونفوشيوسيّين، بإعادة الهياكل إلى بساطتها الأولى، وإبدال تماثيل المعلّم بلوحات تحمل أقواله وحكَم الأوائل. وفي العام ١٩٠٦ صدر مرسوم حكوميّ يقضي بإجلال كونفوشيوس ومساواته بالسماء والأرض، بعدما كانت الدولة قد تبنّت نظامًا تربويًّا حديثًا. ومع تأسيس الجمهوريّة بعد ثورة ١٩١١، منحت الدولة الحريّة الدينيّة للجميع. وهكذا أخفقت محاولة الذين كانوا يدْعون إلى جعل الكونفوشيوسيّة دين الدولة. ومن الحركات السياسيّة آنذاك "الحزب الوطنيّ" الذي كان ذا نظرة علمانيّة. لكنّ مبادئه عكست المُثُل الكونفوشيوسيّة، مثل إكرام الوالدَين والطاعة والمحبّة والسلام. وفي العام ١٩٣٤ أعلن الزعيم تشيانغ كاي شيك عن ولادة "حركة الحياة الجديدة". وحتّى بعد تحوّل تشيانغ إلى المسيحيّة، ظلّت العناصر الكونفوشيوسيّة قويّة جدًّا في فكره. وأعلنت حركته أنّها قائمة على أربعة مبادئ أساسيّة، هي: اللياقة، العدالة، سلامة الشخصيّة وتماسكها، التواضع واحترام الذات.

وفي العام ١٩٣٧ أقامت الحكومة الصينيّة هيكلاً في نانكينغ ليس مكرّسًا لدين معيّن، لكنّه مكرّس للفكرة القوميّة. ورُفعت في أعلى مكان منه لوحة تحوي حِكَمًا من كونفوشيوس، وتحتها تمثال رخام نصفيّ لمؤسّس الصين الحديثة "سَن يات سين". كما وُضعت لوحات تمثّل "آباء الحضارة الحديثة" مثل "نيوتن" و"باستور" و"غاليليو" و"جيمس واط" و"بنجامين فرانكلين". ومعنى هذا أنّ نهضة الصين تقوم على المزاوجة بين العلوم الكلاسيكيّة القديمة والعلوم الغربيّة الحديثة. إلاّ أنّ الكونفوشيوسيّة تلقّت

نكسة عظيمة على أيدي الشيوعيّين الذين لم يرُقهم دفاع كونفوشيوس عن الأنظمة الملكيّة والإقطاعيّة وعن القيم القديمة. لكنّ هذا الحكيم الصينيّ أخذ يستعيد اعتباره في السنوات الأخيرة، مع النظرة الرسميّة المنفتحة التي أخذت تظهر في البلاد[١].

وقد رأى باحثون[٢] أنّ الصين التي وقع الجزء الأكبر منها تحت السيطرة الشيوعيّة عام ١٩٤٩، قد شهدت حملات عنيفة ضدّ جماعات دينيّة معيّنة بوصفها "مناهضة للثورة"، غير أنّ الديانة الشعبيّة قد وُجدت بين الصينيّين منذ زمن سحيق، معزولة في نسيج الممارسات الاجتماعيّة، بين جماعات الأقارب، والجماعات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والمجتمعات المحليّة، يشهد على ذلك وجود هياكل الأسلاف المحليّة المنتشرة في أرجاء الصين، في كلّ قرية، وفي كلّ نجع، وهياكل الآلهة المحليّة، والأبطال المحليّين، ومعابد يتولّى شؤونها رهبان البوذيّة والتاويّة ومعبد كونفوشيوس، وعلى نحو أكثر تكرارًا معابد مجمع الآلهة المشترك الذي يشمل عناصر من جميع الديانات ويكشف في بعض الأحيان عن نزعة "توفيقيّة" تتحدّى أيّ تحليل، ولقد هاجمت الحركات الثوريّة، منذ بداية القرن الحاليّ، الديانة الشعبيّة في ما سُميّ باسم حركة القضاء على الخرافة، غير أنّ المعابد والهياكل ظلّت باقية، في بعض الأحيان في حالة سيّئة، لكنّها تقف شاهدًا حيًّا على الحضور الشامل للديانة الشعبيّة على مدى الزمن الذي تعيه الذاكرة.

تخطّت الكونفوشيوسيّة حدود الصين إلى اليابان على يد رجل من سلالة الأسرة اليابانيّة الشهيرة "فيوجيوراسيجوا". وكان ذلك الرجل قد سمع بحكماء عظام في الصين

---

١ ـ راجع: صعب، الأديان الحيّة، ص ٩٣ ـ ٩٤.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٦٢.

فقرّر الارتحال إليها برغم أنّ الاتّصال بالصين كان محرّمًا في ذلك الوقت. واضطرّ الفتى لتدبير خطّة يعبر بها مياه البحر في سفينة كانت تشتغل بالتهريب. وإذ هو في السفينة سمع طالبًا يقرأ كتابًا صينيًّا عن كونفوشيوس، وأعجبه ما فيه، فانطلق يبحث عن نسخ من كلّ ما أنتجته الفلسفة الكونفوشيوسيّة، وانغمس في تتبّع ما في هذه الكتب من مجادلات حتّى نسي رحلته إلى الصين. ولم تمضِ أعوام حتّى جمع حوله طائفة من طلبة العلم الناشئين، الذين نظروا إلى فلسفة الصين نظرتهم إلى وحي أوحى به إليهم عن عالم جديد يسوده الفكر الدنيويّ. واستطاع أحد تلاميذ سيجوا واسمه "هاياشي" أن يملأ صدور أتباعه بالحماس للفلسفة الصينيّة، حتّى لم يعد عسيرًا عليه أن يجتذبهم من البوذيّة والمسيحيّة على السواء، ويضمّهم إلى العقيدة الخلقيّة البسيطة التي أشاعها كونفوشيوس في أرجاء الشرق الأقصى. وراح داعية الكونفوشيوسيّة الجديد في اليابان يقول للناس إنّ اللاهوت المسيحيّ خليط من أوهام خلقها الخيال ولا تعقلها العقول. كما أنبأهم أنّ البوذيّة مذهب يفتّ في عضد الأمّة اليابانيّة ويتهدّد نسيجها بالوهن وروحها المعنويّة بالضعف. وكان يقول: "إنّ كهنتكم يذهبون إلى أنّ هذه الحياة الدنيا فانية زائلة، ثمّ تعملون أنتم على أن ينسى الناس علاقاتهم الاجتماعيّة، وبهذا تقتلون في الناس روح الواجب والعمل والصواب، ثمّ تقولون إنّ طريق الإنسان محفوف بالخطايا فاهجر أباك وأمّك وأبناءك ومولاك وابحث عن الخلاص. ولكن أقول لكم إنّي قد تعمّقت الدراسة، فلم أجد قطّ للإنسان طريقًا سوى ولائه لمولاه وطاعة الإبن لأبيه". واستمرّت الكونفوشيوسيّة تواصل سيرها في اليابان، جنبًا إلى جنب مع البوذيّة، والشنتو القديمة. وعاشت اليابان على هذا الإيمان حتّى اليوم[١].

١ ـ مظهر، قصة الديانات، ص٢٧٢.

عندما كان كونفوشيوس لا يزال في الرابعة والثلاثين من عمره، كان له أكثر من ثلاثة آلاف تابع. أمّا اليوم، وبعد انقضاء حوالى ألف وستّمائة عام، فإنّ في الصين وحدها مئات ملايين البشر المعجبين بكونفوشيوس، بينما يتغنّى حكماء البلاد بكونفوشيوس ويثنون عليه قائلين: "عظيم أنت أيّها الحكيم الكامل، فضيلتك كاملة وتعاليمك كاملة، وبين جميع البشر لم يُخلق لك مثيل".

التَّاوِيَّـة

بينما كـان الفلاسـفة "الفعّـالون" يدعـون إلـى نظريّـاتهم فـي بـلاط دول المدينـة وعواصمها في الصين، كانت أنشطة فلسفيّة مختلفة تمام الاختلاف تتمّ في الريـف، أي خـارج المجتمـع إنْ صـحّ التعبير، وكـانت هـذه الأنشـطة فـي فلسفات دعـاة السـكينة و"الطمأنينة". وقد انصبّ اهتمام هذه الفلسفات على "العالم الآخـر"، وسـعت إلـى إدراك الذات وتهذيب النفس من خلال تمرينات "اليوغا" للوصول إلى أقصى درجـات السـموّ. وهم يرون في السموّ تلك "الواحديّة" الثابتة التي خلف عـالم التغيّر، وتعطـي فـي نفس الوقت كلاً من قوة الدفع وحركة الحياة، وهذه الواحديّة هي التـي يسمّونها "تـاو TAO"، وهي من أهمّ مصطلحات الفلسفة الصينيّة ومعناهـا: "الطريـق" أو "المنهـج" أو "أسـلوب الحياة". ويتحدّث جميع الفلاسفة في الصين القديمة عن التاو عندهم، أي عـن طريقهم. أمّا فلاسفة "الطمأنينة" فهم يتحدّثون عن التاويّة نفسها، ونتيجة لذلـك أُطلـق عليهم اسم "التاويّين". وكانت أفكار هؤلاء التاويّين هـي التـي أوحـت فـي النهايـة بالديانـة التاويّـة، وذلك جانب من الحياة الدينيّة يمكن أن يُسمّى الجانب الصوفيّ.

لقد ألهمت الكونفوشيوسيّة ديانة الأخلاق والسلوك الإجتمـاعيّ، وكـانت لهـا جذور في ديانة القدماء الأرستقراطيّة. أمّا التاويّة فقد ألهمت ديانة التصوّف، وأصولها أقـرب إلى الديانة الشعبيّة عند القدماء؛ فهم يسعون إلى دخول عالم المعرفة عن طريق غيبوبة "الشـامان" أكثر ممّـا يفعلـون ذلـك عـن طريـق سـجلاّت القدمـاء ووثـائقهم. وتعكـس

الكونفوشيوسيّة والتاويّة في صورتيهما المتأخّرتين، شيئًا من هذه الأصول: فالكونفوشيوسيّة كانت، في الأعمّ الأغلب، ديانة البلاط وعليّة القوم من الأرستقراطيّين، في حين لم تفقد التاويّة قطّ صلتها بجذورها الشعبيّة[1].

حيَــــــاة

لاو- تسي

المقول إنّ التاويّة قد بدأت مع "لاو - تسي". والمقول أيضًا إنّه في في قرية "كيوه - غنى" بمنطقة "لي" من إقليم "تشو"، كان يعيش رجل شديد الفقر اسمه "لي - لي". وبرغم شدّة فقره لم يجد صعوبة في أن يتزوّج. وفي السنة الثانية من عهد الأمبراطور الحادي والعشرين من أسرة "تشو"، رُزق الفقير من زوجته ولدًا سمّياه "لي - بيه - يانغ". وكان ذلك عام ٦٠٤ قبل المسيح. ولا يعرف أحد عن حياة "لي - بيه - يانغ" سوى القليل. كلّ ما يعرفه التاريخ أنّه أصبح في بواكير شبابه أمينًا للمحفوظات الأمبراطوريّة بمدينة "لو - يانغ" وأنّه ظلّ يشغل هذا المركز أعوامًا عديدة، وقد أتاح ذلك العمل للفتى فرصة الدراسة والبحث. وعندما بدأ، في ما بعد، يعبّر عن آرائه في الفلسفة والدين نال إعجاب الكثيرين الذين أطلقوا عليه اسمه الذي عُرف به وهو "لاو - تسو" ومعناها "الفيلسوف العجوز". لكنّ الشهرة لم تغيّر من حياة "لاو - تسو". ومضت السنوات وهو لا يزال كما هو أمينًا للمحفوظات. وكان من المحتمل أن يظلّ في المكتبة حتّى نهاية عمره الطويل، لولا أنّ حكّام الولاية ازداد بهم السوء واستشرى فيهم الفساد، واشتدّت عليهم الأنانية، وبعدَ بهم السفه عن الشرف. فعافت نفس الفيلسوف سفالة السياسيّين.

---

١ - بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٣٣ - ٣٣٤.

وراح يتساءل عن قيمة الحكم والحكومة. وأفضى به التساؤل إلى التخلّي عن وظيفته التي قضى فيها معظم حياته واعتزال العالم، إذ شعر أنّه من المهين له أن يعيش تحت حكم السفهاء، وسرعان ما تبيّن له أنّ البحث عن المعرفة باطل، لأنّه يَحرف الناس عن بساطتهم وطبيعتهم الأصيلة. وبرغم أنّه كان وقتئذ في التسعين من عمره إلاّ أنّه صمّم على مغادرة المكتبة الأمبراطوريّة والهجرة بعيدًا جدًّا عن "لو ـ يانج"، ليعيش في الريف بمعزل عن الناس. وهكذا سافر "لاو ـ تسو". وعندما بلغ حدود الإقليم عرفه حارس الحدود ولم يسمح له بالمرور. وسأله لاو ـ تسو: "لماذا تمنعني من المرور؟". وأجابه الحارس: "أنت فيلسوف عظيم يا أستاذي، وقد عمّت شهرتك الآفاق دون أن تسجّل تعاليمك، فإذا أنت بارحتنا الآن فلن يكون لنا أيّ سجلّ عن هذه التعاليم". وسأله الحكيم: :"وهل إذا سجّلت تعاليمي تدعني أمرّ؟". أجاب الحارس: "نعم يا أستاذي". وهكذا جلس "لاو ـ تسو" ليكتب الأجزاء الهامّة من تعاليمه، ويسجّلها في كتاب صغير يضمّ حوالى خمس وعشرين صفحة سمّاه "تاو تي ـ تشينغ" ويمكن ترجمتها إلى "كتاب العقل والفضيلة"، أو إلى "مقالة في التاو وسلطانه". وعندما أعطى الحكيم هذا الكتاب الصغير لحارس الحدود، سمح له هذا الأخير بالخروج من الإقليم. بينما يذكر بعض المراجع أنّ "لاو ـ تسو" عاد إلى منزله حيث عكف وقتًا طويلاً على إنهاء كتابه. وإذ سلّمه إلى حارس الحدود، خرج من البلاد، ومنذ ذلك الوقت لم يسمع به أحد بعد ذلك قطّ[١].

هذا كلّ ما نعرفه عن الحكيم الصينيّ القديم "لاو ـ تسو". وإذا كان البعض يشكّ في وجوده، إلاّ أنّ الدليل الوحيد على وجود "لاو ـ تسو" هو الكتاب الصغير الذي كتبه في سنّ التسعين قبل اختفائه. فما الذي كان يعلّمه هذا الحكيم القديم حتّى يبقى كتابه

---

١ ـ راجع: مظهر، قصّة الديانات، ص٢٣٠ ـ ٢٣١؛ صعب، الأديان الحيّة، ص ٧٥.

الصغير كلّ هذه القرون العديدة، وحتّى يكون هذا الكتاب هو أهمّ النصوص الخاصّة بالعقيدة التاويّة التي يقول العلماء الصينيّون إنّها وُجدت حتّى قبل "لاو ـ تسو" بزمن طويل، وكان لها من بعده أنصار من الطراز الأوّل، وصارت في ما بعد دينًا يعتنقه أقليّة كبيرة من الصينيّين حتّى وقتنا الحاليّ؟ والواقع أنّ هذا الكتاب الصغير حافل بالأفكار، فبعضها سهل الفهم، بينما البعض الآخر عسير الفهم، بل ومن المستحيل فهم أيّ شيء منه[1].

لا يستبعد الباحثون أن يكون "لاو ـ تسو"، أو "لاو تان"، أحد المفكّرين الذي حصل التكوين الفلسفيّ للتاويّة على أيديهم خلال القرنَين الخامس والرابع قبل الميلاد. وكان كونفوشيوس قد عرَفَ، في القرن السادس قبل الميلاد، بعض ممثّلي التاويّة من المفكّرين الذين لا تسمّيهم الكتب. وهم أناس اعتزلوا المؤسّسات ورفضوا فكرة الحضارة، وكانوا ناقدين للمجتمع على غرار "المشكّكين" و"الساخرين" في بلاد الإغريق. ومن آرائهم التي أغاظت كونفوشيوس أنّ الفرد يعيش لنفسه، وأنّ الحياة الشخصيّة أثمن من كلّ ما في العالم. إلاّ أنّ مجموعة "تاو ـ تي ـ تشينغ" هي من تأليف مفكّرين أكثر عمقًا وأرهف حسًّا وأبعد نظرًا. ويُستبعد أن يكون وضعها شخص واحد. وربّما كانت تحوي كتاب "لاو ـ تسو" الأصليّ مع الإضافات والشروح الكثيرة التي وُضعت خلال الأجيال المتعاقبة. لكنّ المعروف أنّ الجزء الأكبر من هذا الكتاب يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد. ومن أفكاره الرئيسيّة أنّه إذا تركنا الأشياء تتبع خطّها الطبيعيّ، فهي تتحرّك بانسجام وكمال. والسبب أنّ التاو لم يعرقل[2].

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٣١.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، نشوؤها وتطوّرها، ص ٧٥.

الكُتُبُ
التّاويّة

يذكر باحثون أنّه أُضيف لنا مجموعتان من كتب التاويّة من عصر الفلاسفة، وهما المجموعة المسمّاة بكتب "شوانغ تسو CHUANG TZU" و"ليه تسو LIEH TZU"، وفضلاً عن ذلك فهناك كتاب تاويّ موجز ظهر غُفلاً قرب نهاية هذه الحقبة، وهو كتاب خلافيّ للغاية في نغمته، عُرف باسم "تاوتي كنغ TAO TE CHING". وتشكّل هذه الكتب الثلاثة محور التاويّة، وهي بغير شكّ أقدم كتب في المؤلّفات الدينيّة التاويّة من بين مجموعة هائلة من الدراسات التي تشكّل الشريعة التاويّة.

ينسب مؤلّف "تاوي كنغ"[1] في التراث التاويّ، إلى "لا وتسو"، وهو شخصية تُعدّ من الناحية التاريخيّة موضع شكّ، وتلك هي الحال نفسها مع كتاب "ليه تسو". أما تشوانغ تسو (٣٦٩ ـ ٢٨٦ ق.م) وهو من كبار فلاسفة التاويّة، بل يعتبر المؤسّس الثاني لهذه المرسة، فقد كان على خلافهما شخصيّة تاريخيّة ومعاصرًا لمنسيوس، غير أنّ الكتاب الذي يحمل اسمه يحتوي في ما يبدو، على كتابات لمؤلّفين مختلفين وفي حقب مختلفة. وإذا نظرنا إلى هذه الكتب من حيث هي فلسفة، فلا بدّ من النظر إليها في ضوء هذه النظرة التاريخيّة الصارمة. أمّا من حيث هي كتابات مقدّسة لديانة متأخّرة، فيمكن النظر إليها على أنّها شرائع "لاو ـ تسو" و "تشوانغ تسو" المؤسّسَين المزعومَين للتاويّة الدينيّة، اللذَين يضيف إليهما احترام الأتباع في ما بعد الكثير من تفصيلات سيَر القديسين. وتتمثّل فروع الفكر التاويّ في الأجزاء المختلفة من كتب

---

[1] ـ راجع: تاوتي ـ كنج ـ كتاب الطريق إلى الفضيلة، ترجمة وتقديم . مصطفى ماهر، سلسلة الألف كتاب، رقم ٦٤٣، مؤسّسة سجل العربي (القاهرة،١٩٦٧)

"شوانغ تسو" و"ليه تسو" و"لا وتي تشنغ"، ولكنّ هناك أفكارًا أساسيّة معيّنة وأسسًا مشتركة بينها جميعًا، وتلك هي الفلسفة التاويّة[1].

يصف كتاب "شوانغ تسو" في صورة أمثولات أو حكايات رمزيّة، وحوارات متخيّلة بين "شوانغ تسو" ونقّاده، وانتقادات لاذعة لأحاديث المقاطعة، وقصص عن القدّيسين التاويّين، يصف شكلاً من أشكال المعرفة لا يُلمّ به إلاّ الخبير أو السالك فحسب. والحديث عن هذه المعرفة، عمل لا طائل وراءه، فكما أنّ آلهة النهر لا تعرف شيئًا عن البحر، أو أنّ الحشرة لا يمكن أن تتصوّر طيران الطيور الكبيرة المهاجرة، فكذلك الإنسان "القليل المعرفة"، أو "صاحب الفكر الدنيويّ"، لا يمكنه أن يتصوّر "المعرفة الأعظم"، أو رؤى الصوفيّ، فهذه المعرفة يظفر بها الخبير في حالة الوجد، وهي حالة "أفقد فيها ذاتي". ويمضي الخبير في حالة الوجد، في رحلة ممتطيًا صهوة الريح، تحمله "عربات السحب" إلى اللامتناهي، فيرى "أنّ السماء والأرض ظهرا إلى الوجود معي، ومعي أصبحت الأشياء جميعًا شيئًا واحدًا". وفي هذه الرؤية تكون كلّ الأشياء نسبيّة، وتتآلف جميع الأضداد، وتنسجم جميع المتقابلات. والواحد هو الـ"تاو TAO"، إنّه التلقائيّة الشاملة لجميع الأشياء، فكلّ شيء هو كذلك من ذات نفسه، ومن ثمّ يستطيع "التاو" "أن يفعل كلّ شيء بألاّ يفعل شيئًا. والـ"تي TE"، أي الفضيلة أو الأخلاق عند الكونفوشيوسيّة، هي عند التاويّ "التاو" المباطن في كلّ شيء، فهي "قوّته". وإنّ "التاو"، والطريق أو النهج أو الـ"تي TE"، تصوّران أساسيّان للتاويّة الفلسفيّة. وما دام كلّ شيء هو كذلك من تلقاء ذاته، فإنّ له، إن صحّ القول، تلقائيّة، وأيّ تدخّل بشريّ هو تدمير له. ومن ثمّ يعارض الخبير التاويّ المؤسّسات والقوانين الأخلاقيّة والحكوميّة

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

بوصفها حيلاً بشريّة تعترض الدور الحرّ للتاو وتعرقله، وكذلك عمل الـ "تي TE"، لذلك كانت أفضل طريقة لحكم العالم هو ألاّ تحكمه. وقل مثل ذلك في فنّ الحياة، فالسعادة يمكن بلوغها بالترك: بالسماح للتاو بالقيام بدوره الحرّ، والإنغماس في أنشطة ليست أفعالاً. إنّ الصفات والقيم نسبيّة، وما هو موجود فهو خير. وأخيرًا فليس الموت إلاّ مظهرًا للوجود، مثله مثل الحياة، إنّه استبدال صورة من صور الوجود بصورة أخرى. وكما يقول "شوانغ تسو": "الحياة والموت شيء واحد، وكذلك الصواب والخطأ"، وهذا هو ما يحرّر الإنسان من قيوده وأغلاله[١].

يشكّل كتاب الـ"تاو تي ـ كنغ"، أي "الطريق وقوّته"، كتاب التاويّة الكلاسيكيّ. وقد كُتب معظمه شعرًا، ومنهجه في العرض هو أساسًا منهج الشعر. ولقد تمّ تأليفه قرب نهاية عصر الفلاسفة، وتخلّى مؤلّفه عن طريقة الحكاية والقصص المستخدمة في كتاب "شوانغ تسو" وركّز جوهر تعاليم مذهب الطمأنينة في كلّ واحد. وإذا وُضع كتاب "تاوتي كنغ" في مكانه التاريخيّ في الفلسفة الصينيّة المبكّرة، أمكن أن يُقرأ على أنّه تعبير عن الوضع الفلسفيّ لأصحاب مذهب الطمأنينة، وتفنيدهم لخصومهم من الفلاسفة في عصرهم. ولكنّه يُنسب بوصفه "كتابًا مقدّسًا"، إلى "لاو ـ تسو" الأب الروحيّ للتاويّة، ولذلك كانت له الصدارة في التاويّة الدينيّة. وفي اللغة الإنكليزيّة أكثر من ثلاثين ترجمة لكتاب "تاو تي كنغ"، وقد عُرف بوجه عام ككتاب كلاسيكيّ في التصوّف يتجاوز حدود الصين.

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦.

التحوُّل الخَطير

في التَّاويـــــَّة

يرى باحثون أنّه بعد موت "لاو ـ تسو" بسنوات، تحوّلت التاويّة من عقيدة فلسفيّة لا يعرف الناس عنها إلاّ القليل، إلى عقيدة تؤمن بمعبودات لم يذكرها صاحب العقيدة أيّام حياته قطّ، وراح أتباعه يعبدون كلّ أنواع التنّين، والفئران، وبنات آوى، والثعابين. ولم يكتفِ التاويّون بكلّ هذه العبادات فقد راحوا يعتقدون في أشياء أخرى غريبة، فآمنوا بأنّ هناك رمادًا معيّنًا ونوعًا آخر من الحجارة والكتابة لها قوّة أكثر من السحر، إذا حملها المرء فإنّ الرصاص لا ينفذ فيه ولا يستطيع أن يقضي على حياته، بل إنّ حامله لا يمكن أن يغرق في الماء قطّ، كما لا تستطيع النار أن تحرقه. وبمضيّ الزمن زاد اعتقادهم في الشياطين والمردة والجنّ ومصّاصي الدماء والغيلان وكلّ أرواح الشرّ. واعتقد التاويّون أنّ أسوأ الأرواح الشريرة موجودة في الجبال. وأنّ لجميع الجبال أرواحها الشرّيرة، وكلّما زاد حجم الجبل زادت قوّة روح الشرّ فيه. وبدأ التاويّون يحكون آلاف القصص عن الشياطين في الجبال، وبدأوا يقصّون كيف يتمكّن بعض المؤمنين من قتل مردة الشياطين فيها. ولهم قصص كثيرة في ذلك[1].

وقد أجمع الباحثون على ردّ أسباب تلك التغيّرات في المعتقدات التاويّة إلى الغموض الذي يكتنف تعاليم "لاو ـ تسو"، والذي يكمن في فقراته الكثيرة. فالفقرات اليسيرة الفهم ليست كثيرة، بينما أغلب ما جاء في الكتاب عسير ليس واضحًا كلّ الوضوح. وقد حدث أن أُسيء تفسير تلك الأقوال بشكل غريب. فقد علّم "لاو ـ تسو" الناس، في الجزء الواضح من كتابه، أن يعيشوا ببساطة وأن يتجنّبوا الحرب وأن

---

١ ـ راجع: مظهر، قصّة الديانات، ص٢٣٦.

يتّبعوا الطريق الطبيعيّ. وإلى الناحيتَين الفلسفيّة والصوفيّة، تكوّنت، مع الوقت، حول التاويّة، ممارسات سحريّة وطقسيّة، بعد أنّ فسّر أتباع "لاو ـ تسو" آراءه على أنّها تعني شيئًا خفيًّا يوجب عليهم أن يتعلّموا كيف يصبحون شبابًا وأن يعمّروا إلى الأبد.

فمن الأفكار التي شغلت الصينيّين منذ القدم فكرة إطالة الحياة عبر السيطرة على الجسد. وكان طول العمر من أهمّ النعم المغدَقة على الصينيّين. وهذا حداهم على التفكير في الحياة الدائمة أو الأبديّة. ومن أفكار التاويّين أنّ الإنسان الذي يقبض على التاو يكسب الخلود. وممّا جاء في مقالات "تشوانغ تسو" أنّ الأمبراطور "فو هسي" كان أحد الذين استطاعوا "سرقة المبادئ الأزليّة" عن طريق قبضه على التاو[1].

وفي خلال القرن الأوّل للميلاد، بلغت النزعة السحريّة في التاويّة أوجها. في تلك الآونة هاجر من شرق الصين إلى غربها شخص تاويّ متحمّس اسمه "تشانغ ـ تاو ـ لينغ"، وأسّس حلقة سرّيّة مخصّصة للتأمّلات التاويّة الصوفيّة. ومع الوقت اكتسب لقب "المعلّم السماويّ" وظُنّ أنّ "لاو ـ تسو" نفسه أوكل إليه مهمّته بظهوره من عالم الروح. وقيل إنّ "تشانغ ـ تاو ـ لينغ" قد اكتشف شرابًا يجعل الناس يحيون حياة الخلود، وسمّى هذا الشراب "إكسير الحياة". وكان في صورة شراب شاع بينهم وأسرفوا في استعماله إسرافًا يُقال إنّه أودى بحياة بضع عشرات من أباطرة الصين المدمنين. وقيل إنّه صعد إلى السماء عن قمّة جبل "لونغ ـ هو" على ظهر نمر بعدما أطال اللّه عمره بواسطة ذلك الشراب حتّى بلغ المائة والعشرين. وبدأ التاويّون على الفور يعبدون الرجل الذي اخترع "إكسير الحياة"، "شراب الخلود" حتّى أنّ سلالته لا تزال تُعبد حتّى اليوم. ويُسمّى زعيمهم وحفيد "تشانغ

---

١ ـ راجع: صعب، الأديان الحيّة، ص٧٨.

ـ تاو ـ لينج" باسم الأمبراطور اللؤلؤيّ الذي يعيش في جبال التنّين ويحكم أتباعه بسلطة ملك[1].

وفي القرن الرابع ميلاديّ وضع عالم تاويّ اسمه "كو هَنغ KO HUNG" كتابًا حول الأمور السحريّة، وصفَ فيه تمارين للتنفّس وللحمية الغذائيّة التي من شأنها تقوية الجسد والذهن وإبعاد المرض وإطالة الحياة. كما وصف بعض الطرائق للسيطرة على أحداث الطبيعة، وأخرى للاختفاء عن القوم بحيث يصبح المرء غير منظور أو يتبدّل شكله أو يطير في الهواء. وقد أمضى المؤلّف السنوات الأخيرة من عمره على جبل "لو فو"، مختبرًا "عقار الخلود"[2].

ولم يكن قد مضى على موت مؤسّس التاويّة مائة عام حين وضع أحد التاويّين كتابًا جديدًا قال فيه: "إنّ المرور من المعدن الجامد أو الصخر الصلد والمشي من خلال النار أو على سطح الماء، كلّ هذه الأشياء ممكنة لمَن هو على وفاق مع تاو". ثمّ ظهر عام ١٤٨م. معلّم من رجال الدين كان يعرض على الناس أن يشفيهم من الأمراض كلّها بطلسم بسيط يعطيه لهم مقابل خمس حفنات من الأرزّ. وبدا لبعض الناس أنّهم قد شفوا من أمراضهم بفعل هذه الأعمال السحريّة، وقيل لمَن لم يثمر الطلسم فيهم، إنّ إخفاقه لم يكن له سبب إلاّ ضعف إيمانه! وازدادت هذه التعاليم عن السحر سوءًا على سوء بمرور الزمن. وبدأ ملايين الجهلة من الصينيّين يؤمنون بهذه الخرافات. وأصبحوا يخافون السحرة والكهّان الذين ادّعوا أنّ لهم سلطانًا على الأرواح الشرّيرة. ومع ذلك زاد عدد أتباع التاويّة بسرعة كبيرة، وأقبل الناس على ذلك الدين

---

١ ـ راجع: صعب، الأديان الحيّة، ص٧٨؛ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٤٢ ـ ٢٤٤.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٧٩.

زرافات ووحدانًا، وشادوا له الهياكل، وأغدقوا المال على كهنته بسخاء عظيم، ومزجوا به جزءًا من قصصهم الشعبيّة التي لا ينضب لها معين. وليس من الصعب فهم سبب اعتناق الكثيرين لعقيدة التاويّة والإيمان بتعاليم "لاو ـ تسو" الذي كان يعطي للطبيعة كلّ شيء، كما كان يضع، في أساس عقيدته، أنّه إذا كانت الدولة مضطّربة مختلّة النظام، فخير ما يُفعل بها ألاّ يحاول الإنسان إصلاح أمورها، بل أن يجعل حياته نفسها أداء منظّمًا للواجب الذي عليه أن يؤدّيه. وإذا ما لاقى الإنسان مقاومة فأحكمُ السبل ألاّ يكافح أو يقاتل أو يحارب.. بل أن يتروّى في سكون وأن يكسب ما يريد أن يكسبه، إذا كان لا بدّ من الكسب، بالخضوع والصبر. ذلك أنّ المرء ينال من الفوز والنصر بالصبر والسكون، أكثر ممّا يناله بالجهد والعمل. وفي هذا يقول "لاو ـ تسو":

> إنّ كلّ ما في الطبيعة من أشياء تعمل وهي صامتة، وهي توجد وليس في حوزتها شيء، تؤدّي واجبها دون أن تكون لها مطالب. وكلّ الأشياء على السواء تعمل عملها ثمّ تراها تسكن وتخمد. وإذا ما ترعرعت وازدهرت عاد كلّ منها إلى أصله. وعودة الأشياء إلى أصولها معناه راحتها وأداؤها ما قدّر لها أن تؤدّيه. وتلك العودة قانون أزليّ. ومعرفة هذا القانون هو الحكمة.

وعندما بدأت التاويّة تقول للناس إنّ هناك أرواحًا شرّيرة تعلّمهم السحر، كان الناس الذين لا يزالون يذكرون معتقداتهم القديمة في عدّة أرواح، مستعدّين للإصغاء للسحرة وقصص العجائب التي تحكي أساطير الأمبراطور اللؤلؤيّ. ثمّ فجأة، تحوّل الناس ليعبدوا "لاو ـ تسو" نفسه، وجعلوا منه إلهًا. وقالوا إنّ أمّه حملت فيه حملاً سماويًّا، واعتقد المؤمنون الصالحون أنّه وُلد كامل العقل طاعنًا في السنّ، لأنّه أقام في بطن أمّه ثمانين عامًا. ولم يقف الناس في هذا الموقف عند حدّ، بل لقد ملأوا الأرض بالشياطين والآلهة الجديدة، وكانوا يُخيفون الأولى بصواريخ ناريّة تنفجر في أفنية الهياكل، وتُبهج بانفجارها مَن يجتمع حولها من الناس، كما كانوا

يوقظون الثانية من سباتها بنواقيس ضخمة قويّة الصوت لتستمع إلى دعوات عبادها ومطالبها الملحّة[1].

وصفٌ

للتّاويِّين

يصف أحد الكتّاب المحدثين[2] التاويّين في الصين بقوله:

في الصين بضعة ملايين من البيوت، لا يستطيع المرء أن يدخلها إلاّ إذا مرّ في ممرّات ملتوية متعرّجة، قبل أن يجد أوّل حجرة من حجرات البيت، أو إلاّ إذا التقى في واجهة البيت بغابة كثيفة الأشجار، قائمة، حتّى ولو كانت مرسومة على لوحة عريضة، لينحدر بعدها في الممرّات الجانبيّة للبيت. وأصحاب هذه البيوت يسمّون بالدوايّين أو التاويّين. وهم أصحاب العقيدة التاويّة التي وضع أساسها الأوّل حكيم عاش في نفس أيّام كونفوشيوس ولكنّه كان يكبره ببضع من السنين. والذين يعرفون سرّ الأشجار والممرّات المتعرّجة يقولون إنّها هي التي تصدّ الشياطين والجنّ والمردة وأرواح الشرّ عن دخول البيت. فالتاويّون يؤمنون بكلّ هذه الألوان من أمثلة الشرّ، تمامًا كما كانوا يؤمنون بوجود مصّاصي الدماء والغيلان والتنانين، حتّى أنّهم عندما يأكلون أو يشربون، وقبل أن يمشي الواحد منهم أو يستريح، لا بدّ أن يهمس ببضع كلمات هي بمثابة تمائم تبعد كلّ هذه الألوان من ألوان الشرور، وإذا مشى في غابة فهو إمّا يغنّي

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٤٦ ـ ٢٤٧.

٢ ـ المصدر السابق.

أو يصفر، لأنّه يعتقد أنّ الموسيقى تُبقي الشياطين بعيدة عنه فلا تقترب منه. وشياطين الغابة تكره الموسيقى كما يكره البعوض الدخان. وكلّ ذلك هو السرّ في تلك الممرّات الملتوية بين بيوت التاويّين. فالتاويّ يؤمن بأنّ في الإمكان منع الروح الشريرة إذا اندفعت داخلة إلى البيت، وذلك إذا وجدت في وجهها جدارًا يصدّها، فهي تفاجأ بالجدار أثناء اندفاعها السريع فتصطدم به، وتموت. ومن أجل ذلك أقام التاويّون أيضًا الأشجار الكثيفة أمام مداخل بيوتهم. فإذا لم يكن لديهم القدرة على ذلك رسموا مناظر الغابات والأشجار الكثيفة على لوحات في مداخل البيوت. وهم لا يقصدون من وراء ذلك بالطبع أن تبدو البيوت جميلة. ولكنّهم فعلوا ذلك حتّى إذا ما جاءت الأرواح الشرّيرة محاولة دخول البيت من مدخله، اندفعت داخل الغابات المُقامة أو المرسومة، فلا يُسمع بها بعد ذلك أبدًا. هكذا آمن التاويّون بأرواح الشرّ، وعرفوها، وحاولوا تجنّبها. ولكنّهم عندما فعلوا ذلك لم يفعلوه خلال تلك الأيّام التي عاش فيها "لاو ـ تسو" صاحب عقيدتهم، بل فعلوها بعده بمئات من السنين، لأنّه هو نفسه لم يقل ذلك قطّ، ولا كان يؤمن به. فقد كانت له آراء أخرى غير تلك التي آمن بها أتباعه من بعده.

السَّمـــاء الصفراء
والطُّقوس التَّاويَّــة

قرب نهاية حكم أسرة هان وصل مجموعة من المنشغلين بالكيمياء القديمة والعلاج إلى نتيجة تقول: إنّه سرعان ما تحلّ "السماء الصفراء" محلّ "السماء الزرقاء"، ويكون لها مركز الصدارة والقوّة في الكون. وتنبّأوا بعمل ثوريّ جديد يبدأ في عام ١٨٤ ميلاديّة، ويبشّر بألف سنة من السلام الشامل. ولقد حدثت هذه الرؤيا الكوارثيّة في عصر كان في معظمه عصر اضطراب سياسيّ شامل، ممّا أثار صحوة الفلاّحين الذين

استجمعوا قواهم للثورة. وكان المتمرّدون يضعون على رؤوسهم مناديل صفراء اللون علامة على ارتباطهم بالسماء الصفراء، ولهذا السبب عُرفت حركة تمرّدهم باسم "ثورة أصحاب العمامة الصفراء". وأيًا ما كانت أسباب التمرّد، فإنّ هذه الحركة كانت تاويّة في قيادتها، كما أنّها استلهمت التاويّة في إيديولوجيّتها، واتّجهت لتحقيق الإصلاحات التي سعت إليها عن طريق دولة تاويّة. لكنّ التمرّد تمّ قمعه، وإن كان قد كشف عن وجود ديانة سمّت نفسها تاويّة، وهي ديانة منظّمة تنظيمًا جيّدًا مع نسبة كبيرة من أتباعها من الشعب. وأصبح من الواضح أنّها استقرّت قبل ثورة ١٨٤ ميلاديّة بزمن طويل.

ويذكر "شانغ ليانغ SHANG LIANG" في التاريخ التاويّ، وهو الذي خدم الأمبراطور الأوّل في أسرة هان، وكان تلميذاً للمذهب التاويّ، يذكر أنّه سعى عبثًا "لبلوغ الخلود" وبعد ذلك بسبعة أجيال هاجر واحد من سلالته هو "شانغ لنغ CHANG LING" إلى غرب الصين حيث كتب بحثًا عن المذهب التاويّ، وكوّن جماعات من التلاميذ، يُقال إنّ عددها بلغ عشرات الألوف. واشتهر عنه أنّه وصل إلى مرحلة الخلود. وفي القرن الثاني الميلاديّ وُجدت بالفعل كنيسة تاويّة، وكان لقب شانغ فيها لامعًا ومرموقًا، كما كانت السلالة المحترمة لأسرة "شانغ لنغ" من قادتها المرموقين. وانقسمت الكنيسة التاويّة إلى جماعتَين حسب المناطق: واحدة في الشرق بتوجيه "شانغ شوه CHANG CHUEH"، وأخرى في الغرب بتوجيه الـ"شانغيّين CHANGS" المتحدّرَين من أسرة "شانغ لنغ". ولقد قيل: إنّ الكنيسة الشرقيّة في عصر ثورة أصحاب "العمامة الصفراء" حصلت على ولاء ثمانية أقاليم، أي ثلثَي أمبراطوريّة هان، وإنّها جنّدت ٣٦٠،٠٠٠ من أتباعها، وكان للكنيسة التاويّة في هذه الأقاليم الثمانين ٣٦ منطقة، وكان على رأس النظام الهرميّ الأخوة الثلاثة شانغ: قائد وحاكم السماء، وقائد وحاكم

الأرض، وقائد وحاكم الإنسان. و"الخبير أو السالك الأعظم" هو المسؤول عن المناطق الواسعة، مع أكثر من عشرة آلاف شخص من المريدين. أمّا المناطق الصغرى فتخضع لمسؤوليّة "الخبير هنغ CHANG HENG" و"شانج لو CHANG LU" وامتدّ النظام الدينيّ التصاعديّ هابطًا إلى المجتمع الفرديّ مشكّلاً مراتب من الكهنة وجمهور المؤمنين.

طوّرت الكنيسة التاويّة ضروبًا من الطقوس والخدمات الدينيّة التي تُقام للتكفير عن الخطيئة وكفّارة المرض، الذي يُعتقد أنّه حدث بسبب الخطيئة. ويقوم الكاهن بتلاوة بعض التعاويذ على الماء ثمّ يقدّمه إلى التائب ليشربه، فإذا فشلت هذه العمليّة في تحقيق الشفاء يعزي الفشل إلى نقص الإيمان. وفي الكنيسة الغربيّة يدفع المؤمن خمسة مكيالات من الأرزّ فدية ماليّة. وقد ظلّت الكنيسة الغربيّة لعدّة قرون بعد ذلك تُعرف على المستوى الشعبيّ باسم "عقيدة مكيالات الأرزّ الخمسة". وتدوّن الخطايا كما تسجّل الاعترافات: تعدّ ثلاث نسخ توجّه إلى السماء، والأرض، والماء، توضع واحدة على قمّة جبل، بينما تُدفن الثانية في باطن الأرض، وتُغطّس الثالثة في الماء. أمّا الخطايا التي يكفّر عنها بهذه الطريقة فهي، السكر، والفسق والسرقة.

كانت الديانة التاويّة، والكنيسة التي تدعو لها، في نهاية أسرة هان، أبعد ما تكون عن مدرسة التصوّف التي كانت تحمل اسم التاويّة في القرنَين الرابع والثالث قبل الميلاد. فقد تحوّلت التاويّة من نظريّة فلسفيّة تقوم على أساس الحدس الصوفيّ إلى ديانة للخلاص، ومن مسألة تأمّل شخصيّ وخاصّ إلى كنيسة منظّمة ذات نظام كهنوتيّ تصاعديّ وأتباع. وفي نهاية أسرة هان تحوّلت التاويّة إلى ديانة على نحو ما كانت عليه البوذيّة، وما صارت إليه الكونفوشيوسيّة، وكانت استجابة الناس لها شعبيّة وعلى نطاق واسع، وازدادت أهميّتها واستجابة الشعب لها خلال عهود ستّ أسر حاكمة

وحتّى أسرة "تانغ T'ANG" بل إنّها صادفت بعض العصور التي تمتّعت فيها بحقبات وجيزة من الرعاية الأمبراطوريّة. وقد قدّمت التاويّة، بوصفها دينًا، طريقًا للخلاص، بل عبّدت للمؤمن عدّة طرق توصله إلى الجنّة. ولمّا كان المؤمن المخلص لها في صورته الشعبيّة البسيطة للغاية شديد الفقر بحيث يعجز عن المشاركة في الأساليب المكلفة من غذاء صحّيّ، وتناول العقاقير، ولمّا كان كذلك منعدم الثقافة بحيث لا يمكنه أن يتابع البحوث الموضوعيّة عن الاتّحاد والجذب الصوفيّ، فقد كان باستطاعته عن طريق التقوى والاعتراف والتكفير أن يكتسب ميزة ضروريّة يمكن بواسطتها بعد الموت والبقاء مدّة في العالم السفليّ، أن يتمّ إنقاذه أو إنقاذها فيُنقل إلى الجنّة. ويستطيع المؤمن كذلك، عن طريق الالتزام بالتقوى، وتأدية خدمات دينيّة خاصّة فداء لأرواح الموتى، أن يصلّي لهم لعلّهم بصلاح الأحياء يظفرون في النهاية بالانعتاق من العالم السفليّ ودخول الجنّة. وفي مرحلة عليا من التديّن يستطيع المؤمن بالإحسان، والتقشّف، وتأدية الخدمة للجماعة الدينيّة، أن يبلغ مرحلة يلحق فيها بطبقة الموظّفين الرسميّين في العالم السفليّ، ومن خلال الخدمة في نظامها التصاعديّ يضمن دخول الجنّة.

غير أنّ سالك الحقّ كان يسعى إلى تجنّب الموت تمامًا، والعبور إلى عالم الخالدين. عن طريق الانتقال إلى السماء مباشرة؛ فهناك أساليب متعدّدة، ونظم كثيرة يمكن بواسطتها بلوغ مرتبة الخالدين. لكنّ هذه المرتبة تُدّخر بالطبع لأكثر السالكين تقدّمًا على الطريق. وهذه النظم، بأوسع معنى للكلمة، هي عادات خاصّة بالغذاء الصحيّ وتمرينات التنفس، وضبط العمليّة الجنسيّة وما شابه ذلك، ويُقصد منها حلول عناصر أثيريّة لا تفسد محلّ العناصر الغليظة الفانية في الجسد الفاني. ولقد قيل إنّ الأبخرة التسعة كانت مندمجة في الـ"عماء CHAOS" مع بداية الخلق، ثمّ انفصلت:

فتكوّنت السماء من أنقاها، وتكوّنت الأرض من أغلظها، وتكوّن الجسم البشريّ من العناصر الغليظة، ثمّ مُنح الإنسان الحياة عندما دخله البخار الأصليّ لحظة الميلاد. ويتّصل هذا البخار، أو الجوهر، فتتشكّل الروح، وهي: مبدأ الحياة. وعند الموت ينفصل البخار عن الماهيّة. والجسم تحكمه الأرواح التي تحكم الكون. وإذ أريد للجسم ألاّ يتحلّل فإنّ هذه الأرواح لا بدّ أيضًا أن تظلّ موجودة لتمنع مغادرة الروح والماهيّة، وبذلك يبلغ مرحلة الخلود. وتستخدم ثلاثة مجموعات رئيسيّة من أساليب الممارسة لتحقيق هذه الغاية. أمّا المجموعة الأولى فهي "تغذية مبدأ الحياة"، والثانية هي "تغذية الأرواح"، والثالثة هي "المحافظة على الواحد سليمًا". وقد ذهبوا إلى أنّ أحد أسباب الموت هو الإسراف في تناول الحبوب، لأنّ أبخرتها تغذّي الأرواح الشرّيرة في المعدة. وتستقرّ هذه الأرواح في المخّ والقلب والمعدة. وعن طريق الانتظام في الغذاء الصحّي، واستخدام العقاقير، وتمرينات التنفّس، يمكن كبت هذه الأبخرة، فيحلّ البخار الأصليّ، وهو أزليّ خالد، بالتدريج، محلّ الأبخرة الغليظة والأرواح الغليظة. وحين يتمّ امتصاص الزنجفار، أي كبريت الزئبق، تتحوّل العظام إلى ذهب كما يتحوّل اللحم إلى حجر اليشم. هذا وعد آخر للفرار من الفساد والتحلّل. وفي استطاعة المرء عن طريق التنفّس أن يجبر الماهيّة، أو الجوهر، على الارتفاع من خلال النخاع إلى المخّ لتقوية اتّجاه البخار والماهيّة. وبذا يتمّ تغذية الأرواح التي تمنع التحلّل، وعندئذ، يستطيع المرء أيضًا، عن طريق التأمّل، والتركيز العميق، وحالة السكينة أو الطمأنينة، يستطيع أن يدخل في اتّصال مع الأرواح الخيّرة بداخله، وهي التي تؤدّي بالتدريج، وكلّما تقدّمت الرؤية، إلى مشاهدات الثالوث الأعظم الذي يتحقّق فيه الخلود[1].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٤٣ ـ ٣٤٦.

وأخيرًا يأتي بالطبع، أعظم السالكين، وهم أولئك الذين ساروا في طريق "شوانغ تشو" و"لاو ـ تسو" ونبذوا الخلود الشخصيّ في سبيل مرحلة أعلى هي التوحّد مع "التاو" نفسه، وهي حالة لا يمكن أن يلابسها أي احتواء ماديّ على الإطلاق.

تركّزت الحياة في الكنيسة، تحت زعامة أسرة شانغ، حول جماعات المؤمنين المحليّة، ويتولّى أمور الجماعة معلّم "شيه SHIH". وتتدرج تحته جماعة الموظّفين الرسميّين، مرتّبة وفق ألقاب مناسبة في ثلاث درجات: الأتقياء والأغنياء في آن معًا، ثمّ الأغنياء فقط، وأخيرًا الأتقياء الفقراء. وقد كان هؤلاء يؤدّون طقوس الترسيم لمَن بلغوا سنّ الثامنة عشرة، ويساعدون المحتاجين إلى عون خاصّ في حالة المرض، ويجمعون المال للاحتفالات والأعياد الدينيّة، ويقومون بصفة عامّة برعاية الجماعة. ويُعرف الأعضاء العاديّون في الجماعة باسم "تاو ـ مين TAO-MIN" أي "الشعب التاويّ". وكان التعليم مهنة تورث فتنتقل من الأب إلى الإبن. وقد ظلّت سلالة هؤلاء المعلّمين، حسبما تعيه الذاكرة، تتحمّل مسؤوليّة الجماعات التاويّة وممتلكاتها، ويوجّه إليها الخطاب بلقب "شيه كينغ SHIH KUNG" أي "المعلّم المحترم". وكانت الحياة في الجماعة حياة ممتلئة، فلكلّ سنة تقويم خاصّ بالاحتفالات والأعياد الدينيّة، وبعضها إلزاميّ ومحدّد، وبعضها الآخر يُقام بناء على رغبة خاصّة من أحد أعضاء الجماعة. ويلتقي جماعة المؤمنين ثلاث مرّات كلّ عام للاحتفال بالعوامل الثلاثة الفعّالة: السماء، والأرض، والماء. وهم الذين يحدّدون ألوان الثواب والعقاب، وتُقام الخدمة الدينيّة خمس مرّات كلّ عام للمؤمن الراحل، وهناك خدمات معيّنة كالولائم الدينيّة تقدّمها الأسر المتديّنة للمعلّم بمناسبة الميلاد والوفاة، وقد كان بعضها، بمعنًى من المعاني،

قدّاسات تُقام من أجل مصالح خاصة، كمولد ابن أو الشفاء من مرض، أو نزول المطر، أو الترقّي في الرتبة، أو احتفالات بتحقيق مصالح معيّنة. وازدادت بالتدريج طقوس الكنيسة من حيث العدد والتعقيد، فمن الطقوس التي ظهرت بعد ذلك عيد "تعويذ الذهب" الذي يُقام احتفالاً بالأمبراطور، ويخصّص لتفادي كوارث الطبيعة: كالفيضانات، والآثار الضارّة التي يسبّبها الكسوف أو الخسوف، وما شابه ذلك، ولضمان رخاء الأمّة. وهناك كذلك عيد "تعويذ حجر اليشم" الخاصّ بصحّة أفراد المجتمع جميعًا ورخائهم، سواء أكانوا مؤمنين أو غير مؤمنين، وعيد الغبار والرماد الذي يُحتفل به كفّارة عن المرض، وعيد الطلسم الأصغر لضمان الخلاص من الجحيم للأسلاف حتّى الجيل السابع[1].

وفي عام ١٦٦ ميلاديّة أقام الأمبراطور "هوان HUAN" من أسرة هان مراسم تاويّة وبوذيّة في القصر الأمبراطوريّ، فكان ذلك بمثابة إعلان رسميّ عن مقدم البوذيّة إلى الصين.

كانت البوذيّة، كالتاويّة، ديانة للخلاص، لكن ينبغي علينا ألاّ نفترض أنّ البوذيّة التي ضربت بجذورها في الصين في عهد أسرة "هان" كانت عقيدة ذات كيان عضويّ متكامل وممارسات دينيّة مثلما كانت في الهند حيث انقسمت إلى مدارس متعدّدة، سبق أن تطوّرت بالفعل تطوّرًا لا بأس به، لقد تلقّى الصينيّون البوذيّة على أنّها صورة أجنبيّة من التاويّة.

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٤٦ ـ ٣٤٧.

بينَ البُوذيَّة
والتَّاويَّـــة

عندما دخلت البوذيّة إلى الصين، كانت التاويّة والبوذيّة عقيدتَين متناقضتَين في عدد من الجوانب الأساسيّة؛ فالتاويّة تسعى لإدامة الشخصيّة الإنسانيّة، في حين تنكر البوذيّة وجودها ذاته، فلا يوجد عند البوذيّين ما نسمّيه "نفسًا أو أنا" والتاويّة تتطلّع إلى خلود الجسد الماديّ، بينما تنظر البوذيّة إلى الجسم البشريّ، على نحو ما تنظر إلى جميع الأشياء المخلوقة، على أنّه عابر وزائل[1].

غير أنّ هذه الخلافات العقائديّة كانت في البداية غامضة ومبهمة في أعين الصينيّين. لقد كان للبوذيّة في ممارستها الدينيّة أشياء متشابهة، في ظاهرها، للتاويّة، فهي تمارس عبادة شعبيّة بغير قرابين، وتضفي أهميّة على التأمّل وممارسات اليوغا، وعلى الصوم والتقشّف. وقد ظلّ الاعتقاد شائعًا في الصين لعدّة قرون بأنّ "لاو ـ تسو" أب التاويّة، هو الذي علّم بوذا. وأنّ البوذيّة هي ببساطة: صورة أجنبيّة من التاويّة. وعلى مدى القرون الأربعة التالية حلّ محلّ وحدة أسرة هان حقبة من التمزّق والتفكّك عُرفت بحقبة الممالك الثلاث والأسر الستّ، واستمرّ التفكّك حتّى عادت الصين إلى الوحدة مرّة أخرى في عهد أسرتَي "سوي SUI" و"تانغ TANG". وكانت حقبة التفكّك السياسيّ بداية لعصر الإيمان في الصين، فقد أرخت الحظوظ المتقلّبة للبيت الملكيّ قبضة الكونفوشيوسيّة عن المثقّفين، وفي هذه التربة الحرّة الطليقة ازدهرت الكنيسة التاويّة، وبدأت الكنيسة البوذيّة، تثبّت أقدامها.

---

١ ـ راجع: البوذيّة في الجزء الخامس من هذه الموسوعة.

للبوذيّة، كالتاويّة، نمطان من الحياة الدينيّة: حياة الرهبان وحياة العامّة. وبينما كان الرهبان وأهل الفكر والمثقّفون في الديانتَين يجادلون في الخلافات العقائديّة، ويؤثّرون بمجادلاتهم في الحياة العقليّة الصينيّة بصفة عامّة، كانت الديانتان تتنافسان من أجل استمالة أرواح الشعب الصينيّ. والديانتان معًا تردّان العقيدتَين اللتَين بلغتا مستوى عاليًا من الرهافة والعمق الميتافيزيقيّ إلى صيغ بسيطة تسمح لرجل الشارع أن يتذوّق بواسطتها العزاء الذي يعينه على الحياة، ويعطيه الأمل في دخول الجنّة في الحياة الأخرى، على الرغم من أنّه قد يفتقر لأيّ قدر من الثقافة يمكّنه من الدخول في مناظرات مدرسيّة. وربّما كان أفقر من أن ينبذ العالم من أجل الدير البوذيّ أو المستعمرة التاويّة. وعندما عبّرت البوذيّة في الصين عن نفسها من خلال العبقريّة الصينيّة، وتمّ تفاعلها مع التاويّة، أنتجت عددًا من الفرق البوذيّة الصينيّة الخالصة. ومن هذه الفرق الأساسيّة بوذيّة "تشن CH'EN" وبوذيّة مدرسة "الأرض الطاهرة TIEN TAI" وفرقة "تشن ين CHEN YEN" التنتريّة. وقد قدّمت البوذية في الصين شعائر سحريّة وألوانًا من السحر كانت بالفعل جزءًا من الديانة التاويّة.

وصلت الكنيسة التاويّة إلى ذروتها خلال عصر الإيمان، ولا سيّما إبّان حكم الأسر الستّ، ورغم نجاحها في عهد أسرة "سوي SUI" وبداية عهد أسرة "تانغ TANG" فإنّها بدأت بعد ذلك في الانحدار الطويل البطيء إلى أن وصلت إلى حالة الاحتضار في العصور الحديثة. وقد أصبحت هذه الكنيسة تعارض سياسة العرش مع نهاية أسرة "هان HAN"، أمّا بعد القرن الرابع الميلادي فقد تمتّعت بحماية البلاط والأسر الكبيرة، وظهر مشاهير الشعراء من أمثال "تاويان - منغ" (٣٧٥ - ٤٢٧ م)، والفنّانين من أمثال الخطّاط "وانج - هس - شيه WANG HASI-CHIH" (٣٣١ ــ ٣٧٩)، والرسّام "كوكاي ـ شيه KU,KAI-CHIH" (٣٤٤ - ٤٠٦) الذين تأثّروا بالتاويّة. وخلال حكم أسرة "سوي

SUI" وأوائل عهد "أسرة تانغ" نالت هذه الفرقة عطف الأمبراطور بسبب "حجر الفلاسفة"، وهو مادّة كان قدماء الكيمائيّين يعتقدون أنّها قادرة على تحويل المعادن الخمسيّة إلى ذهب، قام الكيمائيّون التاويّون بإعدادها. وأبدى أباطرة أسرة "تانغ" تعاطفًا خاصًّا مع التاويّة. ورغم وصولها إلى مستوى التعاطف الرسميّ، فقدت التاويّة بعد عصر الإيمان شعبيّتها التي نالتها بين الجماهير، وتقلّصت تدريجًا حتّى أصبحت ديانة للرهبان والمشعوذين. وعندما اشتبك البوذيون والتاويّون في صراع عنيف خلال عصر الإيمان للاستحواذ على أرواح الصينيّين، وجد التاويّون صعوبة في أن يغفروا للبوذيّين أنّهم سحبوا منهم أتباعهم بهذه الأعداد الغفيرة، وأحنق البوذيّين، من ناحية أخرى، أن يوصم دينهم بأنّه ليس سوى صورة أجنبيّة من التاويّة، ونشب جدل عنيف حولما إذا كان بوذا هو معلّم "لاو ـ تسو" أو تلميذه. وكلّما غلب الطابع الصينيّ على البوذيّة غلبت عليها كذلك، بطريقة ما، الروح التاويّة. غير أنّ التاويّة بدورها استمدّت خلال تطوّرها الكثير من البوذيّة.

ومع عودة الوحدة في عهد أسرتَي "سوي وتانغ" ورغم افتتان بعض الحكّام بالتاويّة أو البوذيّة فإن الكونفوشيوسيّة أكّدت تأثيرها بوصفها التراث الكلاسيكيّ للطبقات المثقّفة. وكانت أعمال الإدارة الواسعة النطاق تتطلّب موظّفين مدرّبين على الكونفوشيوسيّة لا أصحاب إيمان بوذيّ أو تاويّ. وتغيّر ذلك كلّه في عهد أسرة "سونغ SUNG" خلال القرن الحادي عشر ميلاديّ، حيث ازدهرت الدراسات الكونفوشيوسيّة بصفة خاصّة. وبانتصار الكونفوشيوسيّة الجديدة التي وضعت نظامًا رسميًّا للتعليم أصبح الأساس المشترك للإيمان عند الطبقة المثقّفة، انهارت التاويّة والبوذيّة تدريجًا، وأصبح جانب كبير من فكرهما جزءًا من روح الشعب الصينيّ، وفقدتا طابعهما المميّز.

بعد وفاة ماوتسي تونغ عام ١٩٧٦، ظهرت اتّجاهات أكثر تسامحًا نحو الدين الذي عانى الكبت خلال ثورته الثقافيّة. وفي عام ١٩٨٠ أعيد إصلاح أكبر معبد تاويّ في بكين على نفقة الحكومة، جنبًا إلى جنب مع إصلاح مجموعة من المعابد والأديرة البوذيّة. وفي عام ١٩٨١ اقترحت الجريدة الرسميّة "صحيفة العلم الأحمر" شيئًا من الدعم، وبعض المعارضة في آن معًا، للحريّة الدينيّة عندما قالت "هناك في الوقت الحالي عدد كبير من الناس في الصين يؤمنون بالدين، ولا بدّ لنا من احترام الحقيقة الموضوعية"[1]. وهكذا استعاد التاويّون بعض الوجود، غير أنّه وجود قليل نسبيًّا.

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٤٩، ٣٥٣، ٣٥٩ ـ ٣٦١، ٣٦٤.

الفَصلُ السَّادِس

الشِّنتُو

أقدَم دِيانَات اليَابَان: الشِّنتُو والكَامي؛

في المُعتقدَات الإلهيَّة؛

هكذا كَان الخَلق؛

طقُوس الشِّنتو ومعَبدُهم وشعَائرُهم؛

مذَاهب الشينتُو وتَعدَادهم اليوم.

أقدم ديانات اليابان

الديانة الرئيسيّة في اليابان اليوم هي البوذيّة من غير منازع، وإن كان التاريخ المكتوب لليابان لا يبدأ إلا في القرن الخامس للميلاد. لكن البوذيّة حتّى في هذه الحالة، تعكس صورتها الصينيّة المركّبة التي تلاءمت إلى حدّ كبير مع روح الـ "شنتو SHINTO"، وهي مجموعة المعتقدات الدينيّة الأصليّة في اليابان، وأقدم تراث دينيّ فيها.

خلال العصر الحجريّ كان السكّان اللذين يعيشون في الجزر اليابانيّة الرئيسيّة الأربعة، إلى حد كبير، من أرومة الـ"أينو AINU "[1]، ويبدو أنّ ديانات الأينو التي كانت تشمل التضحية بالدم والطقوس الفظّة، لم تؤثّر في اليابانيّين الغزاة الذين دخلوا البلاد في وقت واحد، من كوريا وسيبيريا في الشمال، ومن جزر المحيط الهادئ في الجنوب. وكانت قبيلة "ياماتو YAMATO" التي كُتبت لها السيادة في ما بعد، ونشأت قبل الأسرة الأمبراطوريّة، تنتمي إلى جماعة الغزاة الجنوبيّين. وأقدم ما يتوفّر من مراجع ومن وثائق في مجال البحث هو كتاب "كوجيكي KOJIKI"، أي "سجلاّت الآثار القديمة" الذي كُتب عام ٧١٢ ميلادية، وهو مكتوب بالحروف الصينيّة التي تصوّر الألفاظ الصوتيّة للسكّان الأصليّين، وكتاب "نيهونغي NIHONGI" وهو كتاب "الأحداث التاريخيّة

---

١ ـ وهم العنصر البدائيّ الأبيض الذي وفد إلى اليابان في منطقة نهر "أمور" في العصر الحجريّ، ثمّ جاء عنصر أصفر منغوليّ من كوريا في نحو القرن السابع قبل الميلاد.

لليابان"، الذي يتمثّل في وثيقة كُتبت باللغة الصينيّة سنة ٧٢٠ ميلادية، ويستهدف عرض تاريخ اليابان من بدايته حتّى عام ٦٩٧ للميلاد، والكتاب الأخير متأثّر بالتأكيد الصينيّ على الخطّ الأمبراطوريّ، كما يسعى لإثبات قدم اليابان، وعراقة أسرتها الأمبراطوريّة بصفة خاصّة في آن واحد، ويوحي الكتابان بأنّ لليابان رسالة إلهيّة على الأرض، وبهذا ينتقلان في سهولة ويسر من الأسطورة إلى التاريخ، وهما يعرضان الأساطير الخالصة كما لو كانت تاريخًا يمكن إثباته. ويفسح عصر "كامي KAMI" الذي "بدأ مع ظهور الكون من العماء" المجال لعصر التاريخ البشريّ، عندما هبط "تنجي NINGI" حفيد إلهة الشمس كامي" "أماتيراسو ـــ أو ـــ ميكامي AMARTERASU-O-MIKOMI" إلى الممالك الدنيا، وأصبح حفيدها العظيم "جيمو JIMU" أوّل أمبراطور لليابان الموحّدة. والتاريخ الذي تؤرّخ به الحادثة هو عام ٦٦٠ قبل الميلاد، غير أنّ المؤرّخين يصعب عليهم قبول هذه الدقّة في حقبة تمتدّ ألف سنة قبل ظهور الكتابة، كما أنّه لو قورن هذا التاريخ بالسجلاّت العينيّة لوجد أنّ قبيلة "ياماتو YAMATO" لم تظهر بحيث يكون لها أهميّة إلاّ في القرن الأوّل قبل الميلاد، إن لم يكن بعد هذا التاريخ، ولذلك يعتقد المؤرّخون أنّ توحيد البلاد لم يكتمل إلاّ بعد ذلك التاريخ بنحو ستّمائة أو سبعمائة سنة.

ويظهر من الوثائق العينيّة أنّ السلطة كانت في يد الحكّام من النساء اللائي عملن في وظيفة "الشامان" أو الوسيطات، وبذلك احتفظن بالوحدة الملكيّة، أو السياسيّة، وبوظيفة الكاهن، أو الوظيفة الدينيّة، التي قام بها الأمبراطور بعد ذلك.

ويُعدّ كتابا "كوجيكي" و "ينهونغي" مصدرَين قيّمَين لمختلف الأساطير القديمة، أمّا كتاب "إنجشيكي ENGISHKI" أي "قوانين زمن إنجي ENGI" الذي يرجع تاريخه إلى

عام ٩٢٧ للميلاد، فهو يشمل "النوريتو NORITO" القديمة، أي الطقوس والصلوات التي كانت تستخدمها عائلات الكهنة[١].

يرى باحثون أنّه منذ أكثر من ألفَي سنة، كان اليابانيّون يرون أنّ العالم مكان صغير جدًّا، وأنّهم وحدهم أهل هذه الدنيا، وأنّ مملكتهم التي كانوا يسمّونها بلاد الجزر الثماني العظيمة هي كلّ العالم بما يحيطها من الماء والجزر. وحتّى السماء ظنّوها قريبة جدًّا منهم، قريبة إلى درجة أنّ سهمًا طويلاً جدًّا سبق أن أُطلق من الأرض منذ زمن ممعن في القدم، فنفذ السهم من السماء وصنع فيها ثقبًا. ومن ذلك الثقب هبطت على الأرض آلاف الأشجار والنباتات والأعشاب وجميع الكائنات الحيّة، حتّى أنّ كلّ ما فوق الأرض لم يأتِ إليها إلاّ عن هذا الطريق. ولمّا كان كلّ ما على الأرض قد جاء من السماء، فإنّ المرء يستطيع أن يستنتج أنّ تلك السماء مليئة بآلاف أخرى كثيرة من كلّ هذه الأشياء. وكان ذلك هو تمامًا ما اعتقده اليابانيّون القدماء. واعتقدوا، إلى جانب ذلك، أنّ الحياة في السماء لا تختلف كثيرًا عن تلك الحياة على الأرض، وإن كانت أكثر منها جمالاً. أمّا تحت الأرض، فقد كان هناك عالم آخر، فيه حياة وفيه ناس كما هي الحال فوق الأرض، إلاّ أنّها ليست لطيفة. وكان لا بدّ أن يكون هناك باب يؤدّي إلى العالم السفليّ، وقد اعتقد اليابانيّون القدماء أنّ هذا الباب كان مفتوحًا، وكان الناس يستطيعون الوصول إليه وزيارته. ولكنّ زلزالاً هائلاً حدث ذات يوم فأغلق المدخل بحجر كبير. ومنذ وقت طويل أيضًا كان هناك جسر بين السماء والأرض، وكان الناس يستطيعون الصعود إلى السماء لزيارتها، ولكنّ ذلك الجسر انكسر ذات يوم ولم يصلحه أحد بعد ذلك أبدًا[٢].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٦٧ ـ ٣٦٨.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ٩٧؛ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٧٢.

كانت عقيدة اليابانيّين في تلك الأيّام بسيطة جدًّا، كلّ ما آمنوا به هو أنّ النجوم والقمر والشمس والجبال والأنهار والرعد والمطر لها أرواح يمكن أن تنفع أو أن تضرّ إذا أُريد منها ذلك، وأنّ الناس إذا عبدوها هدتهم إلى العمل الصالح. لهذا عبد اليابانيّون القدامى كلّ هذه الأشياء. فإذا أرادوا المطر ذهبوا إلى النهر ودعوه أن يعطيهم المطر، وإذا أرادوا من المطر أن يكفّ وأن تشرق الشمس خرجوا وصلّوا للشمس. والحقّ أنّه ليس بين جميع هذه العقائد الأولى في العالم عقيدة بمثل بساطة العقيدة التي تسمّى الشنتو. وهي عقيدة كان يُطلق عليها اسم "كامي نو ـ ميشي" ثمّ عُرفت باسمها الصينيّ "شنتو". وكان الأصل في تلك التسمية أنّ الصينيّين الأوائل كانوا يؤمنون بالأرواح الخيّرة "تشن" والأرواح الشرّيرة. وكانت تعاليم الفيلسوف الصينيّ القديم "لاو ـ تسو" تُسمّى "تاو" بمعنى الطريق، وهكذا أصبحت "شن تاو" تعني باللغة الصينيّة "الطريق إلى الأرواح الخيّرة"[1].

الشنتُـــو والكَامي

فالشنتو SHINTO ليست هي نفسها كلمة يابانيّة، لكنّها صيغت في القرن السادس عندما دخلت البوذيّة إلى البلاد لتعبّر عن التراث الدينيّ الأقدم عهدًا، "طريق كامي KAMI"، وكثيرًا ما توصف بأنّها "عقيدة أصيلة" في اليابان، لا لأنّ عبادتها ذات النزعة الطبيعيّة القويّة لا تضاهيها عبادة أخرى في أيّ مكان، بل لإثرائها لروح التديّن اليابانيّ المتميّز الذي أثّر كذلك على صور الإيمان اليابانيّ الأخرى. وتُعدّ سمتها "الحدسيّة"، أي

---

١ ـ مظهر، قصة الديانات، ص٢٥٠ ـ ٢٥١.

الإدراك الباطنيّ السريع للحقيقة بغير مقدّمات، مظهرًا واضحًا من مظاهرها. والإدراك الحدسيّ هو على عكس الاستدلال العقليّ الذي يسير خطوة خطوة إلى النتيجة، ونادرًا ما يسأل المؤمنون بالشنتويّة أسئلة أنطولوجية، أي أسئلة تتعلّق بطبيعة الوجود بصفة عامّة مثل: هل هذا الوجود الذي نعيش فيه يتألّف من عنصر واحد أو عنصرَين أو أكثر؟ وهل هو عنصر روحيّ أو ماديّ أو محايد؟... بل هم، بالأحرى، يشعرون بحقيقة "الكامي KAMI" وواقعيّته، لأنّ المرور بتجربة مباشرة مع الألوهيّة والإدراك المرهف للسرّ الغامض أكثر أهميّة بالنسبة لهم من النظر العقليّ لدقائق العقيدة.

على الرغم من أنّ كلمة الـ "كامي KAMI"، كثيرًا ما تُترجم بمعنى "إله" أو "آلهة"، فإنّه من الأفضل، في ما يبدو، أن تظلّ بغير ترجمة؛ لأنّها تُطلق على الوحوش، والنباتات والبحار، والجبال، وظواهر الطبيعة: كالعاصفة، والريح، والصدى الذي يبثّ الرعب في النفوس، وكذلك تنطبق على أسلاف العشيرة المحاربين. وبعد أن أقرّ أحد فقهاء الشنتو في القرن الثامن عشر، وهو "موتوري نورينغا MOTOORI NORINGGA" بعجزه عن فهم معنى هذه الكلمة، راح يعرّفها، بصورة عامّة، بألفاظ مقدّسة فيقول: "جميع الأشياء، أيًّا كانت، التي تستحقّ التبجيل، وتبعث على الرهبة لأنّها فوق المألوف، وكذلك القوى الفائقة التي تملكها تُسمّى: كامي". ويقول أيضًا: "إنّها لا تحتاج إلى أن تكون مرموقة بسبب نبلها الفائق أو خيراتها أو نفعها". ولا بدّ أنّ الفقيه الشنتويّ الحديث سيظلّ يقول: "إنّ شعب اليابان نفسه ليست لدَيه فكرة واضحة عن الكامي KAMI، فهو يدرك الكامي، بطريقة حدسيّة في أعماق وجدانه، وهو يتّصل به اتّصالاً مباشرًا دون أن يكوّن فكرة عمّا هو الكامي من الناحية التصويريّة، أو اللاهوتيّة. ومن ثمّ فمن المستحيل أن نوضح

ونصرّح بما هو في أساسه غامض بحكم طبيعته نفسها". هذا ما قاله "أونو سوكو" في كتابه "طريق الكامي".

ومع ذلك فكلمة "كامي" موجودة في اللغة اليابانيّة، وهي تعني "فوق" أو "أعلى" وسوف يكون من الحكمة أن نربط بينها وبين المقطع "KA" الذي هو تعبير عن التعجّب أو الحيرة التي يثيرها الشيء المخيف، أو ما لا يمكن الإحاطة به. وربّما يكون مرور الأيّام قد جلب معه بعض التنقيح لهذه الفكرة.

في المُعتقدَات الإلهيَّة

يرى باحثون[1] أنّ الأرواح هي أساس العقيدة اليابانيّة الأولى. وهي تسري في كلّ شيء. ليس فقط في كواكب السماء ونجومها ومظاهرها، بل في نباتات الحقل وحشراته أيضًا، وفي الأشجار والحيوان والإنسان. وأصبح الناس يعتقدون أنّ عددًا كبيرًا جدًّا من الآلهة يحوم فوق الدار وساكنيها ويرقص مع ضوء المصباح ووهجه إذا رقص. ومن أجل الاتّصال بالآلهة يستطيع المرء أن يقوم بإحراق عظام غزال أو قوقعة سلحفاة، كما يمكن الاتّصال بالآلهة بفحص العلامات والخطوط التي تحدثها النار، فحصًا تُستمدّ منه المعونة من الخبراء. وبهذه الطريقة كان اليابانيّون يستوثقون من الخطوط الطيّبة أو الخبيثة، ومن ملاءمة الظروف أو عدم ملاءمتها للقيام برحلات بريّة وبحريّة.

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٥١ ـ ٢٥٢.

عالم الاجتماع الأميركيّ روبرت بلاّه BELLAH، وهو من أكبر المتخصّصين في تراث اليابان والشعوب الآسيويّة، يشير في تحليله العامّ للديانة اليابانيّة، إلى تصوّرَين أساسيَّين لِما هو إلهيّ: التصورّ الأوّل أنّه أيّ "كائن فائق مستغني عن الغذاء أو الرعاية أو الحبّ". أمّا التصوّر الثاني فهو أساس الوجود، أو هو الجوهر الداخليّ للواقع. وينتمي إلى هذه المقولة تصورّ طبيعة بوذا، التي يقال إنّها حاضرة في الكلّ، وكذلك تأويلات "كامي" التي يغلب عليها الطابع الفلسفيّ، والتي نشأت نتيجة للتأثير البوذيّ. وقد أثّرت الأفكار الكونفوشيوسيّة عن "التيان TIEN" أي السماء، في نظرة أحد كتّاب القرن السابع عشر عن الشؤون الأخلاقيّة للكامي فكتب يقول:

"عندما نقول: إنّ الكامي يختلف عمّا هو غير طاهر، فإنّ ذلك يرادف قولنا: إنّ شخصًا غير طاهر القلب يثير استياء الكامي، وبسبب ذلك فإنّ الكامي يجسّد الاستقامة والأمانة الجوهريّتَين. ومن ثمّ فهو تقدير سماويّ يجعلنا نعيش حياة سعيدة وأمينة تنسجم مع إرادة الكامي. كما أراد كاتب آخر أن يربط بين كلمتَي "كامي" و"كاغامي KAGAMI" أي المرآة: "ذلك الموجود في السماء هو الكامي KAMI وهو الروح في الطبيعة، وهو الإخلاص في الإنسان"[1].

على أيّ حال، فإنّ الشينتو هو دين اليابان القوميّ، لا وجود له خارج اليابان. هو ليس مجموعة عقائد بمقدار ما هو إجلال لطريقة حياة معيّنة ولبعض الأماكن. فاليابانيّون يحبّون أرضهم حبًّا لا مثيل له، ولا يتصوّرون حياتهم خارجها أو احتلال غريب لها، بل يستميتون في الدفاع عنها. ولكلّ سهل وبحيرة ووادٍ ونهر وجبل ونبع ماء فيها مكان عظيم في نظرهم، بل مقدّس. وفي اعتقادهم أنّ أرض اليابان وحدها

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٧٢ ـ ٣٧٣.

مقدّسة، وأنّها مركز العالم المنظور. فإذا كانت أديان الهند انطلقت من النفس البشريّة، فإنّ أديان الصين واليابان انطلقت من العالم، وسعت إلى إطالة حياة الإنسان على الأرض. ولئن لم تكن الطبيعة هي الحقيقة القصوى في هذه الأديان، فلا شكّ في أنّها ذات قيمة كبيرة في بلوغ هذه الحقيقة[1].

ومن الناحية العمليّة، عُرف لعقيدة "الشنتو" صورتان: العقيدة السياسيّة التي تتّجه بالعبادة إلى الحاكمين والأسلاف، وهم الآلهة الذين أسّسوا الدولة وأقاموا بناءها؛ والعقيدة المنزليّة التي تتّجه بالعبادة إلى أسلاف القبيلة. على أنّ عقيدة الشنتو في الحالتَين لم تطلب من الناس أكثر من أن يحجّوا حينًا بعد حين لأسلافهم، ويقدّموا لهم الضراعة والخشوع، وأن يفعلوا ذلك أيضًا لأمبراطورهم ولماضي أمّتهم. وقد كان معتنقو هذه الديانة يخاطبون السلف المقدّس الأوّل الذي جاءت عنه سلسلة الأباطرة، ضارعين سبع مرّات كلّ عام. ومن هنا عبد اليابانيّون أصحاب عقيدة الشنتو، أمبراطورهم: "الميكادو"، إذ كانوا يرون أنّ "الميكادو" ليس بشرًا مثلهم، بل هو أقرب شبهًا للشمس أو القمر أو جبل "فوجي" المقدّس. وهو كائن كالآلهة لا بدّ أن يُعبد. فلماذا عبد اليابانيّون الميكادو؟ إنّ الردّ على هذا التساؤل يستوجب معرفة قصّة الخلق التي ترد تفاصيلها في الكتابَين المقدّسَين لعقيدة "الشنتو" وهما: "كوجيكي" و"تيهونغي"[2].

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ٧١ ـ ٧٢، ٩٧.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

هكذا كَان

الخَلــــق

تختصر قصّة الخلق عند الشنتو بأنّ الآلهة كانت تولد ذكرًا وأنثى، ثمّ تموت، حتّى حدث في النهاية، في زمن كان يعيش فيه الجيل السابع من الآلهة، أن أصدر شيوخ الآلهة أمرهم إلى إلهَين شابَّين أن يخلقا الأرض ويقيما عليها الحياة[1]، أي أن يبدعا كلّ شيء في اليابان، من أرض وشعب وحكّام. وكان إسم الذكر "إيزاناغي"، والأنثى "إيزانامي"، وهما الإنسانان الأوّلان. وكان لهما صحبٌ سماويّون أوكلوا إليهما صنع الجزر اليابانيّة[2]. وعلى رأس قوس قزح، ذلك الجسر العائم الرائع، الذي ينحدر من السماء إلى حيث المحيط الواسع اللانهائيّ، نزل الإلهان، ولمّا وصلا إلى أسفل، وقف الإله "إيزاناغي" وفوق رأسه إكليل من النور، ينظر في حيرة إلى رفيقته الإلهة "إيزانامي" بجمالها الرائع وشعرها المسترسل على كتفَيها كأسلاك الذهب. وبدا "لإيزاناغي" أن يتحسّس برمحه الطويل المرصّع بالجواهر صفحة الماء علّه يجد شيئًا صلبًا وسط هذا المحيط يتّخذان منه مقرًّا للعالم الذي كُلّفا أن يخلقا فوقه الحياة[3]. فشكّ حربة رمحه في الطين. ثمّ رفعها فسالت من الطين مادّة أصبحت جزيرة[4]. ويقول بعض المراجع إنّ "إيزاناغي"، إذ لم يعثر، برمحه، على شيء صلب قطّ، رفع رمحه في يأس، ولم يكد يفعل ذلك حتّى تساقطت من الرمح قطرات من الماء راحت تتجمّع وتتكثّف وتصلب وتمتدّ فوق صفحة المحيط لتصبح أرضًا صلبة واسعة، كانت هي

---

١ - مظهر، قصّة الديانات، ص٢٥٣.

٢ - صعب، الأديان الحيّة، ص٩٧.

٣ - مظهر، قصّة الديانات، ص٢٥٤.

٤ - صعب، الأديان الحيّة، ص٩٧.

نفسها جزيرة "أناغورو". وعلى سطح هذه الأرض نزل الإلهان، وبدأت قصّة الخلق. ولم تكد أقدام الإلهَين تمسّ الأرض الجديدة حتّى بدا لهما كأنّ كلاً منهما يرى الآخر لأوّل مرّة. كان هناك شيء غريب يحدث للمرّة الأولى على الأرض، شيء اسمه الحبّ. وراحت الربّة الحسناء تتأمّل حاله في إعجاب، وهو يقيم نصبًا ضخمًا يبدآن منه دورتَين يكتشفان خلالهما هذه الأرض الجديدة، ثمّ يعودان ليلتقيا عنده مرّة أخرى. وبدأ كلّ منهما دورته، فأخذ "إيزاناغي" أحد الاتّجاهَين، وسارت "إيزانامي" في الاتّجاه المضادّ. وبينما كان كلّ منهما يأخذ طريقه على طول شاطئ الجزيرة، أخذا يشهدان ما تصنعه الضفادع في الماء وفوق الرمال، وأخذ بهما العجب وهما يكتشفان سرّ اتّصال الذكر بالأنثى، وبدأت تملأ رأسيهما فكرة جديدة لم يعرفاها من قبل: لماذا لا يفعلان كما تفعل الضفادع؟ فكان أن تزوّج الإلهان. ولم يكد يمضي من الوقت سوى القليل حتّى أنجبت "إيزانامي" أربعة آلاف ومائتَين وأربعة وعشرين ابنًا هم مجموع جزر اليابان[1]، بكلّ ما فيها من جبال وأنهار وصخور، وبكلّ ما يعمرها من ناس وحيوان ونبات، تتساقط، كما تقول الأسطورة، من الثقب الذي حدث في السماء. وتساءل الإلهان يومًا: لماذا لا يخلقان ابنًا جديدًا يكون سيّدًا لهذه الأرض؟ ولم يكن هناك ما يمنع التنفيذ[2]. فولد الإلهان خمسة وثلاثين إلهًا، كان آخرها إله النار "كاغو تسوشي" الذي أحرق أمّه عند ولادته. واغتاظ "إيزاناغي" لذلك الفعل، وركل إله النار فتكوّن منه المزيد من الآلهة. وتستمرّ الرواية حتّى تصل إلى إلهة الشمس "أماتيراسو"، وهي أعظم آلهة اليابان. وقد وُلدت من عين "إيزاناغي" اليسرى، وفي الوقت نفسه وُلد من عينه اليمنى إله القمر "تسوكي يومي"، ومن أنفه إله العواصف

---

١ ـ قابل: صعب، الأديان الحيّة، ص٩٧، حيث يذكر أنّ "إيزانامي" وضعت من رحمها جزر اليابان الثماني الكبيرة.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٥٨.

"سوسا نو وو"[1]. وكان لا بدّ "لإيزانامي"، بعد ذلك، أن تنحدر إلى العالم السفليّ بعيدًا عن الأرض التي خلقتها. وتحكي قصّة الكتابَين المقدّسَين بعد ذلك كيف كافح الأب ليحاول إنقاذ زوجته من العالم السفليّ. ولكنّ كلّ جهوده ذهبت عبثًا، واضطرّ إلى الهرب من الجحيم عائدًا إلى الأرض[2].

في ذلك الوقت كان هناك صراع آخر يجري بين الآلهة الأبناء: "أماتيراسو" و"تسوكي يومي" و"سوسا نو وو". وكان الصراع مريرًا انتهى آخر الأمر بانتصار ربّة الشمس، التي كانت قد غضبت لعدم تأييد بقيّة الآلهة لها خلال صراعها مع أخيها ربّ العواصف، فاختفت عن الظهور، وعاش الناس في ظلام يصرخون. فلمّا انضمّ إليها الآلهة وناصروها واشتركوا جميعًا في هزيمة "سوسا نو وو"، عادت إلى عرشها ولم تغب منذ ذلك اليوم عن أرض اليابان أبدًا. وعادت الحياة إلى الأرض، وانقطعت عن الآلهة صرخات الاستنجاد التي كانت تنبعث من أهلها. غير أنّ الآلهة عادوا يجتمعون من جديد.. ولم يكن صراخ سكّان الأرض هو السبب هذه المرّة، بل كان الضيق الذي أصابهم مبعثه ذلك الطنين المزعج المنبعث من كلّ ما على الأرض من جبال وصخور وسهول وأشجار، فقد كانت كلّ هذه الأرواح لا تزال تتكلّم تمامًا كأبناء البشر. وكان الطنين الذي يُحدثه كلامها يؤرق آلهة السماء. فلم يكن بدّ من الاجتماع لمناقشة الأمر والبحث عن وسيلة للقضاء على الضجيج وإرساء السلام والهدوء على الأرض.

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٩٨؛ قابل: مظهر، قصّة الديانات، ص٢٥٨، حيث جاء أنّ "إيزانامي" ولدت أنثى هي "أماتيراسو" ربّة الشمس، كان لها من الجمال والروعة ما جعل والدَيها يُرسلانها على الجسر الإلهيّ إلى السماء، لتستقرّ هناك وترسل أشعّتها الذهبيّة لتنير الأرض. وبعد "أماتيراسو" عاد الإلهان يُنجبان من جديد. وكان الإبن التالي هو "تسوكي يومي" إله القمر، الذي أرسله أبواه على قوس قزح ليستقرّ هو الآخر في السماء. وعندما اختلف الأخوان في السماء لم يجدّ أبوهما بدًّا من أن يُبعد كلاً منهما عن الآخر. فمنح "أماتيراسو" مملكة النهار، ومنح أخاها مملكة الليل.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

وعندما ارتفعت أصوات الآلهة في خلال المناقشة، تقدّمت ربّة الشمس باقتراحها أن ترسل حفيدها "تينيجي" فيحكم هذا العالم المضطرب ويُعيد إليه المجد والسلام. وإذ وافق الجميع، قرّبت إلهة السماء "أماتيراسو" حفيدها منها ومنحته بركاتها ونصائحها وزوّدته بهدايا ثمينة قيّمة، من بينها أحجار كريمة اقتُطعت من سلّم السماء، وكرات شفّافة من قبّتها، وسيف خالد وُجد في قلب التنّين، كما منحته المرأة السماويّة الخالدة التي أهداها لها كبير الآلهة. وانطلق "تينيجي"، ابن السماء، في طريقه إلى الأرض. واستقبله ربّ الحقول الذي أخذه في رحلة طويلة مرهقة حول الأرض، التي كان عليه أن يحكمها ويُهديها إلى السلام. وفي إحدى المناطق المقدّسة استقرّ رأيه على إقامة قصره، وهناك شهد "تينيجي" حسناء رائعة تنتصب قائمة إلى جوار حدائق الزهور، وتقدّم ابن السماء منها يسألها مَن تكون. فقالت له: أنا "كونوهانا" ابنة ملك الجبل المقدّس، ومهمّتي أن أصنع الزهور التي تغطّي أشجار هذه الأرض. ووقع ابن السماء في هوى ابنة ملك الجبل، وعندما انطلق إليه يطلب يد ابنته، أبى هذا الإله إلاّ أن يزوّجه أختها الكبرى معها، برغم دمامتها وقبحها، فقد كانت هي ربّة الصخور، وكان الأب يريد لأبناء بنتَيه أن تكون أعمارهم خالدة كعمر الصخور. ولم يجد "تينيجي" بدًّا من الزواج بالأختَين، غير أنّ كلّ حبّه كان يتّجه إلى الزوجة الحسناء، وبدا منه إهمال كبير لشقيقتها المشوّهة التي أقسمت أن تنتقم. وفي ذات يوم أعمت الغيرة قلب "تينيجي" على زوجته الحسناء، ولم يكن هناك من سبب لتلك الغيرة المجنونة التي شقيت بها "كونوهانا"، والتي جعلتها تنطلق إلى كوخ وتغلقه على نفسها. ثمّ تشعل في نفسها النار. ومن بين ألسنة اللهب خرج ثلاثة أطفال، كان من بينهم "هوري" الذي تسلسلت منه سلسة مقدّسة متّصلة الحلقات من "الميكادو" وهم الأباطرة الذين جلسوا على عرش اليابان منذ ذلك التاريخ

حتّى اليوم[1]. وكان حفيد ذلك الحفيد "تينيجي"، أول أمبرطور بشريّ حكم اليابان منذ العام ٦٦٠ قبل الميلاد. وتضيف الرواية أنّ شعب اليابان هو سليل الآلهة التي كانت تقطن الجزر. وهم جميعًا أنسباء الأمبراطور وأقرباء في ما بينهم[2].

عن طريق هذه القصّة أمكن تحديد أسس كثيرة عن حقيقة عقيدة الشنتو. وعن طريق هذه القصّة أيضًا عبد اليابانيّون "الميكادو". بل إنّ الناس حتّى اليوم يعتقدون أنّ "هيروهيتو" هو الحفيد الرابع والعشرون بعد المائة لإلهة الشمس "أماتيراسو". ومن أجل ذلك استطاعت عقيدة الشنتو بتبشيرها بأنّ "الميكادو" هو حفيد إلهة الشمس، أن تجعل أتباعها يؤمنون بأنّ واجبهم الدينيّ هو الولاء لحاكمهم. وبتعليمها الناس كيف يعبدون جبال اليابان ووديانها، ملأت أعماقهم بالحبّ والعشق لبلادهم[3].

وقد استمرّت الإلهة "أماتيراسو" تحتلّ عند اليابانيّين المكان الأرفع بين الآلهة التي تعجّ بها أرضهم التي أطلقوا عليها اسم "أرض الآلهة". وقد أقام اليابانيّون لإلهة الشمس "أماتيراسو" هيكلاً في "إيزي ISÉ" واعتبروه أقدس مكان في البلاد. وتقع "إيزي" على بعد ٣٠٠ كلم جنوب غرب طوكيو، بالقرب من ثغر الخليج الجميل الذي يحمل هذا الإسم. وهناك جادة يبلغ طولها ستّة كيلومترات ونصف الكيلومتر، مشقوقة وسط غابة من الأشجار الباسقة، وتملؤها المعابد على الجانبَين. ويُقسم معبد "أماتيراسو" إلى قسم خارجيّ وآخر داخليّ. وفي القديم لم يكن يُسمح بولوج الداخل إلاّ للكهنة المخوّلين والرسميّين[4].

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٦٠ ـ ٢٦١.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٩٧.

٣ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٦١.

٥ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٩٨، ١٠٢.

لكلّ ما سبق كان لا بدّ أن تجمع عقيدة الشنتو بين الوطنيّة والدين. وأن يحمل علم اليابان حتّى اليوم شمسًا حمراء لتبيّن أنّ أرض اليابانيّين هي الأرض المشرقة حيث كانت إلهة الشمس "أماتيراسو" تقيم[1].

طقوس الشّنتو

ومعَبدُهم وشعَائرُهم

كانت طقوس الشنتو في البداية بسيطة إلى أقصى حدّ، إذ لم تكن تتطلّب مباني خاصّة، بل تُقام الصلوات، وتؤدّى الطقوس، في هياكل طبيعيّة، تحت شجرة "ساكاكي SAKAKI" المقدّسة مثلاً، وهي موجودة الآن داخل كلّ هيكل في أيّة ضاحية، ويتلفّظ بالكلمة الإلهيّة عن طريق "الشامان"، وهو في حالة استحواذ الكامي عليه ويعبّر عنها بلفظ "كامي ـ جاكاري KAMI-GAKARI" أو "كانجاكاري KANGAKARI" التي كثيرًا ما تتجلّى في رقصة الوجد. ولا تزال خليفة الشامان الأنثى موجودة في الهياكل حتّى يومنا الراهن، وذلك في أشخاص الـ"ميكو MIKO"، وهي الكاهنة التي كانت تقوم بتأدية الرقصات الدينيّة، وبمساعدة الكاهن في حفلات الزواج، وهي في العادة فتاة عذراء تخدم المعبد من خمس إلى عشر سنوات قبل أن تتزوّج، وقد تكون امرأة تقوم بدور الوسيط وإبلاغ كلمات الإله للناس، وهي في حالة غيبوبة. وهنّ اليوم مشرفات الهيكل المسؤولات عن الـ"كاجورا KAGURA"، وهي الرقصة الصوفيّة التي ترمز عادة إلى توحّد المتعبّدين مع "كامي الهيكل"، ولم تتطوّر بالتدريج كهانة نوعيّة خاصّة فحسب، بل ظهر كذلك نمط خاصّ من بناء الهيكل. وليست هناك صورة تمثّل "الكامي" بل

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٦١.

مجرّد "شنتاي SHINTAI" يعبّر تعبيرًا رمزيًا عن الكامي الذي يمكن أن يكون واحدًا من YAOS-YOROZO-NO-KAMI أي: "الثمانية ملايين كامي" التي تحدّث عنها كتابا "كوجيكي" و"نيهونغي".

كانت العبادة في بدايتها مسألة عائلية خاصّة بشؤن الأسرة لا العشيرة، ولمّا كانت العشيرة امتدادًا للأسرة. فهناك عدد كبير من الهياكل مخصّص للـ "يوجي غامي UJI-GAMI" أي "كامي العشيرة"، وهي تختصّ بالمصالح المشتركة للعشيرة، والقول بأنّ الجماعة تستمدّ وحدتها من علاقاتها "باليوجي غامي" بوصفهم "يوجيكو UJIKO" أي "أطفال العشيرة"، لا بدّ أن يوحي في الحال بأنّ "يوجي غامي" يقوم مقام الأب LOCO PARENTIS بالنسبة للجماعة، أي أنّه الـ "أويا OYA" أو "الأب". كما يوحي بأنّ طلب الحاجات الماديّة له مغزاه، لأنّ الأب على استعداد لأن يمنح أطفاله هبات سخيّة. وهيكل "يوجي غامي" يُسمّى "هيكل العشيرة"، أو "هيكل عشيرة كامي". وعلى الرغم من أنّ تنقّلات السكّان حطّمت روابط الأسرة والعشيرة القديمة، فلا يزال هناك إحساس بأنّ هيكل الجماعة هو بؤرة الهويّة الواحدة، ويحقّق عيدها تماسك التجمّع المحلّيّ، وعندما يؤخذ الطفل إلى الهيكل لا يتمّ ذلك لكي يشارك في عبادة عامّة أو ليلتقي تهذيبًا، بل لكي يتعرّف ببساطة على الرابطة الأساسيّة التي تربط بينه وبين جماعته وبين الكامي KAMI[1].

ذكر باحثون أنّ تأثير عبادة الأسلاف كان يعني أنّ الـ "يوجي غامي" يمكن النظر إليه على أنّه السلف الرئيسيّ المحلّيّ أو القائد المحلّيّ، ويمكن أن يحدث العكس، إذ يمكن للسلف الفعليّ أن يتّخذ مكانة الـ "يوجي غامي". ويبدو أنّ الحالة الأولى كانت هي

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة، ص٣٧٤.

حالة الأسرة الأمبراطوريّة التي كان في يدها زمام القيادة في عشيرة "ياماتو YAMATO"، فالأمبراطور لا بدّ أن يكون كاهن نفسه في عقيدة "أسرته" التي تحولّت في تاريخ مبكّر إلى "الهيكل الكبير "آيس ISE" الواقع في مدينة "أيس" على خليج "آيس" على المحيط الهاديّ، وهي تضمّ أعظم هياكل ديانة الشنتو وأكثرها أهميّة، وقد شيّد هذا الهيكل في القرن الثالث ميلاديّ، ويتألّف من هيكل داخليّ وهيكل خارجيّ، أمّا الداخليّ فهو مخصّص لعبادة الإلهة "أماتيرا سو" إلهة الشمس، وللجدّ الأول في الأسرة الأمبراطوريّة اليابانيّة، وهو يضمّ "المرآة المقدّسة" التي هي جزء من الرموز الملكيّة وتجسيد للآلهة. أمّا الهيكل الخارجيّ فقد أُسّس في أواخر القرن الخامس ميلاديّ وخُصّص للإلهة "تويوك ميكامي" إلهة الزراعة وتربية دودة القز. وكان التقليد يقضي بأن يكون القيّم أو الحارس لهذه الهياكل أميرة غير متزوّجة. "وأصبح يُنظر إلى حارس الأسرة "كامي" على أنّه سلف الأمبراطور. وقد احتفظ لمدّة طويلة بالنموذج الشامانيّ الأقدم عهدًا. حيث كان يمثّل الأمبراطور في الهيكل أميرة من الأسرة الأمبراطوريّة. وبالمثل، كان هيكل "تيشا TAISHA" في "إزومو IZUMO" هو هيكل عشيرة "إزومو"، وكانت مدينة "إزومو" في بدايتها سوقًا تجاريًّا هامًّا للمنتجات الزراعيّة المحيطة بها، لكن ترجع شهرتها إلى أنّها مركز دينيّ هامّ للشنتيّة، وفي ضاحية "تيشا" التي تبعد خمسة أميال في الشمال الغربيّ يقع أقدم هيكل لديانة الشنتو في اليابان، وهو يجذب الحجّاج طوال العام، وهناك هياكل كثيرة في منطقة "إزومو". كما وصفت العاصفة كامي، وهي "سوزانو ـ نو ـ ميكوتو SUSANO-NO-MIKOTO بأنّها مشتبكة في صراع مع "أماتيراسو أو ميكامي" وهي "كامي" عشيرة "ياماتو"، وكثيرًا ما كان يطلق على منطقة "إزومو" اسم "أرض كامي"، إذ كانت هي مركز الديانة في اليابان القديمة، وهيكلها هو أقدم هيكل في اليابان. ويقال: إنّه في شهر تشرين الأوّل (أكتوبر) من كلّ

عام يجتمع هناك "الكامي" من جميع أنحاء البلاد في لقاء عظيم، ويعقدون الزيجات؛ ولهذا السبب يُسمّى هذا الشهر "أزومو" كامي ـ أني ـ زوكي "KAMI-A NI-ZUKI" أي "شهر مع كامي"، بينما تتحدّث مناطق أخرى عن KANNA ZUKI أي "شهر بدون كامي". وتتّجه الهياكل الشنتويّة، في العادة، نحو الجنوب، وأحيانًا نحو الشرق، أمّا الشمال والغرب فهما مناطق غير محظوظة كما يعتقدون. وعندما يقترب المتعبّد من الهيكل فإنّه يمرّ عبر الـ "توري TORII" أي "بوّابة الهيكل"، وربّما مرّ عبر مجموعة كاملة من هذه البوّابات. وبوابّة الهيكل تشبه بوّابة أيّ منزل، وقد تُصنع من الخشب أو الحجر أو البرونز أو حتّى من الإسمنت. وكانت الهياكل القديمة تستخدم بوّابات من خشب السرو. وكثيرًا ما كان يُحتفظ بالطابع الطبيعيّ للشجرة، والهيكل كلّه يُطلى باللون الأحمر في العادة، وبعد الـ "توري" يمتدّ طريق إلى الهيكل مملوء بمصابيح من الحجر يتبرّع بها المتعبّدون، وكان الهيكل في كثير من لأحيان يحرسه كلبان كوريّان، أو أسدان صينيّان، باستثناء هياكل الـ"إناري INARI" المخصّصة لـ"كامي حقول الأرز" التي يحرسها تمثال الثعلب الذي اعتقدوا أنّه رسول "كامي"، وهو كذلك رمز للخصوبة التي كانت الهدف من إقامة هياكل "إناري".

وتروي المدوّنات أنّه إذا كانت زيارة الهيكل زيارة خاصّة، سار الزائر على قدمَيه، وبمجرّد أن يتخطّى الـ "توري" الأوّل، أي البوّابة الأولى، لا بدّ له من أن يغسل يدَيه وفمه من ماء نبع طبيعيّ في مجمع الهيكل، أو من حوض الماء المحفور في الصخر، مستخدمًا أواني يزوّده بها الهيكل، ثمّ يصفّق المتعبّد وهو يحني الرأس إجلالاً أثناء تقديم توسّلاته. ويمكن أن يُكتب التوسّل على ورق، ويُعلّق على إحدى أشجار الساكاكي SAKAKI المقدّسة. أمّا العبادة الرسميّة فتتضمّن أكثر من ذلك أربعة عناصر هي: فعل التطهير "هاراي HARAI" بالإضافة إلى الاغتسال، عندما يُلَوِّح الكاهن بفرع

من شجرة السكاكي أو بورقة منها على رأس المتعبّد؛ ثمّ القربان "شينسن SHINSEN" الذي يكون من الحبوب أو الشراب، وإن كانت العادة جرت الآن أن يكون من المال، أو قد يكون رمزيًّا في صورة غصن من شجرة السكاكي؛ وطقوس الصلاة NORITO؛ وأخيرًا الوليمة الرمزيّة "NEORAI"، دلالة على تناول الطعام مع كامي، وكثيرًا ما يشمل العنصر الأخير رشف قطرات قليلة من خمر الأرز "ميكي MIKI" المقدّس الذي كان يقدّم في البداية في عيد من أعياد الحصاد، ويقدّمه الكاهن أو إحدى الكاهنات من الـ"ميكو MIKO"، ويمكن لجماعات المتعبّدين أن تطلب أيضًا تأدية الرقصة المقدّسة للمعبد "كاغورا KAGURA" التي يوجد منها خمس وثلاثون رقصة تُعبِّر عن الأساطير القديمة. وتكاد صلاة "توريتو NORITO" أن تكون محصورة في موضوع المطالب البشريّة. وكان على الكهنة في كلّ هيكل إعداد صلوات يرونها ملائمة لكلّ مناسبة، وظلّت هذه العادة قائمة حتّى عصر سلالة "ميجي MEIJI" (١٨٦٨ ـ ١٩١٢) عندما بدأت الدولة تستخدم ديانة الشنتو لأغراض قوميّة. لكنّ الدولة قدّمت، منذ عام ١٨٧٥، صلوات رسميّة تؤدّى في الأعياد والطقوس المقرّرة، ومنذ عام ١٩٤٦ بدأت "جمعيّة هياكل الشنتو" التي يرتبط بها أكثر من ٨٠،٠٠٠ هيكل في إعداد الصلوات، وإن تركت للكهنة حريّة تأليف صلواتهم الخاصّة بهم إذا ما رغبوا في ذلك.

وجاءت عبادة الشنتو إلى المنزل من خلال "كامي ـ دانا KAMI-DANA" أو "رف ـ كامي" أو "الإله على الرف"، وهو هيكل المنزل. وكان من المألوف أن توجد فيه تمائم مجلوبة من هيكل "آيس ISE"، أي هيكل العشيرة أو الهيكل المحلّيّ، وهو الهيكل الذي أصبح هيكلاً قوميًّا بعدما توحّدت الأمّة بوصفها أسرة واحدة مع الأمبراطور الذي يقوم بدور الأب. ولا بدّ من تقديم القرابين، كلّ صباح وكلّ مساء، لألواح الهيكل وألواح

الأسلاف في آن معًا. ولا بدّ للمتعبّد الورع أن ينحني، بعد مراسم الوضوء أمام الهيكل ويصفّق بيدَيه مرتَين، ثمّ ينحني مرّة أخرى في صمت لمدّة دقيقة.

تخلو ديانة الشنتو، أساسًا، من الصوَر، أمّا الرموز فوفيرة، وأكثرها شيوعًا المرآة التي تربط الأساطير بينها وبين الإلهة "أماتيراسو" إلهة الشمس، فهي واحدة من ثلاثة رموز، أمّا الرمزان الآخران فهما السيف والجوهرة التي وهبتهما لحفيدها عندما هبط إلى الأرض، وقد تعلّم حفيد آلهة الشمس، "تنيجي ـ نو ـ ميكوتو NINIGI-NO-MIKOTO" الذي نشأت من ذريّته سلسلة من البشر، وهم كلّ أباطرة اليابان، توقيرها وعبادتها بوصفها "روحًا"؛ ولهذا أصبحت المرآة هي الرمز المقدّس في كثير من الهياكل ـ ولا سيّما في هيكل آيس ISE الكبير. وهناك أنماط كثيرة لأعياد الهيكل، وبغضّ النظر عن الأعياد الموسميّة التي تعكس المجتمع الزراعيّ، وعن عيد السنة الجديدة، فإنّها ترتبط بالتراث وبالظروف المحليّة، ويحمل شباب المنطقة أثناء الاحتفال "ميكوشي MIKOSHI" المحمول، أي المحفّة المقدّسة للكامي على أعمدة طويلة، وبمصاحبة قدر كبير من المرح العفويّ. وقد يستعيد الموكب بعض الأحداث التاريخيّة، وقد يكون مجرّد إشارة إلى أنّ "الكامي" موجود مع أتباعه، وقد جاء لكي يباركهم. ولقد ظلّ هيكل الشنتو مرادفًا لدولة الشنتو حتّى عام ١٩٤٥، عندما سُحب الاعتراف به. وقد أُسّست دولة الشنتو على فكرة أنّ رخاء الأمّة وسلامة البيت الأمبراطوريّ، وسعادة الشعب، هي نعم إلهيّة توهب عندما تتّفق سياسة البشر مع إرادة الآلهة. أمّا مبدأ "سايزي إتشي SAISEI ITCHI" أي "وحدة الطقوس الدينيّة والسياسيّة"، فقد استُمدّ من اقتناع ضمنيّ في الشنتويّة بأنّه لا ينبغي للحياة أن تقسم إلى أجزاء، ولا أن تكون هناك تمييزات حادّة بين المقدّس والدنيويّ[1].

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٧٥ ـ ٣٧٧.

مذاهب الشينتو

وتعدادهم اليوم

كانت ديانة الشنتو قد توزّعت إلى عدد كبير من المذاهب. وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر نشأ فيها مذهبان مهمّان. فظهر الأوّل على يد "مونيتادا" المولود عام ١٧٨٠، الذي اعتقد أنّ التأمّل العميق في الشؤون المقدّسة يُكسِب صاحبه فهمًا تامًّا للعلاقات بين الآلهة والبشر بحيث يحقّق الألوهة في ذاته. وقد جاورَ "مونيتادا" الفلسفة الرواقيّة عندما نادى بالروح الكونيّة الكبرى وأخوّة البشر؛ أمّا مؤسّس المذهب الآخر فيُدعى "كاواتي بونجيرو" (١٨١٤ ـ ١٨٨٣)، الذي، بعد أن تزوّج في العام ١٨٥٥ وأنجب عددًا من الأولاد، ساورته الشكوك حول شيطان اسمه "كونجين" كان يؤمن به، وحصلت له خبرة روحيّة حملت معها وحيًا خاصًّا من العالم الآخر، قائمًا على أنّ اللّه واحد وخيّر، وأنّه يلازم كلّ مَن يؤمن به. وربّما استمدّ بعض هذه العقائد من "مونيتادا"، لكنّه آمن بأنّ رسالته وحي مباشر من اللّه. ويستبعد باحثون أن تكون هذه التوحيديّة من ثمار تعاليم المبشّرين الأوروبّيّين الإنجيليّين أو أتباع "كسافييه XAVIER" الكاثوليكيّ، وينزعون إلى اعتبارها نتاجًا يابانيًّا خالصًا. وفي حين آمن "مونيتادا" بوحدة الوجود ونظر إلى اللّه على أنّه أنثى تأخذ دور الأمّ، فقد نظر "بونجيرو" إلى اللّه على أنّه الخالق الواحد المتعالي. ورأى أنّ الصلاة ينبغي أن تُرفع إليه مباشرة، من قلب مفعم بالإيمان. ودعا إلى الإيمان باللّه، الذي لا يُرى ولا يُسمع، بعيدًا عن الشكّ. فالشكّ إذا بدأ لا ينتهي. ومن تقاليد الشنتو التي انتقدها "بونجيرو" تعويل العديد منهم على ضروب السحر والتعاويذ تملّقًا للّه. وشدّد على إمكان الاتّصال المباشر باللّه. ورُوي عنه خبرات كثيرة من هذا النوع، عرَف فيها اللّه الحيّ واتّحد به[1].

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص١٠٠.

وفي القرن التاسع عشر استطاعت المدافع المنصوبة على البوارج الأميركيّة والبريطانيّة والفرنسيّة والهولّنديّة دكّ بعض المعاقل اليابانيّة. عندئذ أيقن اليابانيّون، ولا سيّما بعض الكارهين للأجانب، أنّ بلادهم ضعيفة عسكريًّا في مواجهة الغرب، وأنّ السبيل إلى القوّة هو تبنّي آلة الحرب الغربيّة القائمة على التصنيع. هكذا بدأت نهضة اليابان الثانية التي حقّقت آثارًا عظيمة. وبما أنّ كلّ نهضة تقوم على استلهام التراث إلى جانب تبنّي الحداثة، كان لا بدّ لليابانيّين من تأسيس عقيدة محليّة ترفض الاتّجاهات الفكريّة المستورَدة. ووجدت الطبقات الحاكمة مبادئ تلك العقيدة في الشنتو، لكنّها أخذت من الشنتو ما وجدته صالحًا للدولة والسياسة، وتركت العناصر الخرافيّة جانبًا. ومن الخطوات الأولى التي بادر إليها الأمبراطور "ميكي"، بعد الدستور الإصلاحيّ عام ١٨٦٨، إعلان الشنتو دينًا رسميًّا للدولة وأمر بإلغاء العناصر البوذيّة من ممارسات الشنتو. لكنّ المزج بين الديانتَين كان قويًّا جدًّا إلى حدّ أنّ "تطهير" الشنتو من كلّ الآثار البوذيّة بدا مستحيلاً. وفي العام ١٨٧٧ أُعيد الاعتبار الرسميّ إلى البوذيّة، وجاء دستور ١٨٨٩ ليمنح جميع المواطنين الحريّة الدينيّة المطلقة. إلاّ أنّ الحكومة أنشأت وزارة للأماكن المقدّسة من أجل إحياء معابد الشنتو التقليديّة. وفي وقت لاحق صار هناك دائرة للشنتو ضمن وزارة الداخليّة، ودائرة للأديان ضمن وزارة التربية. لكنّ الحكومة ميّزت بين الشنتو كدين والشنتو كتراث قوميّ، متبنّية الشنتو كتراث. هذا يعني أنّ الدين الرسميّ كان علمانيًّا، وإن حصل داخل هياكل. والهدف منه تنمية الروح القوميّة لدى المواطنين، لكي يحافظ اليابانيّون على تراثهم الأصيل ضمن أمواج التجديد العلميّ والحضاريّ الوافد من الغرب. ومع تقدّم هذه الأمواج، ضعف الإيمان الدينيّ التقليديّ على نطاق واسع، وبدا هذا الضعف على أشدّه في الجامعات التي

شهدت النور آنذاك[1]. على أنّ الحكومة سارعت إلى تدارك الأمر وإنقاذ الشنتو لِما ينطوي عليه من قيم قوميّة. ومن الوسائل التي لجأت إليها إعادة النظر في الأساطير القديمة وتقديمها إلى العقل النقديّ الحديث في قالب مقبول. فقيل إنّ الآلهة التي تحدّثت عنها الأساطير هي كائنات حيّة ذات مواهب استثنائيّة، وإنّ إلهة الشمس "أماتيراسو" هي امرأة حكمت إحدى القبائل في فجر التاريخ اليابانيّ، وأرست أسس الحضارة اليابانيّة. وممّا ساعد على هذا التفسير ازدواجيّة معنى عبارة "كامي" "KAMI" اليابانيّة. فهي تشير إلى الآلهة، وكذلك إلى الكائنات التي تتمتّع بقوّة خارقة أو توحي بالخوف والإجلال. وكان العالم "موتووري" قد أشار إلى أنّ هذه الكائنات قد تكون آلهة في السماء أو أرواحًا أو بشرًا أو حيوانات أو طيورًا أو أشجارًا أو زروعًا أو أنهرًا. وأضاف "موتووري": "الكامي التي أتت من العصر الإلهيّ كان معظمها أناسًا عاشوا في تلك الآونة. وبما أنّ الناس في ذلك العصر كانوا كلّهم أشدّاء، فقد سُمّي عصرَ الآلهة". وكانت حكومة الأمبراطور "ميكي" قد أكّدت على أنّ مبادئ الشنتو التي تعتنقها الدولة هي مجموعة قواعد خلقيّة وقوميّة، قائمة على الفضائل اليابانيّة التقليديّة، مثل إكرام الوالدَين والمحبّة بين الزوجَين والأخوّة والصداقة بين المواطنين وطلب العلم والأمانة للتراث والخير العام. ومنذ العام ١٨٨٢ حجبت الحكومة مساعداتها عن الدين التقليديّ، ووضعت يدها على نحو مئة وعشرة آلاف معبد، وعيّنت لها ستّة عشر ألف كاهن، مهمّتهم الحفاظ على تلك المعابد من حيث هي أمكنة ذات مغزى قوميّ. وأهمّها جميعًا المعبد الأمبراطوريّ الكبير في "إيزي"، المكرّس على اسم الإلهة "أماتيراسو". وكانت التربية القوميّة تقضي بأنّ يحجّ اليابانيّ إليه مرّة واحدة في حياته على الأقلّ.

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص١٠٠ ـ ١٠١.

وما يزال الأمبراطور يحجّ إلى ذلك المعبد في بداية السنة الرسميّة وعند اتّخاذ القرارات الخطيرة. وعند تنصيبه يذهب إلى هناك لرفع الصلاة الشخصيّة. وهذا ما حصل مع الأمبراطور "أكيهيتو"، ابن "هيروهيتو"، عام ١٩٩٠.

وبعد فصل الدين نهائيًّا عن الدولة عام ١٩٤٥، أُعيدت المعابد التي كانت الدولة قد وضعت اليد عليها إلى عهدة رجال الدين، وقُطعت عنها المساعدات الرسميّة. وهذا قاد إلى إغلاق عدد كبير منها. ولم يبقَ سوى نحو ٨٦ ألفًا تلقّت هبات من مؤسّسات وأفراد. ومنذ ذلك الحين تكاثرت مذاهب الشنتو حتّى صار ما يزيد على الألف منها مسجّلاً لدى الدائرة الخاصّة في الحكومة. وبعض هذه المذاهب يتبنّى عقائد سيكولوجيّة أو علميّة مجاراةً للحداثة[١].

تميل هياكل الشنتو إلى تسجيل جميع الداخلين في سلك الجماعة الذين يُسهمون في احتفالات الهيكل، وهو ما يفسّر العدد التقريبيّ للأتباع بـ ٨٥ مليون نسمة. ومع ذلك فلا يوجد إلاّ ٢٢ ألفًا من الكهنة يقومون بالخدمة الدينيّة في ثمانين ألف هيكل. والأرقام التي تقول بها الفرق أكثر دقّة مع فرقة تنريكو TENRIKYO التي تذهب إلى أنّها تضمّ حوالي مليونَي عضو، لهم ١٥ ألف "دار عبادة"، وأكثر من مائة ألف ممّن تلقوا تدريبًا على القيام بالخدمات الدينيّة، وتضمّ فرقة "كونكوكيو KONKOKYO" أكثر من ٦٠٠ ألف عضو يؤدّون طقوس العبادة في ١،٣٥٠ معبدًا، ويقوم بالخدمة الدينيّة ٣،٦٠٠ كاهن، أمّا فرقة "كيروزميكو KUROZUMIKYO" فتذهب إلى أنّ عدد أتباعها أكثر من ٧٠٠ ألف، وإن كانت لا تملك سوى ٣٠٠ معبد يقوم بالخدمة فيها ٣،٤٠٠ كاهن[٢].

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ١٠٢.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٤٠٧.







